شـعـر»

إيتل عدنان

جنين

(مقاطع)

. . . وفي الليل، حين كفَّت السماء عن النَّحيب وانقطع مطر النّمور والجدران المتهاوية، اكتفى اللصوص المسلّحون بغنيمة هزيلة وأغلقت المقاهي أبوابها ليبدأ نشاط المواخير. حين ذابت شموع الفوانيس وعاد الكهنة إلى ممارسة عاداتهم الدنسة، ارتعش المطر رعبًا من قذائف أسرع من الضوء وتدثّرت السماء بدخان كثيف من بقايا عظامنا التي كانت تحترق على نار هادئة والتي توهّمنا أنها غادرت أجسادنا، ففاجأتنا بأنها بعد في فلسطين تخنق حناجر الجلاّدين المتورّمة بيأس محكم يحملهم إلى بيوت أمهاتهم ليغتسلوا، وتزرع الهوس في آذانهم كي لا تسمع إلاّ « نفير أريحا » الشهير . . . وفي قلوبهم التي باتت تخلط بين السنين والنجوم، الأحصنة وعقارب البحر . . .

يومها، رفض الليل أن يُمطر على رؤوس الخراف، ورأينا البرق يمتزج بالسحب الحبلى بالدم والدمع. كذلك خاطبت المادة أرواح الموتى الذين كفّواعن الإصغاء، مثلما فقدت الشعوب صوتها، فمشينا فوق العوسج والشوك والقرّاص، بعد أن استنفدت عيوننا مفردات الظلام. وبعد المطر، هبط علينا ملاك لم تعرف له إسمًا فراحَ يحصي جراح البعض والأعضاء المبتورة بسكين المطبخ من أجسام البعض الآخر. ثمّ دوّنَ كلّ ما أحصاه في سجلّ ذهبي مُوَحَّل!

وهكذا تمدّد البحر مرتعشًا من الفزع، ثم أمر أمواجه بالتأهُّب للقتال. عندها سمعنا صخب آلات همجيّة وأقسمنا على قتل الحياة والموت معًا، بعد أن هيّأنا لذلك فضاءً من النار والدموع.

لم يخرج أحدٌ حيًا من مخيّم المحكوم عليهم. رأينا بروقًا ورعودًا تشتعل في بيوت مكتظّة بالاطفال، رأينا البؤس مرتديًا وجه امرأة. لكنّ أحدًا منّا لم يتوقّف عند هذا المشهد، فكل الأحياء كانوا موتى. كفّنّا الموتَ بعَلَم كبير ثم دفنّاه في مقبرة عامّة كانت من قبل مدينة أُناسٍ اعتادوا أن يتناولوا كلّ صباح قطعة كعك جافّة إسمها الذكريات.

بعد اليوم، لن نرسم خطوطًا مستقيمة، بل سنطلب إلى الربيع أن يسجّل وقائع الجريمة في دفتر يومياته ... وإلى الخريف أن يجهر بانضمامه إلى الخَوَنَة. سنشعل نوافذنا بالشمع الحارق، وأبدًا لن نطلب إلى الخفافيش أن تدلّنا على مسالك ثعالب الصحراء. هيّا، جهّزوا الشاحنات التي ستحملنا إلى المسلخ حيث تمتلئ القدور بالخراف المطهوّة بالليمون الحامض والدم. ثمّة مادبة تُعَدُّ للجنرالات المنتصرين.
حجبت وجهَها الشمس، واللوز أقسى من الحجر على أضراسنا. أمّا العاصفة، فإنها حملت أسرَّتنا إلى حقل دعارة جماعية إحتفاءً بالعنف الهائج الوضيع. أسلحة القتل اشد برودة من الهواء التي يطوّقها. إنها تؤذي دون أن تُخيف. وفي حنين ابتدعت شرًا من نوع جديد سرعان ما تحوّل إلى شيء آخر كنّا ننتظره، لكنّه أتانا بعكس ما كنّا ننتظر. يحق لنا إذًا أن نحقد، وإن كان من الأفضل أن نتروّى في استخلاص العِبَر والخواتيم.

لم نعد ننتمي إلى هذا العالم، فالغابات أضحت عديمة الشفافية، وحيوانات الليل تُنجب جراءً متوحشة قميئة كالمسوخ. في تلك الليلة البِلا مطر، قرع الشر بابنا قبل طلوع الفجر. كانت الشوارع تدور فارغة إلاّ من أحصنة تجري ثم تغرق دون سبب.
ها نحن في مدار الكابوس المشعشع بالنجوم ... الكابوس الذي يزرع الياس وسط ربيع ماهول بأشجار مزهرة وجبال نديّة مكلّلة بسحبٍ مضيئة. في خضمّ هذا الجمال الباذخ، ضلّت عيوننا الزائغة طريقها من الغرب إلى الشرق عبر التلال الوردية وعذابات المحاصرين بالدبابات، المسجونين في نظرات قاتليهم.

كان هذا كلّه بصفة تحدٍّ في وجه عالم يسيطر عليه جنون آخر، جنون غريب على يأسنا. فثمّة مواجهة مأساوية بين موت الإنسان في موضع وانتعاش الأمواج المثلجة الهائجة في محيط يصهل سعادته واعتزازه بوجوده قبل ولادة وعينا المعذّب بدهور ودهور. ثمّة فارق موجع بين ما ينحلُّ ويتلاشى وما لا يكفُّ عن الولادة.

إنّنا نعيش في قعر الهاوية أقرب إلى الليل من دود الأرض، وهو ما يصعب علينا البوح به. الغاز يحرق ذاكرتنا، يتركنا بلا إسم ولا عنوان، لا معاش تقاعد لنا سوى أمراض لا برء منها. في رؤوسنا التي أصبحت سجنًا، تتحوّل الأفكار إلى قيء مسموم لا همّ له سوى إقناعنا بأن الموت معذور. لهذا تخلّت عنّا الطبيعة، خذلتنا وحجبت جمالها عنّا.

في طفولتنا كانت بصيرتنا متفجّرة الحضور. فأين ذهبت هذه الطفولة؟ قتلها أولئك الذين تجاوزوا قتل الجسد إلى قتل كل ما لا يرى فينا: كل ما كان يقوم مقام السعادة في أرواحنا. هكذا شاخ الكون، أصبح عمره مليارات السنين، بينما تواصل النجوم صراعها من أجل البقاء.

تحت القبور ثمّة تراب نديّ. سجّاد منسوج بألوان نباتيّة، وثمّة سجادة وحيدة ذات لون أمغر ذكّرني بوجه واحد من المذبوحين في جنين. لا تقلقوا. لن تروا تلك السجادة. لأن جنود العدوّ واصلوا عملهم تحت جنح الظلام ليزداد الكون – معنا ومثلنا – شيخوخةً فاجعة.

هل سنستدرج الآلهة إلى هاويتنا الأخيرة؟ هل سيظل تسلُّط البعض مرهونًا باضمحلال البعض الآخر؟

في المخيّم مخيَّم: مراتب الجحيم تتداخل. ها نحنُ جالسين في استراحة التأمُّل والتخلي. الحروق البيضاء تزحف على أجسامنا، كل واحد منّا أسير آلامه الحبيسة في عظامه، مثلما العظام حبيسة الجسد والجسد حبيس البيوت الحبيسة داخل جدرانها.

من سيعيد عقارب السّاعة إلى دورانها؟ ثمّة على الأبواب المتناثرة بين الأنقاض كتابات بسيطة وبعض رسوم يمتزج فيها مداد المحابر بالدم. ألهذا أصبحت كتاباتنا موحِلة؟

ثمّة بقايا ثياب وأثاث تجمّعت إلى بعضها لتكون غطاءً منيعًا لأشلاء ممزّقة تبعثرت في المكان. يتساءل الليل إن كان من حقّه أن يخفي كل هذه الفظائع، ثم يحزم أمره: قرّر البقاء معلقًا في أعالي السماء، آخر ما يملكه المستضعفون. أما الصمت فقد هبط مثل أيّ سُلّم وتوارى. غطّى بثقله جنين. وحين تعرّف عليه بعض المحتضرين، استنجدوا بأمهاتهم، لكن الأمهات كُنّ راقدات في الحجرة المجاورة برؤوسهن المقطوعة الملقاة فوق الوسادة التي ما أن لامسها منديل السهروردي حتى ابتلّ بالدماء . . .
بعد المجزرة بأسابيع، رأيتُ فتًى يقرأ في كتاب عن فن تشييد المقابر، ويحار إذ لا يجد مكانًا لدفن كل موتاه. لذلك هجر دروسه والتحق بالثوّار. لا أحد يعرف أين ذهب، ولا إن كان بعد على قيد الحياة . . .
ثمّة ما هو أضيق من الموت. إنه ما محوناه بممحاة الأطفال على سبّورة التاريخ . . . التاريخ آخر أوهامنا!
حين كان البرد يغزو بيوتنا البلا تدفئة، كُنّا نتدفّأ بذكرى الأجداد. نقول لأنفسنا إنّ أجدادنا كانوا أنصاف آلهة. لكنّ القتلة سرعان ما محوا بالقنابل تلك الذكرى، مؤكّدين لنا أننا بكل بساطة غير موجودين على هذ الأرض. بدأوا باقتلاع أشجار الزيتون، ثم أحرقوا البساتين، ثم البيوت . . . وحين اختفى كل شيء، ألقوا بالأطفال والشيوخ والعرسان الميّتين أو الأقل موتًا في المقبرة العامة وطمروهم بتراب كثيف. كل هذا ليقولوا لعالم أنصاف الأحياء أننا غير موجودين، أننا لم نوجد، وأنهم لذلك كانوا مُحقّينَ في إبادتنا.

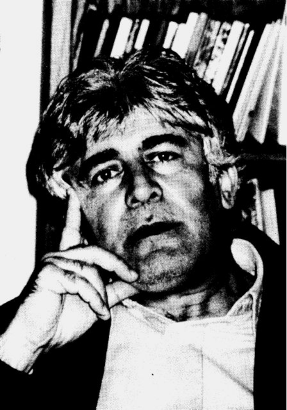
ترجمة حرّة عن الفرنسية: فايز ملص

إيتل عدنان – شاعرة عربيّة مقيمة في باريس
فايز ملص – كاتب سوري مقيم في باريس

سـركـون بـولـص

أُمُّ آشور تنزلُ ليلاً إلى البئر

وكيف حال امّ آشور . . .
سألتُ أهلي
حينما زرتُ مدينتي المهدَّمة
الموشّحة بدُخنة الحروب
بعد سنواتٍ طويلةٍ من الغياب
أين أمّ آشور التي كانت مرضعتي
بصدرها الأرحب من هذه الدنيا
ووجهها، إلهي
الذي بَرَت ملامحهُ
المذابحُ والكوارث حتى اكتسى بتلك الهالة
حتى تقدّست العينان؟
خبّرني، يا عمّانوئيل، أيها الصديق
عن ام آشور، اين هي، كيف تقضي
أوقاتها، خبّرني يا عمّانوئيل أيها الصديق
عن عزيزتنا أم آشور . . .
تقصدُ عمّتي اخت ابي الكبرى
أم آشور؟ هي ذات العينين الحزينتين مُذ كانت طفلة
حتى قبل إنها سيّدة الأحزان السبعة؟
تحكي لنا عن هروب أهليها عبر البراري
عن الأطفال تحت سنابك الخيول؟
هي التي كانت تطردنا بالحجارة



كلّما سرقنا طماطمها الصغيرة
لكنها تحاذرُ أن تُصيبنا ولا تُصيب
سوى سياج البُستان؟
امُّ آشور، عمّتي، اخت أبي الكبرى
ومرضعتك الفاضلة أيها الصديق
ذات الصدر الأرحب من هذه الدنيا
والوجه الذي برتْ ملامحهُ
المذابحُ والكوارث وموتُ الأحبّة
وفراقُ الأبناء
حتى اكتسى بتلك الهالة
حتى تقدّست العينان . . .
تعالَ الليلة
لأريكَ امّ آشور، تعال معي أيها الصديق
لنزورها
عندما تنزلُ ليلاً إلى البئر.
تقول إن الأرواح تناديها شاكية
من أبعد الأماكن لتنزل إلى البئر
وتواسي أمواتها، منذ ذلك اليوم الأسوَد
يومَ جاؤوها بآشور.
حينما سجّوهُ بين يديها
صاحت من الأعماق:
إلهي
من ينزعُ هذه الشوكة السوداء من قلبيَ الآن؟
سمعناها
وأحنينا الرؤوس. وماذا
سيرفعها بعد الآن؟ تعالَ الليلة
لأريكَ امّ آشور، تعالَ معي

أيها الصديق
لنزورها
عندما تنزلُ ليلاً إلى البئر.

هل ستجلسُ اليومَ أيضًا لتكتب القصيدة

من رأسِه
حتى كعبِه فالقُ الصخرة
مزرودٌ بالكلمات

غطسةُ السابح
في اللُّجَّة
في قلبِ غرّولة النهر
يخرجُ شاهقًا ما وراءَ الغرق

إذا ما الدنيا
ادارت ظهرها
للقاتل والقتيل، وغطّتْ
في نومها القرية

أصعدُ الدرَج
اللولبيّ بنعلي الخفيف
حاملاً مؤونتي
البسيطة
من المطبخِ في الأسفل إلى .
الغرفة في الأعلى

ركوةُ قهوة
وريشتها المتقرّنةُ من البخار
كمصباح علاء الدين

وأرى
على ضوء البرق
بين فجوات الدرابزين
المتعاقبة
هُلامًا من شباك العناكب
يُهفهف، وهنًا، في مهبّي
ابديّتهُ الهشّة
تزنُ صبرَها
كما تحصي ساعةُ الرمل
حبّاتها العصبيّة
على منضدة ناسكٍ معتزلٍ في جُبّهِ
(في لوحة
أين رأيتُها؟
في أيّ متحف، أيّ كتاب؟)

جُرعةٌ من القهوة
جَمرةُ السيجارة
(في يدي
بقُدرةِ قادرٍ
قلمٌ) –
كلماتٌ
تتسلّق ادراجَها
الحجريّة من الوقائع

بخفوتٍ لا يُضاهى

عُريُ الظروف
برقها الوامضُ تحت الجلد

سكّينها: كلُّ ما
يجرجرُ على الأعتاب وهو جريحٌ
أنفاسَهُ الأخيرة
في هذا العالم.
في الهجرات.
في عربات اللاجئين على الطرقات
المقصوفة
بطائرات «إف ١٦»

كلُّ ما جاءني
وفجأة غادرني
ساتراً عينيه بخرقةٍ
حمراء.

وجهُ الصبيّ
الذي رأيتهُ
في نشرة الأخبار (بكاميرا
الطيّار) يهربُ ملتفتاً برعب إلى الخلف
في مكانٍ ما من البصرة

وما من زلازلَ
محلومٍ بها هذه المرّة

تقوّضُ بيتًا فوق رأس عدوٍّ
فالمعادلةُ واضحةٌ
طعنة اليقين
لا يتبعها نزيفٌ...

عاريًا، إذًا،
فليكن أسوَدي
مختلطًا بأبيضي
على هذه الورقة

حيثُ وقتي
موقوفًا ومغلولَ اليدين
بقيدِ حروفي
سيأتي

ما عذّبني، ويؤرّقني

ما يريدني –
عطيّتهُ المُثلى أنا
لكن جهاراً، بقوّةِ ما أريد

نهاراتي التي...
كانت
نهاراتي
وَمْضاً، إليّ!
وليليَ هذا

كونُه كونٌ:
بايّة إبرةٍ خيطت هذه الستائر.

أيّةُ يدٍ
والصفحةُ تستسقي
أسوَدَها
ستُكمل هذا النسيج

أيّةُ ذكرى
لأيّ نهارٍ ستصهرُ
هيكلَ الليل الرصاصيّ
بوجوهِ نساءٍ تضيءُ لي عتمتي
من أيّ الخرائب
بثيابِ أسلافٍ
تُرفرفُ باليةً على شاطئي
من أيّ بحرٍ أغرقني
ووجدتُ فيه مركبي
في انتظاري

جدارٌ
كان بيني وبيني

حتى يُهَسهِسَ، أخيراً،
في الخارج، المطر
حتى تتشكّل، دمعيّةً، على
زجاج نافذتي
القطراتُ

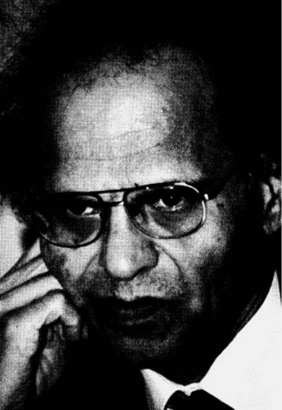
ولد سركون بولص في العام ١٩٤٤ في ضاحية «الحبانية» (غرب بغداد).
ثم انتقلت عائلته، وهو في الخامسة من عمره، للإقامة في مدينة كركوك في شمال العراق. حيث تعرّف هناك على أصدقاء الطفولة: مؤيد الراوي، جان دمو، فاضل العزاوي، جليل القيسي وأنور الغساني، حيث شكلوا ما سُمّي «مجموعة كركوك».

في العام ١٩٦٩ ترك العراق إلى بيروت، التي عمل فيها لفترة مع الشاعر أنسي الحاج في مجلة «شعر»، ثم ما لبث أن سافر إلى سان فرانسيسكو / الولايات المتحدة، حيث يقيم هناك حتى الآن.

امضى السنوات الأربع الأخيرة في أوروبا، وخصوصاً في المانيا، حيث حصل على عدة منح للتفرغ الأدبي وصدر له كتابان بالألمانية: «غرف مهجورة» (قصص، أيديسيون أورينت، ١٩٩٦)، و«شهود على الضفاف» (قصائد مختارة، «داس آرابيشه بوخ»، ١٩٩٧). وفي بداية العام الحالي، ٢٠٠٢، صدرت له بالألمانية «أساطير وتراب»، وهي رواية (سيرة) كتبها بالإشتراك مع الكاتبة البوسنية سافينا اوبجاز.

اعماله الصادرة:

– «الوصول إلى مدينة اين»، «منشورات سارق النار»، أثينا، ١٩٨٥.
– «الحياة قرب الأكروبول»، «دار توبقال»، الدار البيضاء، ١٩٨٨.
– «الاول والتالي»، «منشورات الجمل»، كولونيا، ١٩٩٢.
– «حامل الفانوس في ليل الذئاب»، «منشورات الجمل»، كولونيا، ١٩٩٦.
– «إذا كنت نائمًا في مركب نوح»، «منشورات الجمل»، كولونيا، ١٩٩٨.
– له مجموعة قيد النشر بعنوان: «لوح الصالر» ستصدر في شباط (فبراير) ٢٠٠٣.



ها أنذا أنفخ في البوق وما من أحد يسمع

نحن – الشعراءَ المبتهجين المتلفين سلامًا – نخرجُ للنزهة في وادي العشاق، نغنّي كالأطفال نشيدَكِ يا صحراءَ العربِ المسجونةَ في الأحلام.

نسري تحت خباءِ نجومٍ تتدلى موقدةً فوق الكثبانِ إلى المدنِ الملغومة بالأعداءِ، مخضّبةً بجراحِ ضحاياها الأيدي بين المرميين على الرملِ، تُهلّلُ للأسلافِ المتحدرين من الماضي في عرباتِ المستقبلِ، طالعةً من جسدِ الأيام، كأشباحٍ هائمةٍ في طرقاتِ الأجيال.

نتسللُ مثل لصوصٍ في ليلكِ بين الأسوارِ ونهدمُ في الريحِ العاصفةِ الرملية بأظافرنا أسوارَ سجونكِ، غائمةً بين غيومٍ، جارحةً مثل بكاءٍ في مركبِ نوحٍ مثقوب، نقلعها حجرًا حجرًا، في كلِّ رمادٍ في واديكِ نموت ونحيا ونقولُ:

سلامًا يا قائدةَ البدو المحتشدين أمام خليجِ العالم!

في النارِ وقفتُ لأكتبَ تاريخكِ في دفترِ أحلامي الضائع

في النارِ فتحتُ المستقبلَ موعوداً نافذةً لي

وصعدتُ إلى أعرابكِ، منحدراً من آخرِ برقٍ في هذا الأفقِ النائي

متشحًا مثل نذيرٍ مهمومٍ برداءِ خساراتهِ يمضي بين مُغولٍ يلتهمون قلاعَكِ في الظلمة

فاجترنا في وحدتنا الأنهارَ المفروشةَ بالطُحلُبِ والعوسجِ والبردي

جيشٌ وثنيٌّ في وادي الآلامِ. سالتْ، حيث يسيلُ الدمُ من نبعٍ في خاصرةِ الأرضِ:

أأقدرُ أن أحذفَ هذا التاريخَ الدموي وأكتبَ تاريخي وحدي؟

في ليلكِ أصرُخُ يا صحراءَ جدودي مبتهجًا:
ليعمْ ودبائلكِ حبي
حتى إن كنتِ ترابًا مغسولاً بدمائي
او وطنًا من دمعٍ يُسكبُ فوق حجارِكِ في الفلوات
نهراً يجرفني حتى آخرِ مرسًى في ضفتي
سيفًا في عنقي
أو بلطةَ جلادٍ في أطرافي.

بدويون يعانون الوحشة!
بدويون بروحٍ وبدويون بلا روح
يسرون كاسرى ابداً في السيلِ العارم
مشدودين إلى قاربكِ الجانح!
بدويون يلوذون بناركِ من انفسِهم في العتمة
بدويون ينامون على كتفيكِ لينسوا في وحدتهم ضجر الاعوام، تلف على مغزلها الدائر.

آه، هاتِ يديكِ، اقتربي منّي يا صانعة تاريخي
فانا – الواقفَ بين الموجةِ والموجة –
كلُّ حرائق ثورات العالم، هادرةً تبدأ مني
اتسلقُ سلّمَكِ الممتدَّ إلى آخرِ روحي في معراجي
ابحثُ عن كنزكِ مدفونًا في ذاكرتي
اصعدُ فوق الصخرةِ في تلٍّ يعصمني
مكتويًا باللعنة والحمّى وانادي:
أين النسغُ الساري في أعراقِ الأشجارِ؟ وأين العربيّ القادمُ من منفاه يواسي نفسه مثل ملاكٍ مطرودٍ في الأغلال؟

آهِ أنتِ الاخرى، ايتها الممتدةُ كالصرخةِ يا طرقي

انبلجي، انبثقي
في وجهِ قوافلكِ المنسية تائهةً في بيداءِ الربعِ الخالي
خارجةً من جرحِ الأجيال!

إنفتحي، احترقي
بشموسِكِ احملُها ابداً في كفي،
ادلُقها واحدةً بعد الاخرى من أجلكِ فوق ظلامِ العالم،
لاضيءَ وامضي، يكبرُ بي القي،
فانا الوثنيّ الموعود ارى الرعدَ، ارى البحرَ الخالقَ ياتي، أرمي نفسي في
لجته، اغرقُ فيه وفي فمي الكلِمة، أطلقها مثل نشيد سري
اترددُ بين الحاضرِ والماضي. اسألُ: هل اصعدُ ام اهبطُ في واديك السحري؟
وكيف أشقُّ طريقي في بيدائك إن لم يغمرني فجرُكِ، مطليًا بنجومكِ
تومضُ في دربِ التبانة؟
فاراكِ مُجللةً بسوادكِ تاتين إليّ الليلةَ بعد الأخرى لتُناديني
فنسيرُ معًا نتنزهُ بين خيامكِ في الجنة
ونشمُّ ربيعَ جداولكِ المسكوبةِ في الواحات.

ها أنذا آملُ أن أعبرَ وديانَك نحو مضاربِ آبائي
أن أجلسَ في فردوسِك، هذا المنسيُّ، أناجي ايامَ الإنسانِ الطالعِ مثل ربيعٍ
في غابة
من كلِّ رمادٍ مسكوبٍ في الريح
من كلِّ دمٍ مسفوحٍ في البرية
ها أنذا اسمعُ اجراسَكِ تقرعُ،
اسمعُها ابداً تقرعُ صاخبةً لي.

آه، في الليلِ وقد صُلبَ العاشقُ والمعشوقُ هنا في حقلكِ، هذا القائم من
اجلي ابداً، حيث يغني قديسوك المهووسون قصائدَهم للريح

في الليلِ وقد فار التَّنُّورُ علينا
أيقظتُ رجالي . سافرنا في الأمطارِ إلى أوطانٍ لا تعرفنا
فرأيتُ البحرَ امرأةً حبلى بي والملكَ المجنون
بالسيفِ يموت .

أيتها الراعيةُ المسحورةُ في خيمةِ أجدادي، يا ناهضةً كالشمسِ المرة في مملكةِ البدوِ المخمورين من العشقِ، أنا العاشقُ أجرعُ من قربتك الملأى خمري . في صوتي غضبُ الريح، أنا النازعُ من نفسي، جسدي الصحراءُ الليلُ الموتُ الغابةُ والمنفى . هل أهربُ من نفسي أم أتركُ مرتعبًا لذئابٍ عاويةٍ أبدًا جسدي؟

في واديكِ المهجورِ أرى أجيالاً تصعدُ نحو قرى العميانِ
وأنا أبحثُ عن خارطةٍ لتضاريسِ حياتي
فيفورُ على قدمينا البحر الآتي
ونعودُ مع الموجةِ، مطرودينَ إلى ساحلِكِ الرمليِّ
لنبدأ رحلتَنا ثانيةً قبل وصولِ الطوفان .

أصعدُ مجروحًا بحياتي بين طريقينِ
واقصدُ ينبوعًا يتدفقُ بين صخور
اتجول في أحلامي فألاقي رجلاً مجنونًا يُشبهني
يتقدمُ صوبي في قافلةٍ تزحفُ غاضبةً
تطلبُ رأسي
تتحركُ قربي غاباتٌ موحشةٌ
فأضيءُ كبرقٍ فوق رؤوسِ الأشجار
وأؤاخي في ليلِكِ نفسي .
آه، أين الإنسانُ المطرودُ من الجنةِ؟
هذا الجالسُ في مقهى العالمِ يصطادُ الألفاظ؟

هذا القادمُ من حربٍ خاسرةٍ أبدًا؟
هذا الواقفُ عند بيوتِ المنفيين؟
آهِ أطلقْ صرختَنا حتى إنْ لم يسمعها أحدٌ في الريح
حتى إنْ ظلّتْ خرساءَ على فمكَ الأخرس
وتعالَ ادخل مملكتي من نافذتي المفتوحةِ من أجلك منذ عصور
لنؤلفَ جيشَ العودةِ، حيث نقاتلُ في صفّ المنسيين
ونبني عاصمةً أخرى للعالم.

(٢٠٠٢)

تستوحي هذه القصيدة الجديدة قصيدة «ها أنذا أصرخ في شوارع الجزيرة العربية» المنشورة في العام ١٩٦٩.

In God we trust

امريكا اعرف انك تتكلين على الله.
نحن، أيضًا، نتكل على الله.
نوايانا وحدها مختلفة:
انت تتكلين على الله، حارسًا لـBank of America
فيما نحن نتكل على الله، وهو يسكن القلوب.

الحصان الإنكليزي

صادفت ذاتَ مرةٍ حصانًا بلون الصباح
سرقه الأعراب من شرطة البادية في الحويجة
وجاؤوا به إلينا ليلاً تحت جنح الظلام
فاشتراه والدي بسعر التراب

ثم باعه غاليًا لمسّاح إنكليزي في الـIPC
قال إنه سوف يرسله إلى لندن البعيدة
ليكون أعجوبة سباقها الدوري
لذلك أسميته شكسبير الذي لا يشق له غبار .

ظل شكسبير أسبوعًا أو أكثر يسرح ويمرح في الحديقة
مقبلاً نحوي كلما رآني فأسقيه الماء بكفي
وأطعمه المنّ والسّلوى
ثم علّمته الإنكليزية ليشق طريقه في بلد الغربة
بكتاب مدرسي عجيب يجعلك تتقنها في ٧ أيام من دون معلم
فراح يصهل ويركض ورائي فرحًا بين الأشجار
مُسْتَذْعًا أسماعي بمقاطع حفظها عن ظهر قلب
من مسرحية ماكبث الذي أمضى حياته في تدبير المكائد
حتى وصل صاحبه الجديد ،
بجزمته الطويلة ، حاملاً السوط في يده
تفحّص أسنانه قليلاً قبل أن يقتاده إلى الإسطبل
واضعًا في كفّ والدي كومة من الدنانير .

حينما مضى شكسبير وراءه حزينًا
التفت إليّ برأسه وصهل قائلاً :
Thank you, my little friend
I'll never forget you!

في غرفة الانتظار

في غرفةٍ مخنوقةٍ بالدخان
أجلسُ فوق مقعدٍ من نار
بين ضيوفٍ صامتين
منتظراً موظفًا يخرجُ من مكتبهِ الكئيب
في يدهِ إضبارةٌ تعجُّ بالأسرار
عن كلِّ ما اقترفتُ من آثام
في عمريَ القصير
مناديًا عليَّ مثل حاجبٍ في مجلسِ الشيطان
بصوتهِ الرتيب .

ما أكثرَ الذين قبلي دخلوا الغرفة
وخرجوا
في يدِهم كتابُهم باكين!

يا أيها الموظفُ اللعين
قلْ لي إلى متى أظلُّ جالسًا
في هذه الغرفة
أُنفقُ أيامي سدًى وأهدرُ السنين؟
هاتِ اعطني كتابي
واكتبْ كما تشاء
كلَّ الذي تريد .
ماذا يهمُّ ساكنَ الجحيم
أن يبدأَ اللعبةَ من جديد؟

فها هي الحياة

تنبضُ في روحي وفي دمي
اغسلُ في جدولِها وجهي
أسمعُها صاخبةً تمرقُ في الشارع
تهتفُ لي باسمي .

يا أيها الموظفُ الجالسُ فوقَ صدرِنا
يا أيها الجاسوس
إطوِ سجلاتك، دورُك انتهى من عهدِ دقيانوس
متْ كمداً، متْ حسرةً
واهجرْ أخيرًا هذه المهنة
فقد قضيتُ كلَّ ما حكمتَني به هنا
وصارَ من حقي، إذًا، ان ادخلَ الجنة .

العائد من أعلى الجبال

حينما كنتُ أسيرًا جالسًا في ظلِّ ظلي
مرَّ بي الروحُ واعطاني سجلي
كاتبًا إسميَ في دفترهِ المحفوظِ في لوحِ السماء
قائلاً لي :
إمضِ في دربِك واصعدْ هذه القمةَ مثلي
فمشيتُ الدربَ وحدي، تاركًا خلفي الوهاد
طارقًا بابَ حياتي
رائيًا بين غيومٍ أمطرت ذات نهار
جسدًا يطفو قتيلاً تقفُ الطيرُ على رأسِه في بركةِ ماء
فعبرتُ النهرَ مرعوبًا على قاربِ نار
حاملاً جثةَ اجدادي على ظهري الهزيل

واصلاً بيتي البعيد
في خليج المستحيل .

أيها الواقف ما بين محطات الطريق
أشعل النار على مفترق العالم
في الليل الطويل
ليراك السائرون الضائعون
وانتظر مبتهجًا في آخر الليل ضيوفًا يقبلون
بهدايا كثر خلفها الماضون في ماضي السنين
لك أنت الناهض العائد
من أعلى الجبال .

خرائط منسيّة

في بغداد قبل عشرين عامًا
عرفتُ رجلاً غريبَ الأطوار
كان يسيرُ من شارعٍ إلى آخر
وفي يده خرائط قديمة
منقبًا عن كنوزٍ دفينة
في خرائبَ
تعجُّ بالعقاربِ والأفاعي .

لم يكن الرجلُ مجنونًا
إذ كان ينحني لي كلّما التقيته في الطريق
عارضًا عليّ أن يُشركني معه
في ثروته التيْ لم يكن يملك فلسًا منها :

«لا تفقد الأمل يا صاحبي أبداً!
كل ما تحتاجه هو أن
تحفر في الأرض عميقاً.»
كان يقول لي مشجعاً.
لكن الرجلَ مات في النهاية
فغادرتُ المدينة يائساً
ناسياً حتى أن احملَ خرائطه معي
إلى المنفى.

المفاجأة

حينما استيقظ فرانس كافكا ذات صباح وجد أنه لا يزال فرانس كافكا: هاتان اليدان هما يداه، هاتان الرجلان أيضاً، الرأس والوجه والفم كذلك. والأكثر من ذلك أنه كان لا يزال قادراً على الحب. لذلك تناول فطوره مسرعاً، كما يفعل كل يوم، ثم ارتدى بدلته الرمادية وخرج إلى الشارع، قاصداً الذهاب إلى العمل.

وهكذا رأى ما أثار عجبه: كان الناس قد تحوّلوا إلى صراصر كبيرة، تزحف من مكان إلى آخر، ناسية حتى تاريخها، مبتهجة بحياتها الجديدة. أراد أن يهرب، لكن ألف غريغوري سامسا أحاطوا به من كل جانب وراحوا يُوَصوصون فيما بينهم:

– من أين جاء هذا الصرصار الغريب إلى مدينتنا وكيف؟

في نَخْبِ الثورات المغدورة

منطلقًا بقطار مزدحم بضيوف غرباء
قارين إلى الدنيا من فندقهم في الفردوس المفقود
ألقيت رحالي في حاضرة بين الجنة والنار
يتبعني مثل ظلال تلهث خلفي شعراء العالم كله
فإذا بالوف القتلى المنسيين
في الغابات الإفريقية
في الثلج الغامر سيبيريا
أو في . . .
أو في . . .
يحتشدون على أرصفة الطرقات
ليحيوني أنا شاعرهم في ليل الثورات المغدورة
لكني حين وقفت على الدكة
لأغني ممتدحًا شعبي كمقاتل حرب عصابات بعد النصر
منحدر من شِعْبٍ محترق في جبل محجوب بالأشجار
تحت الرايات الحمراء المرفوعة
بقصائد عن أعناق القديسين المقطوعة
خرج الشيطان وراح يناديني :
أسكت ، أسكت !
أفلا تذكر أيامك إذ كنت صباحًا تأكل قلبك ؟
ومساء تجرع من كأس التاريخ الأعمى في الحانات ؟
هل تنكر ذلك يا الشاعر ؟
فليعش الشاعر !
فليسقط !

صار الموت قريبًا منّا

بسكاكين رأيناها تبرق في أيديهم
وفؤوس أخفوها تحت معاطفهم
فتيقنّا من أن القصّاب سيذبحنا
قبل وصول النجدة
لكن صديقي الشاعر رامبو العائد من كوميونة باريس
وهو العارف بالعادات الشعبية
أخرج من حافلة واقفة في الشارع
برميل نبيذ وزعه مجانًا، فشربناه جميعًا في نَخْب الثورات المنسية
ورقصنا حتى فجر الإنسان القادم
من آخر ليل في الأبدية.
منسلين أخيرًا في العتمة
شاهدت الشيطان الغادر
يقتل مسرورًا شاربه
في ضوء المصباح الواهن
ويغني قصته ثانية
بين الناس.

فيلم تجري أحداثه في الأبدية

ليس هذا هو كل شيء، ولا هو ما أعنيه بالضبط
لأن اخضرار الشجرة ينبئ عن الربيع الزائل فقط
لأن الولادة تعسر على الأم المتروكة في الغابة
تحيط بها الذئاب المعولة
ليس أسوأ من أن نجلس هنا وننتظر وصول الملائكة
مسرعة في عربة تسوط خيولها الآمال
لكي لا نخطئ ثانية رغم دروس حياتنا الماضية

ليس أسوأ من أن نختار ضحايانا بالقرعة
من كتبنا القديمة المنسيّة على الرفوف
تاركين ماجلان يصل إلى جزيرته في الفليبين
ليعلمنا ما كنا قد عرفناه دائمًا
وكولومبوس يعبئ أقفاصه بالببغاوات
عائدًا إلى ملكته الحسناء بالذهب والفضة
فيما الهنود الحمر يتشبثون بأذيالنا
معولين في التاريخ أمامنا
فيما كان علينا أن نرأف بأنفسنا على الأقل:
أن نرغم أبا لهب مثلاً في قديم الزمان
على أن يقلب الأدوار
ليحمل الحطب بنفسه إلى امرأته، جالسة تنتظره في ثياب الحداد
على دكة بيتها المهجور في الجاهلية
أن نترك هتلر يتعلم الرسم بالزيت على هواه
لينسى حربه العالمية الثانية
أن نمسك بيد ستالين الغليظة ونقوده إلى دير ما
ليلقي مواعظه على العجائز أيام الآحاد
كأي كاهن ورع في أبرشية
عن ضحاياه الذين حملناهم على أكتافنا دائمًا
عائدين بهم من المشنقة:
– آمين! آمين!

وأخيرًا:
أما كان عليّ، أما كان عليّ
أنا عرّاف السلالات المنقرضة
أن ألغي بجرة قلم واحدة
مشاهد هذا الفيلم الفاشل

فيلم حياتي الذي عرضته ببراءة
على اللصوص في مغاراتهم المعتمة
لأمثل دوري القصيرَ ثانية
في قصة أكتبها للنسيان
تجري أحداثها
هذه المرة
في الأبدية؟

بعيداً حتى أبعد الكواكب

متروكين في وحدتنا ننطلق إلى أبعد الكواكب، يقودنا الحنين إلى أسلافنا التائهين. سفننا الفضائية في مجراها. بعد قليل نعبر أقواس الكرة الأرضية. الشفق الخفي يعقب حمرة المغيب، تاركًا ظلاله أمامنا فيما نلج مداره القديم. والليالي تبذر عتمتها فينا، نابضة مثل ساعة كبرى تحت خط الاستواء، حيث العصفور يرفرف في العاصفة والموسيقى تعزف للراقصين الثملين خلف الباب المغلق في الصالة: ليس لنا أن نقول الكثير بعد أن تعلمنا الميتافيزيقا في متاهة الأرواح الهائمة. نجوم شفافة، تتوهّج، معلقة فوق أجسادنا الأثيرية. إسمع يا بوشكين، لم تعد توجد هنا ليالٍ بيضاء بعد أن خسرنا كلَّ ما كان لنا ذات مرة في مسيرنا إلى هنا. ماذا تقول؟ لا أسمعك. ماذا تقول؟ إرفع صوتك حتى إن لم يسمعك أحد؟ كان عليك أن تنظر إلى الأمام دائمًا لترى مرور الزمان أمامك. أنظر: في النافذة رجل مشطور إلى نصفين يتنصت إلى الانفجار الأول، جالسًا على كرسيه كامير يستذكر أشباحه في الهواء الطلق، وقد ألقى بشبكته في النهر، مصطاداً أسماكه في الأبدية. أنصت! هو ذا صخب الأمواج. الجرس يرن والحياة تبدأ ثانية مثل كل المرات الأخرى.

الضوء يقلّ والمتاهة تنفتح

منتصف الليل سوى أن الزمان الماضي لا يزال حاضراً، يَدْهَمنا بنيرانه الكبرى، تشتعل في الأشجار والبروق تضيء طريق المجرة أمامنا. إلتماع المحيط العلوي تحتنا والسماء المفروشة بالنجوم. تضاد شفاف تلتقطه العين دونما قصد فيما الغيوم ترعد فوق شوارعنا المتروكة في الصحراء. بقعة سابحة تقودنا إلى خلفية معتمة. نترك المدن تشتعل بالضوء وراءنا، ماذا نفعل بها؟ ماذا نفعل بها حقّاً؟ اللهم الا يكون ثمة من يتقفى أثرنا، فقد مضينا دائماً، متأبطين أذرع فتيات النياندرتالات بفساتين السهرة إلى حفلات الملائكة حتى إن لم نسمع صدى خطواتنا الثقيلة في أروقة السعادة. الضوء يقل والمتاهة تنفتح، لكننا نصل دائماً رغم ذلك.

الكون كلُّه يرعد بانتظار وصولنا

شمس مشوهة تشق المحيط الأجوف. سراب النقطة العليا أولاً ثم شروق الغزالة البرية في خط الأفق. الضوء يغمر الحافة. اللون الأحمر في الأفق النهاري والشفق يتململ ضجراً. في الوسط ينهمر المطر غزيراً على السطح العلوي للكرة الأرضية، فيضان السيول جرف جيوش الغزاة المنتشرين في السهول. حدود شفافة بيضاء أعادتنا إلى البداية. حدود المغيب الممسوحة تتعرج كدخان في الريح، لذلك كله فضلنا عطارد على القمر حيث الضوء يتكسر قطعة قطعة على رخام اسطبلات الخيول. ثق أننا بحثنا دائماً عن الأمل بخليقة أخرى تحت أكوام كريستال الزمان المتفتت، فيما الكون كلُّه يرعد بانتظار وصولنا، صحبة آينشطاين أو ستيفن هاوكنغ على الأقل، فالوعد الذي قطعناه على أنفسنا سيكون نافذاً بعد الآن إلى الأبد.

بعض هذه النصوص نشر في مجموعة المؤلف الشعرية الاخيرة الصادرة حديثًا عن «منشورات الجمل» – المانيا .

شاعر وناثر، ولد في العام ١٩٤٠ في مدينة كركوك في العراق . درس الأدب الإنكليزي في جامعة بغداد والصّحافة والعلوم السياسية في جامعة لايبزج وحاز درجة الدكتوراة عن اطروحة حول الثقافة العربية . عمل في الصّحافة العراقية والعربية واصدر مجلة «الشعر ٦٩» . نشر ما يقرب من عشرين مجموعة شعرية ورواية وكتابًا نقديًا : مخلوقات فاضل العزاوي الجميلة، رواية ١٩٦٩ . القلعة الخامسة، رواية ١٩٧٢ . سلامًا ايتها الموجة، سلامًا أيها البحر، شعر ١٩٧٤ . الشجرة الشرقية، شعر ١٩٧٦ . الاسفار، شعر ١٩٧٦ . رجل يرمي احجارًا في بئر، شعر ١٩٩٠ . آخر الملائكة، رواية ١٩٩٢ . صاعدًا حتى الينبوع، اعمال شعرية ١٩٩٣ . في نهاية كل الرحلات، شعر ١٩٩٤ . بعيدًا داخل الغابة، نقد ١٩٩٤ . كوميديا الاشباح، رواية ١٩٩٥ . الروح الحيّة، جيل الستينيات في العراق ١٩٩٧ . فراشة في طريقها إلى النار، شعر ١٩٩٨ . الاسلاف، رواية ٢٠٠١ .

فضلاً عن الكتب التي ترجمها من الإنكليزية والالمانية : صاحب الفخامة الديناصور، رواية ١٩٩٥ . سماء وارض، مختارات شعرية ١٩٩٦ . دماغ لينين، رواية ١٩٩٨ .

كما ترجم العديد من اعماله باللغات الإنكليزية، الالمانية، والفرنسية .

غادر العراق في ١٩٧٧ ويعيش – منذ العام ١٩٨٣ – في برلين ككاتب متفرغ ينشر اعماله باللغتين العربية والالمانية .

عبد القادر الجنابي

شرائح نهريَّة

(١)
لم أرَ حوريّةً

البحرُ على الشاشة
له رائحة الشوارع الأولى.
رشيق. عديم الصوت.
مسموع، كأفعى تزحف
إلى البيت.

في شُسُوعه
تتلالا دماملُ الشمس.

(٢)
الغابة مفتوحة

طيرٌ جارح
يحملُ الفِراءَ والريش
إلى شجرةٍ بعيدة.
عينُه تلمعُ.
الأغصانُ تتنفس
تحت قوسها.

طيرٌ جارح
يقضمُ في أمعائه
فراغَ المنظر.

لا أحدَ يراه، سوى
الصمت الممتد كالمجذاف
في نهرٍ من الأحياء.

(٣)
ستروي الأوراق
نزولَكَ إلى الأرض.
ستفتح الشمسُ
فجرَك المنتفش بالحركة،
وتجري الرياحُ بأشرعتك
إلى اللُّجّةِ الأولى.
فيطوف بك البشر
حول الرخام الأبيض
وتجثو النجوم ببابك.
وعندما تشربك المياه
في شُقُوف الليل الزرقاء
سيخلد الموتى إلى النوم
في قبرك المفتوح.

(٤)
ليس هناك وقت للانتحار؛
الشرفة عالية،
الهواء ملوّث

ومجرى الموت
يكرهُ
الطَّشيش.

إنزل حافيَ القدمين
وسوسنُه يدحرجك
إلى أقصى التُّخوم.

(٥)
ألمْ يأنِ لك
أن تحومَ حول البيت
في ساعة متأخرة؟
أن تلقيَ بظلِّك
إلى قطط الليل؟
أن تنام بمنأى عنهم
في حلقوم إله،
لا زاد لك سوى
تفاحة وهواء.

(٦)
لا تسأل: «أين خبزي»
نجمُك الطالع
أنْ تتأمل وجه الصخرة
أن تعكس السماء العاطلة
أن تتخلص من شحناتهم العاطفية
أن تتعلم الخروج من دون فانوس إلى الحقل
أن تتألق كالمرجان في الحدائق المجاورة

وتنهي مهامُك اليومية
في اعماق الظلمة المتربِّصة
خلف الباب .

(٧)
تعلم كيف تتكلم من دون كلمات
كيف تصف ما حدث لك ببياض

إربط اللغة بسريرك .
أغلق عليها الابواب .
لا تجعلها تهرب .
إنها ماضيك ،
كثبانك الرمليّة .

في هذا اللانهائي
يكمن صمتك الجديد
ومن جسم هذا الموت
ينزلق الكلام
ذهابًا وإيابًا .

(٨)
العالم يشرق فوقك

إنفجرْ في العشب
بين حصى الممرّات
وعلى رصيف الدروب .

وكلُّ ما يأتيك من الشمال
اتركه جانب السرير.

(٩)
الكلمات وأنا
كُلٌّ يتشبّثُ بسراب.

هي بمكان في الشمس
وأنا برقاد في سحب النسيان

كلانا يتدفق،
يصب في المنبع.

أنا إلى منضدة الشهود،
وهي إلى منزل شاهق
فوق البحر.

الكلمات وأنا
على موعد
ملء الزمن
في عين جاحظة
بين السطور.

(١٠)
ذرُّ الصحراء تدفن
كلماتها:
أشعارنا لم تعد تغني،

والنثر لم يأتِ بعد
ليروي في أرض الحكاية
جذور الغناء.

شاعر عراقي مقيم في پاريس/ فرنسا

بشير شلش

نهارٌ سورياليّ

إسبريسو

سلامٌ على القهوةِ التي أُحبُّ
القهوة السوداء
في الفناجين الصغيرةِ
تذكّرني بأشياء تغمرني بالفرح:
بالقصائدِ الأولى
بالمرأةِ الأولى التي أحببتُ
بحافلةٍ حمراءَ تصعدُ جبلاً بينَ القرى
وتكسِرُ في مُخيّلتي
جُنون قوس قُزَحْ.

سلامٌ على القهوةِ التي أُحبُّ،
قهوةِ الذكرى
أو قهوة الغُفران
رفيقتنا الدائمة في البارات المُطفأةِ
وفي الباراتِ المُضاءَة
بحماستنا وجنونِ جدالاتِنا.

سلامٌ على قهوةِ الإنتشاءِ
وهي تُصحّي خُيولَ الجسَدْ...

سلامٌ على قهوةِ صباحاتِ العزلةِ

القهوةُ التي كلّما شربتها وحدي بكيتُ
وكلما بكيتُ صارَ جسمي مرفأً
وصارت روحي فرسًا من زَبَدْ.

مَسرحٌ عبثيٌّ

ضوءٌ على كُلِّ شيء.
لا ظِلالَ لنرى.
ملابِسُ الحربِ مشلوحةٌ
والنّجمتانِ على الكتِفين
مِثلَ ملاكَين
يحرُسانِ الأميرَ الكسيحَ مِن هَفوةٍ مُمكِنةْ.

ضوءٌ على كُلِّ شيءٍ
لا ظِلالَ لنرى.
تَجلِسُ البِنتُ
التي ضاجعها كاتبُ النّصِ ليلةَ السّبتِ
لتقرأَ دورَها وأوراقَ رسائلِها
ثُمّ تقذِفها إلى سلّةِ المُهملاتْ.

والكائناتُ منَ الضوءِ مفضوحةٌ
والسّتارُ الضّئيلُ قصيرٌ
لا يحجبُ الوجهَ والرّائحة

.. كانَ ثمّةَ بشرٌ لا يرونَ
ويُصفّقونَ بلا معنى

بينما رِجالُ المباحِثِ بينَ الحُضورِ
يفتِّشونَ عن زوجَةِ الأميرِ المغدورِ
التي هربت مع فقيرٍ وسيمٍ
إلى جهةِ الرّغبةِ الفائحة .

خيالُ ظِلّ

هذي الظهيرةُ تشبهُ أمس ! ، باردةٌ، وندفُ الثلج
يسقطُ كالعِهْنِ على شجرِ السّرو . لا أحدَ هُنا
ينتظرُ أحداً على وشكِ الوصولِ أو المُغادرة .
المُقرئونَ مَضَوا والمدينةُ تتأمّلُ أسماءها
في سماءِ البياضِ وتحرسُ الرسائلَ المختومة بالشّمع
من سطوةِ الوقتِ وقسوةِ الذاكرة .

من حانةٍ إلى أخرى، إلى ثالثةٍ، المدينةُ، ذلكَ الرّجُلُ
بإصرارٍ إلهٍ، بمعطفهِ الاسودِ وطاقيّتِه، من شارعٍ
إلى آخر، ظلَّ يمضي وندفُ الثلج
يعلقُ بكتفيهِ والقُبّعةُ،
يدهُ في جيبتهِ وغيمةٌ صغيرةٌ من البُخار
تخرجُ من فمهِ متقطّعةً
كأنّهُ يهدّدُ من الداخلِ
حيث مراجلُ تولّها كائناتٌ سرّيةٌ
بالأسئلةِ والخيباتِ . ومن جيبتهِ
حين ينحني لينفضَ الثلجَ عن كتفيهِ ورأسهِ
تطلّ رواية «المحاكمة»
وجريدةٌ عربيةٌ مبقّعةٌ .

وحيداً سوف يُمضي نهاراتهُ الباقية
كخيالِ ظلٍّ ينفضُ الثلجَ عن كتفيه
وترحلُ، حينما ينهضُ، كلُّ الحاناتِ مَعَهُ.

إحتفاليّة

أريدُ مُشاكسةَ الآلهةِ
لاستبطنَ حِكمتي.

أريدُ مُصاحبةَ الهذيانِ
لأرى بيديَّ وقلبي
أبعدَ من ظِلالِ المصابيح
وأبعدَ من دمي.

عندما كانَ فمي صغيراً
كثقبٍ في سُترةٍ داخليّة
كانت حُروفي قليلةً
كأحجارِ الشطرنج،
وكانت كلماتي مُبعثرةً.

قبضةُ عُشبٍ،
إغماضةُ برقٍ
أيقظتْ شجرَ الفُصولِ الذابلِ في الحَلْقِ
وأعدّتْ أزمنةَ العتمةِ والصّمتْ
أعدَّتها للحرقْ.

الخريفُ يجوبُ شوارعَ المدينةِ القديمةِ
مِلءَ الأرصفة
ويفقسُ شجراً ذابلاً وسماوات رماديَّةً
في جيوبِ المعاطِفِ
وأكمامِ القمصان .

ألفُ قُبّرةٍ مذبوحة
في عيدِ ميلادِ الملكْ .
ألفُ غيمةِ عطرٍ
مهروقة على قدميّ الملكْ .

مُغنّونَ يقايضونَ سماءهُم بالفِضّةِ
مدّاحونَ ،
خمرٌ من دمِ البسطاءِ ، عيّارونَ ،
راقِصةٌ من حريرِ الأساطير
حاجِبانِ شُجاعانِ واحتفاليةٌ من تنكْ .

الأمير

على ليلتينِ كاملتينِ يتكئُ
سُموّ الأميرِ الصغيرِ ،
لم يذهبْ إلى الحرب
لم يُجادل في شؤونِ النّاس
لم يعرف من الوسواس
الخنّاس سوى اسمه ،
ولم يعْلقْ دِبقُ امرأةٍ في يديه .

من ريش البجعاتِ الملوَّن
وسادةُ سمو الأمير،
من وَبَرِ الخِرافِ الهزيلة
مخدّةُ أمي وأختي.

من حجرِ الجبالِ البعيدة
بيتُ سموّ الأمير
من خشب الأرزِ أسرّةُ العائلةْ
من عَرَقِ القلبِ والكلماتِ المُرسلة
بيتي أنا
بأسرتِه المائلةْ.

منَ الذّهبِ الخالصِ سُبحةُ الأميرِ
وسجاجيدهُ مطرّزةٌ بالذّهبْ..
من عَظمِ الكائناتِ البائدةِ سُبحتي
وحصيرتي من تعبْ.
كيف نُصلّي، إذًا لنفس الرّبّ؟

لوْ كانَ عِندي حِصانٌ

لوْ كانَ عندي حِصان
«لأطلقْتُ ساقيهِ للرّيح»
وتَركتهُ يصهلُ حتى
مساءِ يومِ القيامةْ.

لوْ أنني مَلِكٌ، هكذا،

لاتنحرتُ منَ الرَّتابَةْ!

لَوْ صارَ قلبي فَراشةً
لالصقتُها على شَفَتَيْكِ.

سُروجٌ صَدِئةٌ تسقُطُ من راسي إلى جَوفي
وماءٌ ينزُّ،
من تماثيلَ غارِقةٍ في العُتمَةْ
الغُبارُ يمتصُّ قلبي
وتصيرُ يدي صدىً
يُوَسِّعُ بالكلماتِ شُرفةَ غيمَتي الواطِئةْ.

أنا القَلبُ السُّدى
كُلّما شَدَّني وترٌ بكيتُ
وكلّما اصطادَني قمرٌ ذَهَبْتُ
في مائهِ ولداً
يلمُّ الكَواكِبَ في سلّةِ قشٍ
ويُسقِطُ بعضَ نجومٍ إلى الأرض
ليعرِفَ الدّربَ
إن
عادَ
غداً.

وأنا القَلْبُ السُّدى..
ولَوْ كانَ عِندي حصانٌ
لاطلَقتُ ساقيهِ للرِّيح..

نهارٌ سورياليّ

الضوءُ غطى جسدي كلّهُ
والعصافيرُ بَنَتْ أعشاشَها
تحت إبطيْ
وفي ياقةِ قميصي.

لا شيءَ تحتَ المخدّة. حَلِمتُ بالأبيض والأسود،
أن صديقي يَشربُ عُلَبَ الألوانِ المائية
وَيركُضُ نحوي صارِخًا:
أرسمني..
مُعتمًا كانَ المكانُ
وكانَ ثمّة رائحةٌ لغيابٍ لم يكتملْ.

أجلسُ في المقهى، أطلبُ
قهوةً،
أشرَبُ و... أكتُبُ؛
فجأةً
أغرقُ
في السَّوادِ العميقِ
وأتشبّثُ بالملعقة!

أُحَدِّقُ في عينيها طويلاً؛
العَينانِ بُحيرتانِ ماسيَّتانِ
إذا عبرتُهُما سابحًا
سأصِلُ سريرها.

أفتحُ نافذةً وأطلُّ
أينَ أنا؟
في الخارج
أم في الدّاخلِ؟
كلّما مررتُ شَمَمْتُ
رائحة
الحبق
المُشتَعلْ.

التروبادور

ليستِ الأغاني وحدها سقطت منّي
في حُقول الحنطةِ وسماءِ القُرى
أيضًا الأرغفة،
سقطت في الأزرقَ المُشاع وابتلتْ
بينما كنّا نُعدُّ آلاتنا للغناء
ونرحلُ في غيابٍ لا نعرِفُهُ.

مررنا على بساطة الناس
وعلى لسعةِ التبغ في قُرى نائية
وغنّينا طويلاً بينَ حُقول الحنطة
وكرومِ النبيذ،
ليستِ الأغاني وحدُها سَقَطتْ منّا
أضعنا مفاتيحَ بيوتٍ خياليّة أيضًا
والخرائطَ
والخيول المُترفةْ.

قوموا يا أهلَ المتوسطِ قوموا
واستمعوا للغناءْ
إنني أعرفُ هذي الأرضَ
وأعرفُ الأنبياء
الذينَ ولِدوا هُنا
ليصبغوا الساحلَ بالخطواتِ والرِسالاتِ
والكلماتِ المرتَجفةْ

قوموا يا أهلَ المُتوسطِ قوموا
واستمِعوا للغناء . . .

حصّادُ العاصِفة

مصحوبًا برعودي الصغيرة
وبأنفاس ليالِيَّ الرطبةْ
بخيوطِ الضوءِ التي تنسجُ عمرنا في الممرّات
بالمرايا المعشوشَبَة
عليَّ تلقي الحياة، بكامل خساراتها،
والوقوف على قدمٍ واحدةْ .

مصحوبًا بالهواء . .
الهواءُ الذي ينحتُ فراغيَّةً حولَ جسدي
ليُمكنني من الوثبِ
خُطوةً أخرى فقط
بالرّعوياتِ التي في مسامي؛
الحُمّى المُقدسَة المُسمّاة كِتابة . . .

عليَّ الذهابُ بلا جرسٍ لأقاصي الكآبة
وانتظار رسولٍ
بترَ الرُّواةُ ساعِدَهُ.

الأكورديون في الشقةِ الخامِسة

تسيلُ الشبابيكُ، والصَّبيُّ يعزفُ،
وتسقطُ في الشوارعِ المطفأة.

الأكورديون والأناملُ والنَّبيذُ
والجِهاتُ التي تفيضُ من الموسيقى
وتصعدُ نحوَ أوقاتِها المُرجأة.

تسيلُ الشّوارعُ سوداءَ كالحبرِ؛
كالفَحْم تشتعِلُ المدائنُ كُلُّها وتذْوي
في
الصَّدى،
والصَّبيُّ يعزفُ،
للجهاتِ التي اتسعَتْ في المدى..
ويقولُ للمُدُنِ التي احترَقت:
نلتقي
غداً..

غابةُ الإسم

في فيءِ الألِفْ
يتزاوجُ الندى والرائِحة
وتلمعُ الجبالُ البعيدةُ كتآليل مُضيئة
في وجهِ الأرضْ.

في بحيرةِ الميم
تحيضُ التماثيلُ الحجريّةُ
وتعودُ راكضةً إلى أماكنها
في الساحاتِ
وعلى شرفاتِ البيوتْ.

تحتَ هلالِ اللامِ النائم
تطاردُ الملائكةُ شُهُبًا شارفت على السقوطِ
وترتقُها بإبرٍ ضوئيةٍ
إلى خيمةِ السماءْ.

في غابةِ الإسمِ
تبيضُ سمكاتُ الزينةِ
ويركُضُ الضوءُ هائمًا في الظِلالِ
مطارِدًا نفسهُ.

حَانةُ لَيْلَى

بَرابرةٌ عاتبونَ يخلعونَ معاطِفهُم في زوايا البارِ
قمرٌ من فضةٍ مسننةٍ يضيءُ مهاقَ الخشبْ
وخيولٌ تفتشُ عن أصهارِها الغائبين في الصُهيل الكبير
المسمّى، مجازًا، صهيل الذهبْ.

برابرةٌ غاضبون وبعض مجونٍ
يلمع مثل معدنٍ رخوٍ في ضبابِ البارِ.
اضاتُ خاصرتيْ بكاسي نبيذ قديم
ورأيتُ مِلحَ الخدوشِ الصغيرةِ تحتَ العيونِ المخضلة
رجلاً يفكرُ باسمه ويديهِ ويقول لي: هل تعرفُ الصوتَ
أنا الصدى.
تركت التوابل في رحيل قبيلتي الأولى من سلالةِ الهالِ
إلى جبالٍ موحشةٍ يجرحُ صمتها
وأولمتُ إمراتي لصيّادينَ غرباء
وجئت أبحثُ عن مرايا الصقورِ وخبزِ الذكريات
في علوِ نهاراتيَ المقبلةْ.
ثم يبكي قليلاً ويَقولُ لي: يا رفيقي
تامل قليلاً هذا الخَليطَ الهجينَ وسوفَ ترى
كيفَ يُفتِشُ كلُ غريبٍ في لمعةِ الكاس
عن إرثِ أبيهِ
وفاتح بلادهِ..

تنتهي الزجاجةُ السابِعةُ والليلُ يَنتهي
والفتاةُ التي ترقصُ يعرقُ حوضُها
ويسقُطُ عن كَتفيها شال القَصَبْ..

والبرابرةُ يذوبونَ في الظل، قليلاً
يذوبون، ويرتدونَ معاطفَ الجلدِ في زوايا البارِ
وليْلى تَلفُّ الزُجاجاتَ لَهم
بديوانِ قَيس
وتسرجُ لَهم خيولاً بلا نَسَب .

مرايا تبدأُ دائمًا

بينَ وقتٍ وآخر ، أفكِّرُ ، بمهامي الكونيّة
بالاسئلةِ المربكةِ التي لم يسألها أحدٌ بعدُ
بالبرقِ وبالرُّعدْ
اللذين عليَّ استلامهما
في صندوق البريد .
يجدرُ بي القولُ دون مراوغةٍ،
إنّ ذلك يُعدُّ مغامرةً
نذرتُ لها دمي وأظافري وجُفوني .
بنيت لي بيتًا في شَطح الرُّستِ
إيمانًا بأسلافي الغامضينَ
الذينَ قالَ أحدُهم لمّا لم يستطع النّومْ:
« إذا جنَّ بكَ الليلُ فارستْ »
وانصتْ
إلى النهرِ الذي ينحتُ في الصّخرِ
بيوتًا لاصابعهِ الليّنة
ونبضهِ المائيّ
ويستشرفُ النار في آخرِ الماءْ .
ومن هذهِ الصّدفةِ

التي بدونها ساصيرُ كائنًا مُشتتًا
ساكتشفُ الغيبَ
وأعيدُ تأثيثَ الأرضِ
بقلبيَ الرّائي وعيّنيَّ المُجرّحتين
بفصولٍ قلقةٍ وزوايا حادة .

(من مجموعة «حصاد العاصفة»، الفائزة بجائزة الشعر للعام ٢٠٠٢ من مؤسسة «القطان» الفلسطينية)

شاعر فلسطيني من عرابة / الجليل، مقيم حاليًا في ألمانيا

سلمان مصالحة

إذا حَمَلَ الطَّيْرُ غَرْبًا فُؤَادِي

(رحلة فلسطينيّ في الرّبوع الأندلسيّة)

رَكِبْتُ ضُحًى صَهْوَةَ القَلْبِ شَوْقَا
كَمَنْ شَدَّهُ الحُلُمُ، أوْ رَامَ نُطْقَا

وَيَمَّمْتُ وَجْهِيَ صَوْبَ رُبُوعٍ
نَمَتْ فِي الجِنَانِ، فَأوْرَقَ رَوْقَا

وَأعْمَلْتُ فِكْرِيَ بَعْضَ نَهَارٍ
بِمَا أوْرَثَ البَحْرُ فِي الأرْضِ أُفْقَا

وَرُوحًا سَمَتْ فَوْقَ مَوْجٍ كَطَيْرٍ
تَسَلَّقَ حَبْلَ الرِّيَاحِ، فَألْقَى

عَلَى الغَرْبِ نَجْمًا، وَمَالَ فَثَنَّى
عَلَى الشَّرْقِ غَيْثًا، وَأشْعَلَ بَرْقَا

رَكِبْتُ ضُحًى صَهْوَةَ الحُلْمِ حُزْنًا
وَوَدَّعْتُ طِفْلاً بِقَلْبِيَ عَقَّا

تَرَكْتُ وَرَائِي كَلامًا كَثِيرًا
وَرَمْلاً كَثِيفَ الظِّلالِ وَرِقًّا

وَلَمْ أدْرِ أنَّ الدُّرُوبَ رَمَتْنِي
إلَى شَاهِقٍ مِنْ زَمَانٍ مُنَقَّى

وَرَاءَ جِبَالٍ غَفَتْ خَلْفَ بَحْرٍ
بِهَا غَابِرٌ عَابِرٌ لَيْسَ يُرْقَى

عَلا أسْرُجَ الخَيْلِ، يَبْغِي هِلالاً
هَوَى مَغْرِبَ الشَّمْسِ فَارْتَدَّ ألْقَا

بَنَى أجْنُحًا لِلرِّيَاحِ، وَبَيْتًا
بِهِ الرُّوحُ شَادَتْ صُرُوحًا وَأبْقَى

حُرُوفًا مُسَطَّرَةً كَالقَوَافِي
وَنَظْمًا عَلَى هَامِ مَنْ هَامَ عِشْقَا

هُنَا رِحْلَةٌ فِي رُبُوعِ حَكَايَا
لَهَا أوَّلٌ لَيْسَ يَفْنَى، فَيَبْقَى

كَلامًا عَلَى القَلْبِ، إذْ عَزَّ قَوْلٌ
تَصَوَّبَ غَيْثٌ عَلَيْهِ فَرَقَّا

هُنَا خُطْوَةٌ دَرَسَتْ فِي تُرَابٍ
هُنَا آيَةٌ تَرْفَعُ الرَّايَةَ فَوْقَا

تَرَكْتُ وَرَائِي بِلادًا تَلَظَّتْ
بِنَارِ جَهَنَّمَ فَازْدَدْتُ حَرْقَا

حَمَلْتُ مَعِي شَهْقَةً مِنْ بِلادٍ
تَفِي شَاعِرًا زادَهُ المَشْهَدُ شَهْقَا

تَرَكْتُ وَرائِي بِلادًا وَدَمْعًا
جَرَى مِنْ شُجُونِ العُيُونِ، فَشَقَّا

عَلَيَّ الرَّحِيلُ لِبَعْضِ زَمَانٍ
يُذَكِّرُنِي بِالَّذِي سَوْفَ نَلْقَى

فَيَا أَيُّهَا الطَّيْرُ دَعْنِي أُغَنِّي
وَخُذْ بَعْضَ لَحْنِي لِقَلْبِكَ خَفْقَا

كَلامُكَ رَجْعُ حُرُوفٍ تَوارَتْ
عَنِ السَّمْعِ، يَا طَيْرُ بِاللَّهِ رِفْقَا

فَإِنِّي، وَإِنْ زَانَ قَوْلِيَ سِحْرٌ
فَقَدْ كَذَبَ السِّحْرُ، لَوْ كَانَ صِدْقَا

إذا حَمَلَ الطَّيْرُ عَزْمًا فُؤَادِي
فَيَا عَجَبَ القَلْبِ يَزْدَادُ شَوْقَا

نيسان–أيار ٢٠٠٢

شاعر فلسطيني من المغار، مقيم في القدس

طه محمد علي

الخضراء الشريفة

الشيخ هاشم
مؤذّن المسجد الغربي
إمامُ صلاة الجماعة فيه . .
فرَدَ، بعد صلاة الظهر،
مِحْرَمَةَ زوادةِ غدائه :
رغيفٌ جافٌ وحيد
وبرتقالة يتيمة ضَاوية :
– تفضَّل أبو سعيد !
– شكرًا شيخ هاشم، تَغَدَّيت .
– ماذا تغَدَّيت يا أبا سعيد ؟
– تغدّيت ملوخية .
– ملوخية ؟! بَخٍ بَخٍ(*)
الخضراء الشريفة المُشَرِّفة
يا أبا سعيد ؟!
يا ليتنا كنّا معكم يا أخي
لنفوزَ فوزًا عظيمًا !

(الناصرة – ٢١ / ١٠ / ٢٠٠٢)

(*) بَخٍ: إسم فعل بالكسر والتنوين، معناه: فَخُمَ الشيء، وجلَّ الأمر. يُكرَّر للمبالغة بالإعجاب .

شاعر فلسطيني من صفورية مقيم في الناصرة

مَلِكُ أتلانتِسْ

عرشي على ماءٍ. ومملكتي على ماءٍ. ومن ماءٍ رعيَّةُ صولجاني
ومجازفًا بيراعتي. هيّاتٌ معموديّةُ النيرانِ. واجترتُ الجحيمَ إلى عذابِ الجنة
الأولى. نفضتُ يديَّ من وهمي الأخير. نشلتُ تاجَ الماءِ من سُفْني الغريقة. رافعًا
وجهي إلى شمس الدقائقِ والثواني
مَلِكًا. تبايعُهُ الطحالبُ. رغم ضيق الوقتِ. تتبعُهُ العواصفُ والمراكبُ والأغاني
ملكًا على أشواقِ أتلانتسْ لموطيءِ ذرّةٍ أخرى على فلَكِ المكان
ومشيتُ. محتشدًا. بمجد الماءِ. مغتبطًا. قهَرتُ الجوعَ – مليونًا بخمسةِ أرغفةْ
وأبوحُ. أسماكُ الحياة تملّصتْ من عُدّةِ الصيدِ القديمة في البحارِ المجحفةْ
ملكًا على أتلانتس الرَّغباتِ قلتُ إرادتي. من كلِّ لونٍ وردةٌ. ولكلِّ صوتٍ أغنيةْ
ولكلِّ سفحٍ نسمةٌ شربتْ ندى الجمسانِ واغتسلتْ بدمعِ الأوديةْ
ولكلِّ فجرٍ أمنيةْ
ملكٌ إذن. في قصرهِ المائيِّ حاشيةُ البُخارْ
وعلى مرامي توقهِ مدنٌ تعجُّ بأهلها الآتين من صَدَفِ البحارْ
وجيوشُهُ تأتي كما شاءَتْ وتذهبُ حيثُما شاءَتْ وتأتي باللآلىءِ والجواري
والجواهرِ والنُّضارْ
ملكٌ حديثُ العهدِ بالدنيا. ويضطربُ المدارْ
تذوي صلاةُ العشبِ في البلقان. أجراسُ القطيعِ تِرنُّ في سُحُبٍ ملوَّثةٍ. أغاني
الريف في القفقاز تصمتُ. في مدى تشرنوبلَ الأشباحُ هائمةٌ. هُنا تشرنوبل
الأخرى تنامُ ولا تنامْ
وهنا غبارُ الموتِ محتفلٌ بأعشاشِ اليمامْ
ملكٌ إذن. وأقولُ لي:
ملكٌ. عباءَتكَ المقصَّبةُ ابتهالٌ لا يُقبلُ. دعِ الرعيّةَ في سلامْ

واذهبْ إلى حزنِ البنفسجِ . واسترحْ طَلَعًا على تاجِ الخزامْ
يا أيُّها الآتي على مدِّ الرمالِ وأيُّها النائي على جَزْرِ الرياحْ
قَدَرُ الحكايةِ أن يكونَ ختامُها بدءَ الختامْ
لا شهرزادَ . ولا صباحْ
أتلانتسُ اغتسلتْ بدمعكَ واغتسلتَ بمائها بين الحقيقةِ والمنامْ
سَرِنمْ إذن . سَرِنمْ . وطُف بعباءةٍ بيضاءَ أرجاءَ المدينةِ . سرْ على أسوارها شبحًا .
ومن وهج القصور . . إلى الخيامْ
ويكونُ أن تختارَ في أبهائها بنتًا . على شَغَفِ الأساطير القديمةِ بالغرامْ
ملكٌ . وبنتٌ من بناتِ الشعبِ في حَفلٍ فُجائيٍّ . تهبُّ الريحُ . تنطفيءُ الشموعُ .
تضمُّهُ . ويضمُّها . في عتمةٍ سَنَحتْ . يعودُ النورُ . يُبصرها وتُبصرهُ . وتبتديءُ
الحكايَةْ
وتزيِّنُ الطرقاتِ والشُّرفاتِ أتلانتسْ . ويخرجُ شعبها للرقصِ في الساحاتِ . هذا
عيدها الوطنيُّ . عُرس الشعبِ . عُرس جلالةِ الملكِ المفدّى . والنهايةُ . . لا نهايَةْ

يغتابُكَ السفهاءُ . روّادُ المقاهي معجبون بحقبةٍ أخرى من التاريخ . أنت وريثُها
الشرعيُّ . لكنّ السؤالَ هو السؤالْ
وغوايةُ التاريخ واضحةٌ . ووجهك غامضٌ بين الظِّلالْ
وتقولُ حانَ الوقتُ . وقتُكَ . لا حقائبكَ استعدَّتْ للرحيلِ . ولا مناديل الوداعِ . ولا
استقرَّ لك المجالْ
وحدودُ أتلانتسْ تضيقُ . ولا يطولُ بك الطريقُ . مبدِّلاً حالاً بحالْ
أحَزِنت ؟ لا تحزنْ ولا تأذنْ لسوءِ الوضعِ باستدراجِ قلبكَ خارجَ الإيمانِ بالفرص
الجديدةِ . يا أنا . أنا لا أزالكَ مؤمنًا باللهِ والزيتونِ . منتميًا إلى كتبي القديمة
والجديدة . لا أزالك رافضًا لخديعةِ التحكيم . صادفني أشاعِرةٌ على الطرقاتِ . في
الميدانِ . صادفني أشاعرةٌ وقلتُ : أنا القرارْ
ضَمروا . ولاذوا بالفرارْ
من سطوةِ الحقِّ المبينِ . وضوءِ رائعةِ النهارْ
ملكٌ أنا . أتلانتسُ ازدهرتْ بسلطاني . بيوتُ الناسِ عامرةٌ وآمنةٌ . وخصبٌ مدهشٌ

في الارض . كيفَ أقِرُّ بالتحكيم ؟ . لا . لا . لن يكونْ !
ما تدّعي بئر الجنونْ
لا . لن يكونْ
عذرٌ لطوفانِ الدمارْ !

الكونُ بين يديك . هاجسك استباقٌ للمواعيد الدقيقةِ . أيها الملك الحكيمْ
لا شيءَ بين يديك . قل ويصيبُكُم شيءٌ سوى المكتوبِ في اللوح القديمْ
الكونُ بين يديك . والأبوابُ موصدةٌ . ولا مفتاحَ إلاّ إبرة النيرانِ في كَوْمِ الهشيمْ
والبرقُ يضربُ صدركَ العاري . افاعي الماءِ تنهشُ محجريكَ . ولا سنونو
يا أيها الشرف المهينُ . وأيها الفرحُ الحزينُ
ماذا ستفعلُ ؟ والملاكُ جزيرةٌ . والبحرُ شيطانٌ رجيمْ ؟
ماذا ستفعلُ ؟ والحدائقُ أزهرتْ فيها القبورُ . وأقفرتْ منكَ القصورُ . وفرّختْ فيها سجونُ ؟
ولكَ الوقوفُ على سُدى الاطلالِ . والدمعُ الرصينُ !

في الركنِ مدفأةٌ بلا نارٍ . صقيعُ الليل في أتلانتس الاوجاعِ موتٌ مُحدقٌ بالخلقِ . مدفأةٌ ولا نارٌ ولا حَطبٌ . يحطُّ الثلجُ اكداسًا على الأبوابِ والشُّرفات . ما من منفذٍ . والصوتُ . صوتُك نامةُ المشنوقِ في أنشوطةِ النسيانِ . كم أوقعتَ قلبكَ في شراك الحبِّ . كم جاملتَ حَدسكَ في شؤون الشعبِ والثورات . « مملكةٌ من الثوّار » – قلتَ لنفسك البيضاء . آخيتَ النقائض فيك . لم تحسبْ حساب الضعف والشبهات . يا وجهي على المرآة . لم تُرجيءُ عبوديّات حُلمي الصَّعب . في فوضى من النزوات . أخْصِ . إذن . حصاد الوهم . في رُكنٍ بمدفاةٍ . ولا نارٌ هناك . ولا حَطبْ
واقضَمْ اظافرَ غيظيَ المكظوم . واختَزِنِ الغَضَبْ
تبَّتْ يدا حُلمي . . وتبّ !

أكْشِنْ !

وتبتديءُ البرهةُ . صَلْبَةً أُخرى . وعرضٌ هائلٌ . يومُ النشورِ . وموقفُ الحَشْرِ الكبيرْ
مهدٌ . ولحدٌ . والمدى الارضيُّ بينهما سريرْ
يومُ القيامةِ . إنَّهُ يوم القيامةِ . لا يريد الطفلُ أزهارًا على القبرِ الطريِّ . ولا تريدُ الريحُ
مروحةً . ولا تهبُ البدايةُ حلمها . عن طيبِ خاطرها . لما شاءَ المصيرْ
اكشنْ!
وتنفجرُ الشرارةْ
اكشنْ
وتنطفيء الحضارةْ
ويعود روح الله فوق الغَمْرِ في أزَلٍ ضريرْ
هي صورةُ الميلاد بعد الموت . أو هي حالة الموت المباغتِ في تجلّيه المثيرْ!
لم تُتقن الشطرنج . شاهُكَ ماتَ بعد النقلةِ الاولى فليتكَ ما لَعِبْتْ
اغراكَ بالكَسْبِ الحواةُ الخاسرون . وما كَسِبْتْ
وإذن . غُلبتَ . إذن غُلبتَ . إذن . . غُلِبْتْ
وعلى بقايا رقعةِ الشطرنج . مهزومًا صُلِبْتْ
فاحملْ صليبكَ في طريق الشوكِ والآلامِ واصعَدْ للحضيض . وكم هبطتَ إلى
الاعالي
شبحًا براوحُ . من صراعاتِ البقاءِ . إلى متاهاتِ الزوالِ
بين الحقيقةِ والخيال
لم تتقن الشطرنج . لا . لم تتقن الحرب الخفيَّةْ
فاذهبْ لشانك – طيبةً في القلبِ مزمنةً . وسُكرًا بالمنى . وصفاءَ نيَّةْ!

ينشقُّ سطحُ البحرِ عن حوريّةٍ سمراءَ . يُحكى في بلادِ الثلجِ عن حوريةٍ شقراءَ .
عفوًا . جَدَّةُ الزولو تؤكدُ أنها حوريّةٌ سوداءُ . تمثالٌ من الابنوس . تاتي أنت من
أتلانتس الممزوجةِ الالوانِ . ذاكرةً . وذائقةً . ودهشةُ موقفٍ لا غير . أنتَ المبدعُ
الكونيُّ . تبني دولة الالوان باسم الله . موعوداً بان الله رحمنٌ رحيمْ
وتصوغُ تاجكَ من زهور الارضِ . من ذَهَبِ الجموحِ لسُدَّةِ الحُبِّ العظيمْ
لكنها الالوانُ . يا المسكينُ . يا المسكونُ بالقلقِ الموزَّعِ بين جنّاتِ النعيم . وبين نيرانِ

الجحيمْ
ومشيئةُ الألوانِ ترفضُ وحدةَ الأضدادِ في لونِ الصراطِ المستقيمْ!
أو . كي .
كلامُكَ غامضٌ . لا لبْسَ فيه ولا وضوحَ . للاستعارةِ والكنايةِ والتشابيه الرصينة
وضعُها المكفولُ بالقانون والإتيكيت . أوجزْ موتكَ السريَّ بالإعلان عنهُ أمامَ
شَعْبكْ
خاطبْ جماهيرَ البلاد . أطلَّ من شُرُفاتِ قلبكْ
ملكٌ . ويضعُفُ مرةً . ملكٌ وإنسانٌ قويٌّ لا يجيد الضَّعفَ لكنَّ الحياةَ
أقوى بضَعفِ الكائناتْ
مولايَ . واذكُرْ . كائنًا ما زلتَ . إنسانًا . وسهلُكَ لم يزلْ رهنًا لصعبكْ
حاولْ . إذن . هي رقعةُ الشطرنجِ مملكةٌ! . وأنتَ الشاهُ تلعبُ بالجهاتِ . وأنتَ تلعبُكَ
الجهاتْ
أو . كي .
كلامكَ واضحٌ . لا بأسَ . رغم جهالة الجهلاء . رغم سفاهةِ السفهاءِ . ما زالتْ تدورْ
الأرضُ ما زالتْ تدورْ
ويمرُّ بعضُ الوقت . يغلي الماءُ في الصهريجِ قبلَ تحدُّرِ الشلاَّلِ . تلتئمُ الحكومةُ في
حدودِ الظلِّ . أنتَ وهبتَها سُلُطاتِ روحكَ . أنت مُتَّهَمٌ بحسنِ الظنِّ في الأوباش .
سفَّاحون يلتجئون بالحسنى إليك . يخبّئون سلاحَهم في قصركَ المفتوحِ للزوّار . قل
لي يا أنا المسحور . قل لي هل رأيتَ تطوُّرَ الأحداث قبل وقوعِها؟ أبصرْتَ أم
أمليتَ؟ ها هوذا السؤالُ
وعليه يحتدمُ الجدالُ
أخلقْتَ أتلانتس لتُغرقها . وتخلقَ عبرةَ التاريخ؟ أم خلقتكَ أتلانتس لتُغرقَ فيك
أوهام الحياةِ؟ أجل . أجل . هُوذا السؤالُ
وعليكَ يحتدمُ الجدالُ!

سينيما صروفُ الدهر . سيركٌ هذه الدنيا . ويقفزُ قفزةَ الموتِ الرهيبةَ لاعبُ السيرك
الشجاعْ

سيركٌ إذن . ويوزِّعُ الادوارَ ما بين المروّض والسّبّاعْ

لا . لا . نظامُ السيرك أرقى . أنتَ في فوضى النظام . وأنتَ في خَببِ الجنونِ إلى الضّياعْ

سينيما؟ وسيركٌ؟ . لا . جحيمٌ هذه الدنيا . وتجري تحتهُ الانهارُ . غلمانٌ على الازهارِ مضطجعونَ . حُورٌ في ملاءاتٍ من الانوارِ . هلْ عَسَلاً تُحبُّ؟ وهل حليبًا تشتهي؟ . لا بأسَ . مُدّ يديك في سقط المتاعْ

ألعُمرُ . أقصرُ من ذراعْ

والعُمرُ أقصرُ من ذراعْ!

وعليكَ أقدارٌ مقدَّرةٌ . وما طاطاتَ رأسكَ للأعاصيرِ اللئيمة . هكذا ولدتْك أمُّك . عاليًا . قدماكَ يأسُ النملِ والديدانِ . يا ملكَ الملوكْ

والغيمةُ الزرقاءُ أمُّك . أنطفتْ خصبًا سماويًا . ومن ريحٍ مقدّسةٍ أبوكْ

فاغفرْ لمن غدروا ومن كفروا ومن باعوا ومن ضاعوا ومن كذبوا ومن هربوا ومن أشروا ومن بطروا ومن سرقوا ومن مرقوا ومن خرجوا عليكَ بسرِّهم . . وعلى المنابر بايعوكْ

قدرٌ عليك تواطؤ الأزلامِ والاصنامِ حول مقامك النائي . وحسبُك أنهم في كل شيءٍ شاهدوكْ

وبزهرة النار النبيلة . . خاتلوك وقاتلوك . . وباركوك وتوّجوكْ!

قدرٌ عليك ومنكَ يا ملكَ الزمانْ

قدرٌ . ولا تحزنْ . عصاكَ الأفعوانْ

ويقينك الناريّ مبخرةُ الهواجس والشكوكْ!

وتطلُّ من حزن البنفسج . هل تشاهدُ غيرَ ليمون العذابْ؟

لا شكَّ . أخطاتَ الحسابْ!

ذهبٌ هو الذهبُ الاصيلُ . ولا يُصاغ من الترابْ

لا شكَّ . أخطاتَ الحسابْ

ساويتَ بين نعاج خدْسك والذئابْ

وقرأتَ ما بين السطور . ولم تُجاملْ أيَّ حرفٍ في الكتابْ

لا شكّ . أخطاتَ الحسابْ

فادفعْ إذن ثمن الخطأ
واذهبْ كما شاءَ الذّهابْ
اشعلتَ مصباحًا وبين الليل والريح انطفأ
لم تحمِه باللفِّ والدورانِ . لم تُتقنْ مناورةَ الغوايةِ والخرابْ
فادفعْ إذن ثمن الخطأ
واهبِطْ باتلانتسْ إلى الغورِ السحيقِ . . ولا إيابْ
لا شكَّ أخطاتَ الحسابْ
لم يهطل المطرُ المثقفُ في مزارعك الجديدةِ . لم تهبْ رياحُ طَلعك . عرّت الاغصانَ طائرةُ الاباتشي . صحتَ من اسمالِ سُخطكَ . لم تُحرّكْ هيئةُ الامم المريضةُ ساكنًا .
اخطاتَ . اخطات الحسابْ
وركامُ سقفك اوصدَ البابَ الاخيرَ . ركامُ روحك حاصرَ الرمقَ الاخيرْ
ها انتَ يقذفك المصيرُ من المصيرِ إلى المصيرْ
لا شكَّ أخطاتَ الحسابْ
اخطاتَ . اخطاتَ الحسابْ!
ملكٌ . وعبدٌ . في قيود الحلم . في الخيبات . في الغضبِ المدمِّرِ . سيّدٌ . عبدٌ . إذن يا سيّدي . اخطاتَ . اخطاتَ الحسابْ!!
من حولك الاعداءُ . رملٌ قاحلٌ . اعمىً . وَسَمْتُكَ حَدَاةُ الحسرات . جدولةُ الديونِ . خطيئةُ الاحلاف . جَلْدُ الذات . رُعبُ البورصةِ . التقنينُ . والإرهابُ . تلعنُ علمكَ الأميّةُ . الاوباءُ . نقصُ مناعةِ الاحلام . تحتكَ لوحُكَ المحفوفُ بالبركان والطوفانِ . « ريختر » قشّةُ الإنقاذ . والميزانُ منصوبٌ . ابين يديكَ أجهزةُ القياسِ؟ خرائطُ الطرقاتِ؟ هل شخَّصْتَ في أتلانتسَ الاجواءَ؟ حالَ الطقسِ؟ هل تستطلعُ الآراءَ بين الناسِ؟ نهرك غامضٌ . والشعبُ مُشتبهٌ بنهرٍ كوثرٍ يسعى . وأفعى مُرعبَة
مولاي . أرضك طيّبَةْ
وبذورُ زرعك طيّبَةْ
مولاي . لكنَّ الرسالة مُتعبَةْ
وغوايةُ الشرّيرِ جامحةٌ . وانتَ على الصليبِ . مُستمرٌّ دامٍ . و« ديموس » غارقٌ في التجربَةْ!

وأقولُ لي . لتقول لَكْ

ستعودُ من منفاكَ قبل الموتِ في منفىً جديدْ

غَرَقًا مع الوطنِ السعيدْ

يا أيها المَلِكُ المقيمُ وأيها المَلِكُ الشريدْ

« بوسيدون » يعلم ما تُريد وما يُريدْ

وأقولُ لي . لتقول لَكْ

« بوسيدون » يُطلِقُ شهوةَ الإعصار لكنْ الطريقَ على جبال الموج يبلغ منزلكْ

وأقولُ لي . لتقولَ لكْ

درجاتُ قصرك أعطت الجنرال خُطوَتَه لديك . وأعطت الشعراءَ خُطوتَهم لدى الجنرال . أتلانتس تراودُ خُطوة التاريخ . تمنحُ روحَها للعدل . حقٌّ للمواطن أن يعيش كما يشاء بما يشاءْ

حقٌّ لطفلته الدفاترُ والقراءَةُ تحتَ نورِ الكهرباءْ

حقٌّ له عُشب الحديقةِ والدَّواءْ

وتراود الجنرالَ مجزرةٌ ويحلم بانقلابٍ عسكريّْ

في مَطلَع الدرجات . مُنحنيًا لسيدةٍ يوزّعُ صدرُها شَبَقًا ويخفق في الدهاليزِ المثيرةِ نحو مخدعها الخفيّْ

درجاتُ قصرك تلتوي شيئًا فشيئًا

نحو هاوية الدماءْ . .

وأقول لي : في موسم الياقوت تهدأُ ثورةُ الإعصارِ . أنتَ مدجّجٌ بالحلم حولك يسهر الحرّاسُ الْمواجأ . وتحلمُ كيف شئتَ . إشارةٌ صغرى وحوريّات بحر الليل بين يديك . يا مولاي . جنّتك الوثيرةُ رهنُ أمركْ

وعصاكَ أفعى . سُمُّها الفتّاكُ ممتثلٌ لسحركْ

لكنّه الإعصارُ يا مولاي . يجهل لعبة الحرّاس والدستور والإتيكيت . أنت محاصرٌ بالبطش والطوفان والأميّة العمياء . كيف تدجّن التمساحَ والقرشَ المفاجيءَ؟ . لم تزل في موسم الياقوت . تبدأ ثورة الإعصار من أطراف مُلككَ . يصعد الدهماءُ من شطآن أتلانتسْ وتهبطُ تحت سطح الماءِ . يغرقُ رملُها الذهبيّ في الملح المُداهِم . يغرقُ الكسحاءُ والعميانُ . أقدامُ الحفاة الراكضين إلى الجبالِ تشدُّها الأمواجُ خَلْفًا .

ليس للدهماء من منجىً سوى التصعيد نحوكَ . والحصارُ يضيقُ حولكَ . تصعد الامواج من قاعِ المحيطِ إليك هائجةً . تضيّع سِربَها الاسماكُ . يصخبُ اخطبوطُ الكهفِ مذعوراً . كلابُ البحرِ تنبحُ رُعبها . الحيتانُ تطلقُ ماءَها الجوفيَّ صاعقةً لسُخط البحر . أشجارُ السفوح تغيب تحت الماء . تصعدُ موجةٌ أخرى . يغطّي الرملُ والأصدافُ أسطحةَ المنازل والتلالَ . تغوص في فوضى الطحالبِ قمّةُ الجبلِ الاخيرُ والهمسُ يخفتُ في البلاط . وفي المدى يعلو الهديرُ!

لم يسمعوا ملكًا يغنّي . أبصروا ملكًا تجيشُ النارُ في جنبيه موسيقى فيُشعل عاصمةً

ويداعبُ القيثارَ معتصرًا دمَ الاجيالِ حشرجةً ويعزفُ في رمادِ الصحو أنغام الدمار الحالكْ

لم يسمعوا ملكًا يُغني . هاتِ يا مولايَ أغنيةً يشعُّ بهاؤها الشرعيُّ في غَبَشِ السُّهوبِ الواجمَة

لم يسمعوا . .

(تركتْ نوافذَها مُشرَّعةً على ليلي الطويلِ وغادرتْ قلبي وحيداً في الظلامْ

قمرٌ جليديٌّ يخاتِلُهُ ويحبس ضوءَه الحلو المعلّبَ في صناديق الرُّخامْ

تركتْ نوافذها . وغابتْ . لا سلامَ . ولا كلامْ) . .

لم يسمعوا

لم تسمعي

أتلانتسُ انتبهي . مليكُكِ طالعٌ من عالمِ الأمواتِ محتفيًا بعافيةِ الغرامْ . .

لم يسمعوا ملكًا يغني

لم تسمعي ملكًا يغني

فليحتفلْ بالوردة الحمراء نحلُ الحبِّ ولتُشعل غمامَ الأفقِ أجنحةُ الحمامْ . .

هيَ محنةُ الفخّارِ أو هي حكمةُ الصوّانِ يا ملكَ الملوكِ . تأنَّ في عرشٍ تؤرجحه الخفايا والظواهرْ

وأتحْ لأسرار الطبيعة أن تبوحَ وأن تُجاهرْ

هي محنةُ الفخّار أو هي حكمةُ الصوّان يا مولاي فاستيقظ وحاذرْ

في لحظة الحدث الكبير . ولا تُساومْ آفة النسيان . تُدركُ . أنت تدركُ حين تختفي المخاطرْ

كم في مصيرك من مصائرْ

يا أيها الملكُ الشجاعُ . وأيها الملكُ الحكيمُ . تقصَّ في أتلانتس الشبهات . واصعدْ من جحيم الشكّ مسكونًا بفردوس البشائرْ!

لا تمتثل لمشيئة الاحزان . أوقدْ شمعةً بيضاء . أصغِ لما يَقول العشبُ . أصغ لما يقولُ السنديانْ

وافتح نوافذ قصرك المسكون بالاشباح . اعطِ الريح فرصتها . ستبلغ شأوها

الحسراتُ يبدأ عصرُها الذهبيُّ ثم يكونُ بدءُ المهرجانْ

ورقًا خريفيًا تذرّيه العواصفُ عن ضلوع الأرصفةْ

ودمًا جديدًا في شرايين الزمانْ

يُعفيه من ساعاته المتوقّفةْ . .

تتنفّسُ الاشجارُ خُضرتَها وترفع ماءَها الموعود باسم الله . مُدَّ يديكَ باسم الله

للارياف . للصحراء . للآبار . مُدَّ يديك للفقراءِ واختصر الحدودْ

لتكون أشياءُ الوجودْ

سببًا لُملكك . ربما تنجو إذن أتلانتسُ الرغبات من برقٍ يموت . . ولا رعودْ . .

يا أيُّها الملكُ المتوّج بالسحاب وبالقلوب وبالورودْ . .

واقول لي .

لا تلتمسْ في قوّة الضعفاءِ خاتمةً ولا تركنْ لضعف الأقوياءْ

واذهبْ إلى نارٍ وماءْ

بين البسيطة والسماءْ

في قلعة العقل المضرّج بالدماءْ

حربًا وسلمًا . واتعظْ بتقلُّبات الطقسِ . للاوزون حكمتُهُ . وللإنسان حكمتُهُ

وللاشجار حكمتها وميزان الطبيعةِ لم يزلْ في الارضِ منصوبًا تؤرجحُهُ العواصفُ

للبقاء وللفناءْ

يا أيُّها الملكُ المحاصَرُ . واحذر الضحك المحاصَرَ بالبكاءْ . .

أشهرتَ دينَ الحبِّ والإدراك . باسم الله . خاطبتَ الخلائقَ بالخلائقِ . عُدْتَ بالالفاظ
للاشياء . ناشدتَ المسمّى ان يعودَ إلى اسمِه . لا بدَّ من وعي الاصولِ . قلقتَ .
أعلمُ . مسّت الحمّى منابت روحك الأزليّ . اعلمُ . لم يزل ترتيب بيت الارض
همُّك . سيدي . مولاي . في أرجاء أتلانتسَ تحومُ الاسئلَةْ
ويفتّش البسطاءُ عن حلٍّ للغز السنبلَةْ
الخبزُ . يا مولاي . سرُّ المعضلَةْ .
والحبُّ والإدراكُ خبزُ غدٍ . وخبزُ اليوم يطلب أوّلَهْ . .
لم تفتك الاوباءُ بعدُ بكلّ زرعك . لم تزل أصداءُ أغنيةٍ تموج على الحقول الصفرِ .
حصّادون يفترشون تبنَ الموتِ والفوضى . حبالى يشتهينَ التوتَ والليمونَ في سُرُرِ
الولادةِ . إنه التاريخُ يا مولاي يُملي شانَهُ اليوميَّ . والصحفُ النشيطةُ تقتفي قمرًا
من الالومينيوم الكونيّ . شاشات الفضائيات تلهث خلفَهُ . لا تاسَ يا مولاي .
اشرطةُ الدعايةِ لا تطولُ ونشرةُ الاخبار قادمةٌ وانت محاصرٌ من أول الأنباءِ للنبا
الاخيرْ

« حربٌ على الحبِّ المجنّح بالزنابق والحريرْ
حربٌ على الملك الخطير »
واقول لي . . لتقول لك
حربٌ تخيطُ الارضَ في وضحِ الدماءِ إلى الفلَكْ
ليلاً . تُعدّ مهارةُ التنّين عدّتها . ويشهق قلبُ اتلانتس . تشدّ الريحُ معطفها وتوغل
في تضاريس الجليدْ
ليلاً . تحطُّ على الشواطىء رايةُ الغزو الجديدْ
قتلى وجرحى في الدروب وموجةٌ أخرى تعودُ بموجةٍ أخرى تعودْ
ماذا سنفعل ؟ هذه الاسوارُ واهنةٌ مصدّعةٌ تؤول إلى السقوط ويهرب الحرّاسُ . هل
اعددتَ يا مولاي ما لا تستطيع وتستطيعُ . وهل خرجتَ من الحرير إلى الحديدْ ؟
غزوٌ جديدْ
يَعِدُ الجواري بالعبيدْ . .
وأنا أُرتّبُ ربطةَ العُنقِ الجديدةْ . وجهُكَ الملكيُّ يا مولاي في المرآةِ . فاخرج
للجماهير الغفيرَةْ

في باحة القصر الاسيرةْ
واستنهض الموتى القُدامى. ميتةُ الاحياء واضحةٌ وفاضحةٌ وامواج المحيط تميد
والابراجُ من حَجَرٍ إلى حجرٍ تميدُ
ماذا ستفعل ايُّها الملك المحاصرُ بين انقاض الجزيرة؟
اتلانتسُ اعتذرتْ لعصمتها
ومُلكك رهن لحظته الاخيرةْ!

الآن يغطسُ عرشكَ المائيُّ. امواجٌ من الظلماتِ تغمرُ بهجةَ الاعيادِ. تقتربُ الملوحةُ من قبابِ المُلكِ. تغرقُ غابةٌ أخرى. تغيبُ القمّةُ الخضراءُ في اوقيانوس الظلمات. تفغرُ جوفَها الاعماقُ. تُقبلُ شهوةُ الحيتانِ. يُهرعُ من مكامنهِ السحيقةِ موكبُ السرطانِ. ينشرُ اخطبوطُ الياسِ اذرعةً مدرّبَةً. ويا مولاي. في شَرَكٍ مُميتٍ انتَ. في شَرَكٍ مميتٍ تختفي المدنُ الكثيفةُ. والقرى المعزولةُ. الثكناتُ. ابراجُ المعابدِ. والمصانعُ. والحدائقُ. تختفي الاشجارُ. والطرقُ المعبّدةُ. الموانيء والمقاهي
وتظلُّ ربّانًا على بُرجِ السفينةِ. رافعًا كفّيه صوبَ يدِ الإلهِ
تتلاطمُ الامواجُ حولكَ. يستعدُّ القاعُ للحفلِ الكبيرْ
والماء يصعدُ. انتَ تهبطُ. تختفي قدماكَ (ربّانٌ بلا قدمين). يعلو الماءُ (ربّانٌ بلا ساقين). يعلو الماءُ. تهبطُ انتَ. سُرَّتُكَ احتفاءُ الاهلِ بالطفلِ الجديدِ على السريرِ وسريرك المائيُّ يغطسُ. تختفي كتفاكَ تحتَ الماءِ. يهبطُ راسكَ المائيُّ. يسبحُ شعرُكَ المائيُّ. في ماءٍ بلا حدٍّ على ماءٍ بلا حدٍّ. وروحكَ عائدٌ للماءِ. فوق الغَمْرِ يطفو. يستعيدُ اللهُ آيتَهُ القديمَةْ
وتغوصُ في القيعانِ اتلانتسُ. يغوصُ المُلكُ في الظُّلماتِ. انتَ تغوصُ في القيعانِ. في أحلامِ يقظتكَ الوخيمَةْ
وتغوصُ أسرارُ الجريمَةْ
وتغوصُ أسرارُ الجريمَةْ
وتغوصُ امْـ ....

(١٥/١٠/٢٠٠٢)

شاعر فلسطيني مقيم في الرامة/ الجليل

الطنطورة»



... أو كهزيع من الليل

دمشق. ساحة الجبة. طرقنا الباب. أضيء المدخل الخارجي ثم فتحت لنا فتاة تلبس فستانًا أسود. تفضّلوا. هبطنا الدرج ببطء. هذه شقيقته – قال إيليا. غريب، لم تعرفني. دخلنا. في الصالة وقف رجل في حوالي السبعين من العمر. فتاتان وامرأة تلبس ملاءة بيضاء والصور تملأ الحيطان. لم أقل شيئًا. صافحت الأيدي التي امتدت وتمتمت. جلس إيليا وجلستُ إلى جانبه. جاءت القهوة المُرّة. شربت فنجاني. الله يرحمه – قال إيليا. لم يجب أحد. فتحت المغلّف الكبير وأعطيت الأوراق لشقيقته.

– جاءت ليلى من باريس وهي تُسلّم عليكم.

شكرًا – قالت الأخت وابتسمت.

– هذه الأوراق هي الأرشيف الصحفي عن اغتيال الشهيد.

شكرًا، قالت الأخت، وبدأت تقلّب الأوراق بين يديها. ما هذا؟ قالت ونظرت إليّ.

نظرت إلى الصحيفة الفرنسية حيث كانت صورته مرسومة بالكاريكاتير والرصاص يلفها من كل جانب. في أسفل الصورة رجلان، كل يركض في اتجاه وقد حمل لوحة كتب عليها إسم فلسطين.

إعلام غربي – قال إيليا.

كان يجلس في طرف الصالة، ينظر إلى الأرض ويفرك عينيه بيديه.

قلت له إننا نعتذر لأننا وصلنا متأخرين.

قال إيليا: لا مؤاخذة، لكني أضعت البيت هذه المرة.

نظرت الأخت، تذكرتك – قالت. لقد جئتَ منذ خمس سنوات ونمت هنا في بيتنا.

ابتسم إيليا، خلع نظارتيه ومسح العرق عنهما.

ملصقات الشهيد تملأ المكان. لقد أخطأوا – قال الأب. إنهم يخطئون دائمًا. فهو ليس من مواليد الطنطورة، إنه من مواليد حيفا. أمه من الطنطورة لكن نحن من حيفا.

نطورة، يوم احتلالها ليلة ٢٢–٢٣ أيار ١٩٤٨

أنا من حيفا أيضاً – قال إيليا. من أين؟ – قال الأب. – وادي النسناس. – إبن من أنت؟ – إبن وديع البحري. – وديع البحري. قام الأب. وقف إيليا وتعانقا. إنه صديقي. مات – قال إيليا.

كلنا سنموت، كلنا على هذا الطريق، قال الأب وجلس.

وقفت. صوت المروحة الكهربائية يكسر الصمت. مشيت، تبعتني الأُخت، توقفنا طويلاً أمام الملصقات الملوّنة التي تملأ حيطان البيت. ثم توقفت أمام الملصق غير الملوّن. إنه هو من غير الوان. ينظر كما نظر عندما التقينا في باريس. كان قد عاد من زيارة لبيروت بعد أن عُيّن ممثلاً للمنظمة في فرنسا. كان يبتسم دائمًا تلك الابتسامة الغامضة التي هي أكثر من ابتسامة وأقل من ضحكة. عينه اليمنى نصف مغمّضة والعين اليسرى عادية، والضحكة غير متناسقة على الجانبين. ربطة العنق والانحناءة الخفيفة. تحتار ولا تفهم هل يضحك لك أم يسخر منك. وها هو أمامي، بضحكته الخاصة وإغماضة عينه. قالت الأُخت إنه كان يرسم عندما كان صغيرًا، في الخامسة عشرة أو أقل. أرتني لوحة رسمها. إنها نسخة من منحوتة رودان، «المفكر»، حيث يجلس الرجل ممسكًا ذقنه بيده اليمنى. وفي أسفل الصورة كتابة بخط اليد: الإنسان ذلك المجهول، وتوقيع عز الدين القلق.

عدت إلى الصالة. كان إيليا يجلس إلى جانب الاب دون ان يتكلما، وامامهما كوبان من الشاي. حاولت ان اكلمه. تنحنحت. قلت: يا عم. قال: شاي. قلت: شكرًا. سال إيليا عن ظروف وفاة والده. تكلم إيليا. قلت: يا عم، لقد عادت – قال. نظرت إلى المراة التي تلبس ملاءة بيضاء. كانت تقف إلى جانبه ثم جلست وتكلمت. كان صوتها يخرج بطيئًا ومتلعثمًا. ثم يرتفع وتتكلّم عن كل شيء. تضحك فنضحك. تبكي فنصمت في وجوم. ننظر إلى الارض او إلى ايدينا. ثم يعود صوتها إلى الارتفاع.

هذه هي المرأة الفلسطينية – قال إيليا.

كانت المرأة التي تلبس الملاءة البيضاء تفرش صوتها على الأرض وتضحك أو تبكي. قالت: أنتم أصدقاؤه، قلنا: نعم. قالت: حدّثوني عنه. فأنا منذ سافر لا أراه. يأتي قليلاً ويقول لي، جاء دوري هذه المرة، وان عليّ ان اتماسك لاني أُمه، وانه لا يخاف. كنت أبتسم له وألاطفه. لكني لم اصدق. كل هذه السنوات تذهب هدرًا. هذا ليس هو، لماذا ملاوا البيت بالصور والملصقات والشعارات. هو يختلف عن الصورة.

كانت السيارة تسرع بنا بعد ان قطعنا الحدود اللبنانية باتجاه دمشق.

انا احاول النوم، وإيليا يتكلم دون توقُّف، ثم فجاة مدّ يده من نافذة السيارة

وقال: هذا هو المعسكر، هل تعرف معسكر الهامة؟ قلت إني لا أعرفه. وحاولت العودة إلى النوم. هنا كان منزل أبو علي إياد. هل زرته؟ قلت: لا.

أبو علي إياد يحمل عصاه. لم يعد أحد يذكر هذا الرجل دون أن يذكر عصاه. كنا في البداية. الجميع يريد أن يصبح فدائيًا. وحتى تصير فدائيًا عليك أن تمر في معسكر التدريب الذي يشرف عليه أبو علي إياد. عليك أن تتعرّف إلى عصاه. قال إيليا إنه تدرب هنا وإنه لا يستطيع أن ينسى هذه التجربة. سألته عن أبو علي فحدثني عن صورته. قال إن صورته التي علقت في جميع المكاتب تبعث فيه شعور البداية الدائمة.

– ولكن كيف استشهد؟

لا أعرف – أجابني. الحقيقة أني ذهبت يومها إلى دمشق، ومنها إلى الحدود السورية – الأردنية. كنا مئات من الشباب الذين تجمّعوا من أجل المشاركة في معارك الأحراش. لكن لم يسمح لنا. لا أعرف لماذا. لم يقدم أي تفسير. نقف في الطوابير استعدادًا للتقدم واجتياز الحدود، ثم يقولون غدًا. بقيت هناك حتى جاء الخبر. فعدتُ إلى بيروت. لكنني توقفت في الهامة. كان منزله مليئًا برجال مثلي يعودون إلى بيروت، يتوقفون هناك ويكتبون أسماءهم على حيطان منزله.

عدتُ بعد سنوات من باريس، حيث كنت أتابع دراستي. ذهبت إلى الهامة – قلت أزور منزل الرجل وأكتب إسمي مرة ثانية على حيطانه. دخلت المنزل ففوجئت باللون الأبيض. طرشوا الحيطان باللون الأبيض. جاء الأبيض ومسح كل الأسماء وكل الكلمات. طبعًا هناك شباب لم يكتبوا أسماءهم فقط، بل كانوا يكتبون الأشعار والتمنيات ويوقعونها بأسمائهم. لكنهم طرشوا كل شيء باللون الأبيض، وبقيت صورته معلّقة فوق حائط أبيض. هل تحب زيارة منزله؟

**«لأن ألف سنة في عينيك يا رب كمثل أمس الذي عبر،
أو كهزيع من الليل».**

– أظن أنها كانت سنة ١٩٣٠. حدثت مناوشات بيننا وبين اليهود. كنت جالسًا أمام الدكان، فجاء الاخوان وقالوا لي بأن اليهود هجموا على «وادي الصليب». تركت الدكان وخرجنا لمواجهة اليهود في شارع «هشومير». أطلق علينا الرصاص، وأنا أُصبت برصاصتين. طبعًا، الحركة الوطنية كانت تشتد. وفي حيفا، كان المناضل عزالدين القسام.

كنا نذهب إلى منزله ونستمع إلى دروسه. الحقيقة أني لم أشارك في الثورة إلاّ بعد استشهاده. لقد أثّر علينا استشهاده كثيراً. خرجنا في جنازته رجالاً ونساءً، وحملنا نعشه من حيفا إلى بلد الشيخ. وعندما وصلنا إلى مركز البوليس الإنجليزي، بدأت الناس ترمي الحجارة. هرب جميع رجال البوليس وأُغلقت البلد. بعد استشهاده أخذت فصائل المقاومة تنتشر. أخذتني الحماسة. تركت أم عز الدين حاملاً بابنتي جهاد وذهبت إلى يعبد، هناك اشتريت بندقية ألمانية من شخص اسمه فوزي وسلحلك. ولما وصلنا إلى قرية عتين جربتها فوجدتها صالحة. ذهبنا إلى بلد اسمه رمانة. هناك شكّلنا مجموعة مؤلفة من عشرة رجال. نسفنا خط سكة حديد العفولة. وحاولنا الوصول إلى مستعمرة قرب كركور. لكننا لم نوفق. حاولنا ثلاث مرات ولم نوفق. وبعد ثلاثة أيام من التحاقي، جاء رجال وقالوا لي: الأفضل أن تعود إلى حيفا، لأنك تركت زوجتك حاملاً والعيون تفتحت عليك. تركت البندقية في قرية رمانة وعدت إلى حيفا.

– جاء محمد سعيد وقال لي أريدك أن تذهبي إلى الطنطورة. رفضت. قال إنه سيأتي معي. صدّقته. النساء تصدّق رجالها، لكن الرجال يكذبون. ركبنا السيارة ووصلنا إلى البلد. ثم فجأة اختفى. يبدو أنه ذهب إلى دكانه في حيفا وباع البضائع واشترى بندقية وسلحلك وراح. بعد يومين، قلت لأخي بأني أريد الرجوع إلى بيتي. عدنا إلى البيت فرأيت الباب مفتوحًا، والخزائن مفتوحة. ورأيت خاتم الخطبة مرميًا في الدرج. جاءت الجارة وقالت لي: يا خالتي أنا لست ناطورًا على بيتك. جاء زوجك وأخذ الحقيبة وترك البيت مفتوحًا وهرب. بدأت اللطم على حالي وأبكي. أقفلت الأبواب وذهبت إلى منزل والد زوجي. سألني عن محمد، قلت إنه ذهب ولا أعرف أكثر من ذلك. قال: بسيطة سوف يرجع. قلت: لا. كيف يتركني أنا والأولاد وأنا حامل. جاء شقيقه، صرخ في وجهي، ثم قال: أعطينا أولادنا واذهبي إلى بيت أهلك في الطنطورة. قلت: سأبلغ البوليس. طبعًا لم أكن سأبلغ البوليس، كنت أهددهم فقط من أجل الضغط على زوجي.

مفهوم مفهوم – قال إيليا.

أخذت الأولاد وسكنت في بيت أخي. وذهب ابن عمي إلى يعبد، وبعد ثلاثة أيام عاد بالرجل إلى البيت.

لم يشارك كثيرًا في الثورة، لكنه أدخل الثورة إلى بيتي. عندما ولد ابني الأول أسماه عز الدين. قال: تيمنًا بعز الدين الشهيد. كان عمره ثلاث سنوات، أختي تأخذه وتشتري له الحلوى. يمشي إلى جانبها لابسًا القمباز الأبيض وعمامة الشيخ. وعندما يفلت من يدها تناديه، فيهرع الناس إليه. ويسألونه، هل أنت عز الدين القسام. يقول: نعم. يحملونه

ويقبّلونه.

– أنا اشتريت له هذه الثياب، كان يلبسها ونقول له أنت القسام فيقول أنا القسام ونضحك.

«لأن ألف سنة في عينيك يا رب كمثل أمس الذي عبر، أو كهزيع من الليل».

كنّا نسير على الرصيف في شارع «هوسمان». ضجة الشارع ترتفع والرذاذ الخفيف يتساقط. وهو يسير وحيداً في المقدمة، وأنا وزوجتي نتبعه. كان يسير بحذر، يسرع ثم يلتفت إلى الوراء. يضحك بصوت مرتفع ثم يعاود المشي. فجأة انعطف بنا إلى اليمين وفتح بابًا.

– أدخلوا.

ولكن هذا مخبز – قلت له.

– أدخلوا.

دخلنا. كانت رائحة الخبز تنتشر في المكان. الطاولات والكراسي الخشبية شبه فارغة.

– هذا أحد أجمل مطاعم باريس. الطاولات صنعت من خشب الصنوبر. انحنيت وشممت الطاولة. فخرجت رائحة هي مزيج من رائحة الخبز ورائحة الطعام. جلسنا. كان يضحك ويخبر النكات. جاءت المرأة بالطعام فبدأنا نأكل. قالت زوجتي إن أشكال الخبز هنا عجيبة. طبعًا – أجابها. لن تجدي هذا الإتقان في أي مكان آخر. كان الخبز مزروعًا على الرفوف، ويأخذ أشكالاً مختلفة: فيل، دجاجة، ثور، فتاة. قالت زوجتي إنها ستشتري منه وتأخذه معها، من أجل الأولاد. طبعًا – أجبتها. كان يأكل بحذر وينظر إلى الوراء نظرات خفيّة. قال إنه اعتاد على هذا النمط من الحياة. قبل أن تدخل إلى أي مطعم عليك أن تقرّر من أي باب سوف تخرج إذا فاجأوك. منذ اغتيال الهمشري وهم يريدون قتلي. قلت: من؟ قال الصهاينة. قلت: طبعًا. ولكن المسألة بالغة الجدية. الحذر الدائم. يأتون على شكل لاعبي فوتبول أو روّاد مقاهٍ أو مثقفين. ويختارون من بينهم واحداً له شكل يشبه العرب. القاتل يهرب بسرعة ويبقى هذا، الذي يقوم بإدخال التحقيق في متاهة، ولن تثبت عليه التهمة على أية حال. قلت: من أين سنخرج إذا فاجأونا.

أشار إلى باب خلفي. من المؤكد أنهم لم يلاحظوا هذا الباب.

– وكيف يستطيعون صناعة الخبز بهذه الطريقة؟

– لا أعلم – أجابني. ربما يخمرنه بشكل زائد قليلاً، ثم يخبزونه في فرن كهربائي وعلى حرارة منخفضة. ولكنهم لا يستطيعون الإحاطة بكل شيء. هل تعلمين؟ مرة اضطررت إلى الخروج من أحد المطاعم هاربًا. إنه مطعم في هذا الشارع، لكنه قريب من المكتب. دخلوا. لا أعلم كيف شعرت بهم. كان هناك رجل يضع نظارتين على عينيه، وامرأة طويلة الشعر، وشاب سمين يشبه الزعران الذين يظهرون في الأفلام البوليسية. وفتى عربي. كلٌّ يجلس في ناحية، ما عدا الرجل الذي يضع النظارتين فقد كان واقفًا يحتسي القهوة.

– كم ثمن الرغيف؟

إنه السعر العادي، أو هو مرتفع قليلاً، أجاب. في لحظة. تأكدت أنهم سيقتلونني. كان هناك رجل يتمشى في الشارع أمام المطعم، ويبدو أنه قائدهم. ثم فجأة دخل رجل يشبه السنكري ويحمل في يده أدوات معدنية. قلت: سأجرب. وقفت بسرعة. تغيّرت ملامح الرجل الذي يضع النظارتين ونظر باتجاه السنكري. عندها خرجت هاربًا. ركضت في الشوارع الضيقة واختلطت بالناس.

– ولكن كيف؟ قال إنه تعلم من خبرته. أصبح عندي حسٌ أمني – أجابني. قلت: إنك تبالغ. قال: لا. لكني اعتدت هذا النمط من الحياة. قال: نشرب القهوة في مكان آخر. قالت زوجتي إنها ستذهب لتشتري خبزًا. قلت: لا. الأفضل أن نعود إلى هنا قبل سفرنا ونشتري. دفع الحساب وخرجنا مسرعين من الباب الخلفي. دخلنا إلى مقهى مليء بالناس. سألني عن رأيي، قلت: أنا متأكد أنك تبالغ، الحذر ضروري ولكن ليس إلى هذه الدرجة. لا – أجابني. غدًا عندما أُقتل سوف تتأكد أنني لم أكن حذرًا بما فيه الكفاية. تركنا ومشى. مشينا سوية وسط الشارع المزدحم. مشينا ببطء.

والله يا خالتي بقينا في حيفا حتى النهاية. لكن كان لا بد من الذهاب في النهاية. سبعة أولاد ماذا أفعل بهم. عندما اشتدّ القتال وأصبح يدور في جانب الشارع الذي نقيم فيه، لم أعد أعرف ماذا يجب أن نفعل. سبعة أولاد. وابني أمين لا يزال على حضني، عمره ثلاثة أشهر. وضعت الأولاد تحت طاولة الطعام وتوكّلت. ثم رأيتُ زوجي قادمًا وإلى جانبه مجموعة من المسلحين. غسيلي على الحبال وطبختي على النار. لم ينتظر، بدأ يحمل

الأولاد ويعطيهم للمسلحين من فوق الحائط. لبست ثيابي ومشينا ملتصقين بحيطان البيوت. وصلنا إلى شارع الناصرة، حيث بتنا ليلتنا في منزل شقيقة زوجي. في الصباح جاء أخي واقترح الذهاب إلى الطنطورة. محمد سعيد رفض الذهاب. إذهبي أنت والأولاد وأنا سابقي. ركبنا سيارة تاكسي وذهبنا. أوقفنا الجيش الإنجليزي، وبعد تفتيش دقيق سمحوا لنا بمتابعة السفر. وصلنا إلى بيت أخي في الطنطورة لنجده قد تحوّل إلى تجمّع سكاني ضخم. هناك زوجة أخي الذي استشهد مع أولادها، وزوجة أخي المُتوفى مع أولادها، وزوجة أخي الثالث الذي فقد منذ شهر مع أولادها. أربع نساء و١٨ ولداً. بعد حوالي أسبوعين سقطت حيفا. جاء سائق من هناك وقال إن محمد سعيد قُتل. قلت لأخي إنني ذاهبة إلى حيفا. قال: لا يمكن. لقد سقطت المدينة والرجل مات. أقمنا التعزية ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع قال رجل من الطنطورة إن أبو عز الدين وصل. ركضت إلى الشارع. خلعت المنديل الاسود الذي يغطّي راسي وركضت. فرأيته في رأس الشارع يلوح بيديه الاثنتين والحطّة على رأسه.

قالت إنه استشهد من القنبلة الاولى. لكنهم قالوا إنه استشهد من القنبلة الثانية. وفجأة انطلق الرصاص. حاولوا خلع الباب. كان الباب مقفلاً من الداخل. أطلقوا الرصاص على القفل، لم ينفتح الباب. كانوا قد وضعوا الطاولة خلف الباب، وهم خلف الطاولة، والرصاص في الخارج.

ضرب الباب بيده، أحدث فجوة. رمى القنبلة الاولى، رمى القنبلة الثانية، ثم أطلق ست عشرة رصاصة في الجسد المرمي خلف الطاولة. كان هو. الشظايا في كتفيه، والرصاص في أنحائه، والدم على الأرض. وإلى جانبه رجل قطعت ساقاه والدم ينزف وهو يحاول إيقاف النزيف.

قال الأول بعد ان اعتقل: هل مات الرجل؟

قال الثاني وهو يرفع إشارة النصر: هل قتل الرجل؟

اما هو، فكان ملقًى على الأرض، الدم ينزف من جبينه. يبتسم ولا يسأل من هو القاتل.

في مسجد باريس حيث تجمع الرفاق كان البكاء يرتفع. الجميع يرتجف بالدموع. لماذا أصبحنا نبكي على الشهداء بهذه الطريقة؟ سألت ليلى وهي تبكي. قلت لها بانني لا أعرف ولا افهم. لكن منذ ان تكاثر الشهداء خلال الحرب الأهلية، أصبحنا أكثر حساسية من الموت. نعيش مع الموتى ونخاف عليهم من الموت.

– ولكني لا أريد ان ابكي.

مشت وحيدة ومشيت وحيداً. «إنني قاتل او قتيل». لكنني قاتل وقتيل – قلت لها.

«لأن ألف سنة في عينيك يا رب كمثل أمس الذي عبر،
أو كهزيع من الليل».

جاء ابو عز الدين ومعه المركب. قال: نذهب إلى صور. مستحيل – أجبته. قال: أسبوعين او ثلاثة أسابيع على ابعد تقدير ثم نعود إلى حيفا بعد ان تكون الأحوال قد هدأت. والله مفاتيح بيتي معي. ثم ركبنا. لكن حدثت بعض المشاكل. قال شباب الطنطورة إن الخروج مستحيل. لن يخرج أحد من البلد.

نحن من حيفا ولسنا من الطنطورة. اربع نساء وثمانية عشر ولداً، ماذا نستطيع أن نفعل إذا جاءوا. أخيراً اقتنعوا وسمحوا لنا بركوب المركب بعد ان كادت تحصل مصادمات في القرية. واقلع المركب باتجاه صور. كان البحر مظلماً. كانه لا وجود لشاطئ فلسطين. الاولاد يبكون، دوار البحر ونحن فوق بعضنا، ثم وصل المركب إلى قرب شاطئ حيفا. انا لم انتبه إلى حيفا. قال لي أبو عز الدين: أنظري، هذه هي المدينة. نظرت ولم أرَ شيئاً. كيف استطيع ان ارى. الاولاد في حضني وبين قدميّ، بعضهم يبكي وبعضهم يريد طعامًا وبعضهم يريد ان ينام. وثلاث نساء إلى جانبي يبكين على أزواجهن وعلى البلد وعلى هذه المصيبة. اما هو، فكان يجلس وحيداً في طرف المركب، يدخن سيجارته التي يضمها بين يديه حتى لا يرى أي ضوء في المركب، وينظر إلى البحر. فجاة اشتعلت ورأينا الأضواء تحيط بالمركب من كل ناحية. تشهدوا – قال محمد سعيد. تتشهد، يعني سوف نموت في البحر، ما هذه المصيبة. نصيبنا – اجابني. لكن لحسن الحظ كان المركب الذي سلّط أضواءه علينا، مركبًا إنجليزيًا. نزل جنديان إلى مركبنا، رأوا النساء والأطفال، قالوا كلمات لم أفهم معناها، لكنهم أشاروا باننا نستطيع متابعة السير. وسار المركب باتجاه صور. والله لم انظر إلى حيفا كما نظر إليها الجميع. الذين غادروا في وقت مبكر رووا انهم ظلوا ينظرون إليها والمركب يبتعد، حتى تحوّلت إلى حمامة سوداء تسبح في البحر. انا لم الاحظ لا الحمامة ولا غير الحمامة. كيف تريدين ان ألاحظ. في التاسعة صباحًا وصلنا إلى صور. قلنا الحمد لله. ولكن فور نزولنا إلى الشاطئ رأينا الطاولات وعليها الأوراق. يسالون الف سؤال قبل أن يسجلوا اسماءنا. سالت ما هذا؟ قالوا: تسجيل اللاجئين. محمد سعيد

رفض. لن نتسجل – قال. نحن لسنا لاجئين. بعد شهر على أبعد تقدير سوف نعود إلى حيفا. فلماذا نقف في الطوابير ونسجل أسماءنا. قلت: نتسجل. ماذا سنخسر. قال: لا. بقينا على شاطئ صور وسط آلاف الناس الذين جاءوا من شمالي فلسطين. كانت الناس تستلقي على الشاطئ ولا تعرف ماذا سيجري لها. ثم استأجر محمد سعيد غرفتين في صور حيث سكنّا جميعًا. بقينا هناك إلى ان جاءنا خبر من سليم الشعار، وهو أحد أصدقاء زوجي، بانه مستعد لاستقبالنا في دمشق. فذهبنا إلى دمشق.

إيليا يقف في انتظار إنجاز معاملات العودة على الحدود السورية – اللبنانية، ويحدثني عن مصارعة الثيران. قلت له إني لا اعرف كثيرًا حول الموضوع، لكني معجب بشخصية المصارع. لقد رسمها پيكاسو بشكل مدهش. الحبر الصيني والحركة التي تتجمّد عند لحظة تشبه العناق بين المصارع والثور. قال: لا. المصارعة شيء آخر وأكثر حدّة. قال إنه شاهد الكثير من حفلات المصارعة في إسپانيا، لكن المدهش هو ما لا نشاهده. هل تعلم، لا يستطيع الثور ان يناطح إلاّ في مكان محدّد من الحلبة. يركض في الحلبة بأسرها. لكنه لا يستطيع أن يقاتل إلاّ على جزء محدد منها. والمصارع الجيّد هو الذي يستطيع تحديد هذا المكان بسرعة. المصارع يحاول استدراج الثور إلى الخارج، والثور يحاول دفع المصارع إلى الداخل. لذلك يستطيع المصارع الاقتراب من ضحيته بشكل ملفت للنظر في بقية أنحاء الحلبة.

ومن أخبرك؟ – سألته.

احد المصارعين – أجابني.

مدريد القديمة. نبيذ وخنزير مقدّد ونساء. الساحة الفسيحة تمتلئ بالعشّاق الذين يخرجون من الحانات الضيقة. في الساحة رأيته، رأيت الناس يتجمّعون حول رجل مستلقٍ على الأرض. تقدّمت منه. كان يمسح بكمه فمه الممتلئ خمرًا ويتكلم. إنه مصارع تقاعد لأنه أصيب. كان يروي نفس القصة دائمًا. فضح سرّ المهنة، ولا يزال يسكر.

اقمنا في منزل الشعار حوالي اسبوع. لكن مستحيل. لقد خرّب الأولاد كل شيء. ثم استأجرنا منزلاً في مدينة الشحم قرب سوق الحميدية، وسكنا فيه جميعًا. بعد أسبوعين جاءنا خبر الطنطورة. لا أعرف كيف سقطت. أنا لم أكن هناك. لكن الروايات كثيرة. الشيء المؤكد أن اليهود حين دخلوا البلد جمعوا شبابها قرب شاطئ البحر وقتلوهم. كان

عددهم ٥٨ شابًا. أنت تعلم. الطنطورة على الشاطئ ورجالها بحارة. لكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا. طائرات ودبابات. أخذوهم إلى الشاطئ، وهناك فتحوا عليهم نيران الرشاشات، وتركوا جثثهم مرمية عدّة أيام. أنا لم أرَ المشهد. ابنة عمي تقول إن الجثث كانت تلتمع تحت أشعة الشمس. يا حيف على الشباب. قالت: إنهم كانوا كالسمك الميّت الذي لا يلتفت إليه أحد. لا أعلم إذا دُفنوا. بلى، قالوا إن بعض النساء تسلل في الليل وسحب الجثث. كانت مليئة بالرمل والغبار والديدان. ثم حفرنَ حفرة ودفنّها. أولاد عمي ماتوا هناك. لكنهم شهداء. لا يهم الشهيد إذا دفن أو غسل. دمه يطهره. أقاموا الآن مستعمرة يهودية مكان الطنطورة وسمّوها «دور». لا، لا يوجد أقارب هناك. الرجال قتلوا والنساء والأولاد تشتتوا في لبنان والأردن. هل تعلم، الطنطورة بلد جميل. وكان لها عز في الماضي. لكن راحت البلاد. أنا لم أكن أفهم في السياسة. يا خالتي السياسة لها رجالها. لكنه هو، الشهيد الله يرحمه، كان يحدثني دائمًا في السياسة. وكان يخبرني عن الطنطورة. قرأ عنها في الكتب. قال إن نابليون انهزم إليها عندما انهزم من عكا. كان يخبرني عن الجنود والطاعون والحروب. كنت أقول له يكفي ما أصابنا، لكنه كان يقرأ في كتاب سميك ويخبرني. نهضت الأخت وجلبت كتابًا. أمسك إيليا الكتاب وأشار إليّ:

«عام ١٧٩٩ مرّ بالطنطورة، في شهر أيار، نابليون وجيوشه المتقهقرة عن عكا وهي في طريقها إلى مصر.. رأيتُ بعيني رأسي ضباطًا مبتوري أطراف يلقيهم حمّالوهم عن نقالاتهم. ورأيت رجالاً مبتوري الأطراف وجرحى ومرضى بالطاعون، أو ربما يشتبه في إصابتهم بالطاعون، يتركون في الحقول. وكانت تضيء لنا في سيرنا، المشاعل التي تحرق بها المدن والقرى والمحاصيل الغنية. وأصبح الريف كله شعلة من نار. ولم نرَ حولنا إلاّ رجالاً في النزع، وآخرين ينهبون ويسلبون وغيرهم يحرقون. وكان المرضى على جانب الطرق يقولون بصوت لا يكاد يسمع، إنني جريح فقط ولست مصابًا بالطاعون. ولكي يقنعوا من يمرون بهم كانوا يفتحون جروحهم أو يحدثون في أجسادهم جروحًا جديدة. ولكن أحدًا لم يصدقهم، وكان القوم يقولون إنه ميت، ثم يعبرون».

«لأن ألف سنة في عينيك يا رب كمثل أمس الذي عبر،
أو كهزيع من الليل».

ليلى تتكلم وهو ينظر إلى يديها. لا أعلم لماذا تذكّرني بأبي – قالت له. ذهبنا إلى بعلبك. دخلنا من النفق الصخري. أمامنا كان معبد باخوس مُضاء بألوان خافتة

تتفجر من حجارته. كنت أسير إلى جانبه. ارتفعت الموسيقى وأنا أحاول الإمساك بيده. لكنه كان يسير مسرعًا وسط الزحام. قلت له: لا تسرع. لم يلتفت إلى الوراء. ثم سقط. اعتقدت ان الموسيقى توقفت. سقط كما تسقط الشجرة. لا اعلم من أين جاءت المساحة الفارغة التي سقط عليها. المكان مزدحم بالناس وأنا لم استطع اللحاق به. رأيته مرميًا على الأرض وأمسكت بيده. ثم تجمع الناس. أبعدوني عنه. قلت لهم إنه ابي وإني أريد ان امسك يده. جاء الاطباء. قالوا إنهم يحاولون. لكنه كان قد مات.

عز الدين دخل إلى الجامعة وكان عمره ١٩ سنة. قال إنه يريد ان يدرس الكيمياء. قلت له يا ابني، ولكن لماذا لا تدرس دكتور. تكلم فلم أفهم. لكنه بعد ذلك صار دكتورًا في فرنسا. قال لي إنه صار دكتوراً في الكيمياء. لكنه لا يشتغل دكتور. يشتغل مع الفدائيين. كان في السنة الثانية من الجامعة، عندما جاءت المخابرات وطوقت الحارة. ثم طرق إثنان على الباب. فتح محمد سعيد الباب ولم ينتبه أنهم من المخابرات. صرخ له بان أصدقاءه في انتظاره. خرج واستقبلهم. قال لهم انتظروني خمس دقائق حتى ألبس ثيابي. لبس ثيابه وخرج ولم يعد. اربعة أشهر وأنا ابحث ليلاً نهارًا ولا اعرف شيئًا عنه. سألت الجميع. جميع مراكز البوليس وجميع الناس، لا احد يعرف. قلت راحت عليك يا أم عز الدين. ثم جاءت امرأة وطرقت بابي. قالت إن ابنها اعتقل مع ابني، وأنهم وضعوا الجميع في سجن المزة. ذهبت انا والمرأة إلى المزة. العسكر على الباب، قالوا ممنوع. قلت لهم: إبني. قالوا: إبنك ممنوع. قلت لهم: هو هنا وأريد أن أراه. قال إن الزيارات ممنوعة. ثم جاءني أحدهم وقال لي إذهبي إلى المباحث واجلبي ورقة من هناك وبعدها نسمح لكم بالزيارة. أنا كنت قد حملت لابني بعض الثياب، خرج من البيت وليس معه سوى بدلته التي كان يلبسها، أعطيت الثياب للعسكري وذهبت دون أن أراه. بعد عدة أيام ذهبنا إلى الشرطة العسكرية قرب الجامعة. وبعد الكلام أعطونا الأوراق. حملناها وذهبنا إلى المزة. هناك كانت النساء فوق بعضها. أدخلونا بعد الرجاء والكلام كل خمسة نساء سوية. لم نتكلم معهم. السجناء خلف الحديد، ونحن نبعد عنهم ستة امتار او أكثر، والجميع يتكلمون سوية، يصرخون ويلوّحون بالمناديل ويبكون. وحالة لا توصف. تكلم وتكلمت، ولكني رأيته، وأصبحت أذهب إلى المزة أسبوعيًا. وكل أسبوع تتكرر الحكاية نفسها. ثم توصلنا إلى اتفاق: كل امرأة تتكلم دقيقة واحدة مع ابنها. لكن الاتفاق لم يطبق فعليًا. في كل مرة كانت إحدى النساء تستأثر بالحديث. ثم يعلو الصراخ. المهم انهم قالوا لي: لماذا لا يوقع

على الأوراق؟ قولي له أن يوقع فيخرج من السجن. قلت له أن يوقع. ما قيمة الأوراق؟ لكنه رفض. كان يقول لي إنه لن يتبرأ من الحزب الشيوعي لأنه ليس عضوًا فيه. قلت له بسيطة. أنت لست عضوًا فماذا تخسر؟ قال: أخسر كرامتي. يا ابني ما هذه العقلية. كرامته متعلقة بالتوقيع. الكثيرون وقعوا وكانوا أعضاء. والله لا أعلم إذا كان عضوًا، أنا لست متأكدة. لكنه لم يوقع. قلت له: أنا أوقع عنك. فضحك وقال: بسيطة. بقي ثلاث سنوات. مرة طلب مني أن أذهب إلى وزير الداخلية وأقول له إن ابني سجين، وهو فلسطيني ولا علاقة له بشيء. حاكموه أو أطلقوا سراحه. ذهبت إلى مكتب الوزير. تستطيع أن تتخيّل مبلغ الصعوبات التي واجهتها. دخلت إلى المكتب. طبعًا لم أرَ الوزير، فنحن لا نستطيع مقابلة الوزراء. كان هناك حاجب. أخبرته قصة إبني وبكيت. بكى الرجل ووعدني خيرًا. ولكن من أين يأتي الخير. بقينا هكذا ثلاث سنوات، وأنا أدور من البيت إلى السجن، ومن السجن إلى مكاتب الحكومة. لكن كل شيء له نهاية. كان على ما أعتقد نهار الاثنين، صلّيت العصر وجلست على الشرفة أبكي. كنت متأكدة أنه لن يخرج. قرع الجرس، فتحت الباب. كان أحد فتيان الحي يقف خلفه لاهثًا. قال لي إنه التقى عز الدين في رأس الشارع، وأن عز طلب منه أن يأتي ويخبرني بأنه قادم. خرجت من البيت وتركت الباب مفتوحًا. ركضت في الشارع فرأيته. كان يمشي ببطء، يلبس البدلة نفسها التي ذهب بها إلى السجن، حليق الذقن ويبتسم. أدخلته إلى البيت ولم أره. جاءت الناس لتهنئته بالخروج. لكني فرحت، قلت: فُرجت. وبعدها صار يذهب إلى الجامعة ويدرس. أنهى الليسانس وسافر إلى السعودية. عاش في السعودية بضع سنوات ثم عاد إلى دمشق.

قال إنه سيسافر إلى فرنسا من أجل إكمال دراسته. سافر. أخذ الدكتوراة في الكيمياء وبقي هناك. كنت أكتب له بأن يرجع، لكنه لم يجاوب. ثم علمت أنه يعمل معهم. وعندما استشهد الهمشري خفت كثيرًا. قلت له بأنهم سيقتلونك، فلماذا لا تعود. قال: لا. لا أستطيع. قلت له إني أتمنى لو يدخل السجن، هناك يرتاح بالي وهو يرتاح. صار يضحك. القبر أكثر راحة – أجابني. كان يمازحني دائمًا عن الموت والقبر. ظلّ هناك حتى جلبوه في النعش. فهو شهيد، وقد اختار طريقه. لكنه مات.

سبعة كانوا، وثامنهم كان الهمشري. أولهم دخل أحد السجون العربية فور وصوله إلى بلده. قيل لأنه قذف قنبلة يدوية في الشارع على رجال الشرطة. وقيل إنه جاء وأعلن الكفاح المسلّح، وقيلت أشياء كثيرة. لكنه دخل السجن وبقي هناك. تساقطت أسنانه وأصيب بجميع الأمراض الممكنة. وثلاثة قتلوا في باريس.

الأول كان الهمشري. أخذ سمّاعة الهاتف فانفجرت. قيل إنها كانت ردًا على عملية ميونيخ. وقيل إن الصهاينة يستطيعون الانتقام وقيل. لكنه لم يقل شيئًا. كان يعمل ويعمل. وحين مات دفن في مقبرة «بير لاشيز» في باريس. وإلى جانبه دفن الثالث. حيث أطلق عليه الرصاص وهو خارج من المكتبة. فسقط في الشارع وسط الحي اللاتيني وشرب من بركة الدم التي نزفت من جسده. ورابعهم قتل في مكتبة في شارع «هوسمان». خامسهم سحب منه جواز سفره، وهو يعيش الآن باحثًا عن جواز سفر وعن امرأة. وسادسهم وسابعهم وثامنهم و.. لقد مات الكثيرون في الحرب الأهلية، وما زال الفدائيون يتكاثرون. هو كان الرابع. الغرفة الضيقة على سطح إحدى البنايات. العمل، النشاط، الموت. لكن برد باريس كان شديدًا. لم يتعود هذا البرد. معطفه كان قديمًا ومهلهلاً. يركض من المترو إلى الاجتماع ومن الاجتماع إلى الموت. والغرفة الصغيرة الباردة، حيث علق معطفه للمرة الأخيرة، كانت هناك.

قيل إنه اشترى قبرًا قرب الهمشري. وقيل إنه قال إنه يفضل أن يدفن هناك. لكن من يدري. تراب الوطن أفضل قالوا. إنه الآن أكثر قربًا من أرضه. لكنه كان يعلم. رابعهم كان يعلم أنه سيقتل. لم يتوقع القنبلة. كان يعتقد أنه سيقتل بمسدس له كاتم صوت. قال إن الرصاصة لا تؤلم كثيرًا. وماذا يهم. تدخل الرصاصة في الجسد وتتبع حركته. الأفلام البوليسية مزوّرة. الرصاصة لا ترميك، أنت ترميها. تدخل إلى جسدك فينهار الجسد، لا يندفع، وتنهار الرصاصة التي في داخله، لكنهم قذفوه بقنبلة.

كنت أتمنى له أن يستشهد برصاص الصهاينة — قال الأب.

لكن الصهاينة هم الذين قتلوه — أجاب إيليا.

— طبعًا، طبعًا. لكن كان من الأفضل أن يقتل برصاص صهيوني.

— لكن الصهاينة هم الذين قتلوه.

الشهداء لهم الجنة، قال الأب.

الموت حق — قال إيليا.

الموت حق.

روائي لبناني مقيم في بيروت/ لبنان

إيـلان بـابـيـه

قضية كاتس والطنطورة: التأريخ، علم التاريخ، القضاء والأكاديميا

بتاريخ ٢١ كانون ثان / يناير سنة ٢٠٠٠، نشر أمير جيلات، مراسل جريدة «معريف»، في ملحق السبت لجريدته، مقالاً مطولاً حول المذبحة التي ارتكبها أفراد لواء «الكسندروني» في قرية الطنطورة خلال حرب ١٩٤٨. استند المقال إلى أطروحة الماجستير التي أعدها تيدي كاتس، الطالب في قسم تاريخ الشرق الأوسط في جامعة حيفا. في أعقاب نشر القضية ثار جدل وخلاف أكاديمي قضائي وسياسي، لم ينته حتى اليوم.

يحاول هذا المقال فحص قضية الطنطورة في الماضي وقضية الخلاف في الحاضر، كجزء من نقاش عام يربط بين البحث الأكاديمي الخاص بعلم التاريخ وبين الجدل السياسي في أيامنا. سنبحث هاتين القضيتين من خلال نيّة الوقوف على التفسيرات الأكثر اتساعًا التي يمكننا استخلاصها منهما في الوقت الحاضر بما يتعلّق بتاريخ وعلم تاريخ حرب ١٩٤٨ من جهة، وبما يتعلق بمكانة تاريخ وعلم تاريخ هذه الحرب في القضاء والأكاديميا الإسرائيليين من جهة أخرى.

قبل أن نبدأ بطرح القضية بطولها وعرضها، نعرض على القراء القضيتين، القضية المتعلقة بالحاضر والقضية المتعلقة بالماضي. في حين يبدو أن القليلين سيعترضون على تسلسل أحداث القضية في الحاضر، فقد تم سرد القضية المتعلقة بالماضي بأكثر من رواية واحدة منذ الحرب وقد أضيفت إليها روايات أخرى منذ أن ثار الموضوع للنقاش العام. لذلك نرى ضرورة في إجراء استعراض موجز لخمس روايات أساسية للقضية المتعلقة بالماضي: رواية المؤسسة الإسرائيلية الرسمية، رواية المؤرّخين الإسرائيليين الجدد، الرواية الفلسطينية، والرواية التي يقدمها تيدي كاتس في أطروحته. إلى جانب ذلك اخترت أن أعرض رواية خاصة بي لما حدث في الطنطورة وذلك، في الأساس، لأن هذه الرواية تملي عليّ في كثير من الحالات الإطار التحليلي الذي أسوقه في هذا المقال. قليلون جدًا من بين مَن اختاروا

المشاركة بشكل فعّال في النقاش على المستوى العام - الذي دار معظمه في عالم الانترنت - قليلون جداً هم من بلوروا موقفاً يستند إلى قراءة متعمّقة للمواد المتوفّرة والتي يمكن الوصول إليها. فقد اكتفى غالبيتهم بالتأييد الذي ينطلق من منطلقات أيديولوجية أو نزواتية. بلورة موقف من خلال التمعّن في المادة تتيح المجال امام تطرّق أوسع وأكثر شفافية نحو موقف المقاتلين / الجنود، وموقف كاتب الأطروحة ومواقف المشاركين في النقاش العام في القضية الراهنة.

ماذا حدث في الطنطورة: خمس روايات

الرواية التاريخية الرسمية

في كتاب «لواء الكسندروني» (سيناي وريفلين، ١٩٩٢) وُصفت قرية الطنطورة كبلدة عربية هادئة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، على بعد ٣٠ كلم إلى الجنوب من حيفا، لم يكن لها ضلع في «الأعمال العدائية» حتى اندلاع الحرب. بلغ عدد سكان هذه القرية ١٥٠٠ نسمة اعتاش غالبيتهم من العمل في الزراعة والصيد، واعتاش الباقون من العمل في المهن المختلفة في حيفا. ربطت بين سكان القرية والبلدات اليهودية المجاورة علاقات وثيقة. في نوفمبر/ تشرين الثاني من سنة ١٩٤٧ انقطع الاتصال مع المحيط اليهودي، إلا ان سكان القرية لم يشاركوا مشاركة فعّالة في المعارك حتى ابريل/ نيسان ١٩٤٨. لقد تغيّر كل شيء مع احتلال حيفا الذي حصل في نهاية ذلك الشهر ومع إخلاء قيساريا، القرية المجاورة، من سكانها. هاتان الحادثتان زعزعتا امن سكان قرية الطنطورة. إلى السياسة المحلية دخلت عناصر غريبة، لاجئون من قرى أخرى وخمسون مقاتلاً من جيش الإنقاذ العربي، الذين ساهموا في عداء القرية. (ن.م. ص٢٢٠-٢٢١).

في داخل القرية ثار جدل حول السؤال: هل نشارك في المقاومة ضد البلدات اليهودية أم نتوصّل إلى اتفاق استسلام، وبعد جدل صعب تقرر تحويل القرية إلى «قاعدة معادية». نتيجة لذلك قررت قيادة اللواء (ألكسندروني) احتلال القرية وإخلائها من سكانها. بعد انتهاء المعركة بنجاح ألقي القبض على حوالي خمسمئة اسير، أما بقيّة السكان الألف فقد فرّوا قبل ذلك. في المعركة نفسها قتل ما بين عشرين إلى ثلاثين من سكان القرية. (ن.م. ص ٢٢٩).

رواية بيني موريس

الباحث الإسرائيلي الوحيد الذي تناول الطنطورة هو بيني موريس (١٩٨٤، ص ١٦٧–١٦٨)، الذي تناول بإيجاز وقائع تلك المعركة. إلى الرواية الرسمية أضاف انه ليس واضحًا إن كان السكان قد فرّوا من القرية بمحض إرادتهم أم أنهم أُجبروا على هجرها. وهو يتحدث عن عزل الرجال عن النساء والأطفال ويتحدث عن قرار بطرد النساء والأطفال إلى طولكرم من قرية الفريديس التي أحضروا إليها بعد احتلال قريتهم، الطنطورة.

روايات فلسطينية

لأول مرة تُنشر قصة المذبحة التي حصلت في القرية في مذكرات محمد نمر الخطيب (الخطيب، ١٩٥٠، ص١١٦)، أحد وجهاء حيفا. يعتبر الكثيرون من الباحثين كتاب الخطيب مصدرًا موثوقًا، وقد اعتمد عليه بيني موريس (موريس ١٩٨٤، ص١٦٧–١٦٨) عندما اقدم على استرجاع وقائع المعارك في حيفا في ابريل / نيسان ١٩٤٨. تشتمل مذكرات الخطيب على لقاء بينه وبين مروان عقاب اليحيى، ابن الطنطورة، الذي يحدّثه عن المذبحة التي قامت بها قوات يهودية في القرية في الليلة بين ٢٢ و ٢٣ أيار / مايو ١٩٤٨.

طرح المؤرخ وليد الخالدي إمكانية حصول مذبحة في الطنطورة في بداية الستينيات وكرر ذلك في الذكرى الاربعين للنكبة في سنة ١٩٨٨ (الخالدي ١٩٦١ وَ ١٩٨٨)؛ ولكنه لم يذكر هذه المذبحة في بحثه حول النكبة، **All That Remains** (١٩٢٢).

في أوائل التسعينيات ازداد الإهتمام في الصحافة الفلسطينية في إسرائيل بالنكبة. وهكذا عاد موضوع الطنطورة إلى الظهور على جدول الاعمال الفلسطيني. نشر الصحفي محمد حسني نجيب تحقيقًا في جريدة «كل العرب» في سنة ١٩٩١ توصّل فيه إلى الاستنتاج، استنادًا إلى شهادات أبناء القرية ﴿استمد هذا الصحفي غالبية مواد تحقيقه الصحفي من أربعة شهود: عبد الرحمن العرجا دكانش (أبو فهمي)، فوزي طنجي (أبو خالد)، الحاجة أم داوود وزياد حصادية (أبو صالح). ﴾ وقد قدّر بأنّ ١٥٠ شخصًا تقريبًا قد ذُبحوا في الطنطورة، وأنه قد اقترفت مجزرة في الطنطورة. هذا وقد أضاف نجيب تفاصيل أخرى: عُزل الرجال عن النساء، ومن بين الرجال، تم إخراج عدد كبير – حوالي مئة شخص – حسب قائمة معدّة مسبقًا إلى مكان غير معلوم حيث أعدمهم الجنود اليهود بدم بارد رميًا بالرصاص (نجيب ١٩٩١). بعد ذلك بست سنوات نشرت الصحفية الفلسطينية الإسرائيلية رندة أبو عابد، هي الأخرى في جريدة «كل العرب»، تقريرًا حول

الطنطورة وفيه تحدثت عن عزل الرجال عن النساء وإعدام خمسة وتسعين شخصًا منهم. استندت هذه الصحفية هي أيضًا على شهادات عدد من الناجين (أبو عابد، ١٩٩٧).

بعد نشر قضية كاتس في إسرائيل، نشر المؤرخ الفلسطيني مصطفى الوالي شهادات إضافية من أفواه الناجين من الطنطورة الذين يعيشون في مخيم اليرموك للاجئين في سوريا. جميع الشهادات كانت شهادات سماعية وبحسبها بعد عزل الرجال عن النساء تم إعدام حوالي مئة شخص بأيدي القوات اليهودية. (الوالي ٢٠٠٠).

رواية كاتس

اعتقد كاتس انه اقترفت في الطنطورة اعمال شاذة. بناء على ما اتضح من شهادات من نجوا من الطنطورة وشهادات مقاتلين يهود، ففي الليلة بين ٢٢ و٢٣ من أيار / مايو طورد الرجال البالغون بهدف قتلهم حيث وُجدوا، بعد ذلك، في مقبرة القرية (كاتس ١٩٩٨، ص٨٨).

فحص كاتس الرواية الرسمية وبالذات مقارنًا بينها وبين الشهادات الشفهية وبواسطة مصادر أُخرى توفرت له. يتوسّع كاتس في كل ما يتعلق بشبكة العلاقات بين القرية والبلدات اليهودية والتي وضع في مركزها يعقوب إپشتاين، من الشخصيات المهمة في زخرون يعقوب.

بناء على رواية كاتس، ايشتاين هو الشخص الذي اوقف اعمال القتل التي اعقبت المعارك في الطنطورة. لقد قام إپشتاين بدور مهم في محاولته إقناع اهل القرية بالاستسلام دون قتال (لا يوجد اي ذكر للمجزرة، في يوميات ايشتاين، الموجود في الأرشيف المحلي في زخرون يعقوب). يُبدي كاتس ملاحظته بانه لا يمكننا ان نعرف ماذا كان سيكون مصير اهل القرية لو انهم استسلموا دون قتال، لان القرار حول مصير سكان القرى التي استسلمت أو تم إخضاعها، كان في يد القائد المحلي.

لقد جدّد كاتس باستعماله شهادات يهودية، أيّدت أجزاء من التقارير التي نشرت في الصحافة الفلسطينية. تدعم الشهادات اليهودية عزل الرجال عن النساء واقتراف أعمال قتل شاذة في القرية. مع ان غالبية الشهود اليهود، باستثناء عدد قليل منهم، يتحدثون عن قتل حوالي مئة من سكان القرية من خلال ثورة غضب المقاتلين في القرية نفسها، ولا يتحدثون عن قتل مبرمج ومنهجي. لقد حدثت ثورة الغضب هذه بسبب إطلاق النار على جنود اللواء بعد ان استسلمت القرية ظاهريًا، وفي اعقاب مقتل القائد إيهود. شهود كاتس الفلسطينيون، كما يظهرون في الفصل الرابع من الأطروحة، يتحدثون جميعًا عن

قتل منهجي لحوالي مئة رجل على ساحل البحر. وهم يشيرون إلى شمشون موشقيتس، رجل مصلحة الاستخبارات، ابن چقعات عاده، على انه هو المسؤول عن عمليات الإعدام. ويشيرون كما سبق وقلنا إلى يعقوب إپشتاين كمن حال دون استمرار أعمال القتل، وبذلك انقذ الكثيرين من أبناء القرية (كاتس ١٩٨٨, ١٠٧–١١١؛ ١٥٠–١٥٧).

كما اضاف كاتس شهادات أهل زخرون يعقوب الذين قاموا بدفن جثث السكان الذين قتلهم المقاتلون. تذكّر المسؤول عن الذين قاموا بعملية الدفن بانه دفن حوالي مئتين وخمسين جثة في قبر جماعي. عملية جمع الجثث والقائها في القبر الجماعي انطبع أيضاً في ذاكرة اللاجئين الفلسطينيين الذين قابلهم كاتس (كاتس ١٩٨٨, ١٤٦). شاهدان يهوديان تراجعا عن شهادتيهما. شلومو امبر في تصريحه للمحكمة ودان ڤينكين الذي نوى تقديم تصريح ينكر فيه ما نسب إليه من أقوال، لو ان المحاكمة استمرت. الشهود الذين شهدوا على عملية الدفن لم يتراجعوا إلا ان المحاكمة لم تستمر ولا نعلم ماذا كانوا سيعملون لو أنهم وصلوا إلى منصة الشهود.

رواية الكاتب

استعمل كاتس الشهادات الكثيرة التي جمعها بشكل جزئي فقط، ستين ساعة تسجيل ولم يكن قد حصل على جميع الشهادات العسكرية التي يمكن الوصول إليها اليوم. كذلك لم يكن على علم بشهادة تمر الخطيب او بالشهادات التي جمعها الوالي. الاستماع الكامل إلى جميع التسجيلات (الأشرطة) وإعادة تسجيلها، كذلك تحليل مواد الأرشيف الإضافية، تمكننا، حسب رأيي المتواضع، من اتخاذ موقف حاسم أكثر حتى من ذلك الموقف الذي يفهم من أطروحة كاتس، وشبيه بذلك الموقف الذي يتخذه في هذه الأيام في النقاش العام (رقيب المطبوعات، إعلان كاتس، ٢٠ ديسمبر/ كانون اول ٢٠٠١).

يستند الموقف المتّخذ هنا على موقف تاريخي علمي، يمنح وزناً متساوياً للشهادات الشفهية والمستندات الأرشيف السياسي أو العسكري كتفسيرات متحيّزة لواقع معطى، ويؤيد تكوين مدى من التفسيرات الواسعة للمؤرخ عندما يقدم على استخلاص دلالة من داخل وثيقة مكتوبة، ويمنح مكانة هرمية مفضّلة للشهادات المتقاطعة اليهودية والعربية حول حدث او شهادة افراد قليلين. على خلفية هذا الموقف من الممكن، حسب رأيي، أن نحدّد كجزء من المناقشة العلمية التاريخية لحرب ١٩٤٨ – على الرغم من كل انعكاسات هذا التحديد السياسية والأخلاقية والايديولوجية – انه اقترفت في الطنطورة مجزرة من أبشع المجازر في حرب ١٩٤٨. لقد تم تنفيذ المجزرة على مرحلتين: الأولى – بهجوم جنوني

داخل القرية، والثانية بإعدام منهجي لشبان ورجال القرية على شاطئ البحر. رافقت هذه الأعمال حوادث اليمة تمثّلت في عزل الأطفال عن آبائهم، قتل الآباء أمام ناظري أبنائهم، معاملة فظّة مع نساء القرية وربما حالة اغتصاب واحدة ونهب عام للحلي والمجوهرات. لا يمكننا حسب المواد المتوفرة تحديد العدد الدقيق للقتلى، إلا انه يمكننا ان نقدّر بانه يتراوح ما بين مئتين ومئتين وخمسين رجلاً تم ذبحهم بهذه الطريقة أو تلك.

شهود يهود يصفون بشكل واضح الهجوم الجنوني داخل القرية بعيد انتهاء المعركة. بعد شهر من نشر القضية في جريدة «معريف» وافق شاهدان يهوديان إضافيان على تقديم تقرير عن المجزرة وليس فقط عن الهجوم الجنوني. إيلي شمعوني الذي كان مسؤولاً عن التجنيد للواء «الكسندروني»، والذي يبلغ من العمر ٧١ عامًا، وافق، في يوم الإدلاء بالشهادة، على الظهور في مقابلة مع أمير جيلات، قد نطق بما يلي: «لا شك لدي بانه كانت مجزرة في الطنطورة. لم أمشِ في الشارع أصرخ معلنًا ذلك. لان ذلك ليس مفخرة كبيرة. ولكن في اللحظة التي نُشر فيها الموضوع لا بدّ من أن نقول الحقيقة. بعد اثنين وخمسين عامًا تمتلك دولة إسرائيل ما يكفي من البلوغ والقوة لمواجهة ماضيها» (٤ فبراير / شباط ٢٠٠١). يشهد شمعوني بانه سمع عن المجزرة ولم يشاهدها بأم عينه، من ثلاثة أشخاص يرفضون حاليًا أن يعيدوا شهاداتهم. بناء على هذه الشهادة «قادوهم (أي الأسرى) جانبًا في مجموعات إلى مسافة ٢٠٠ متر تقريبًا وهناك أطلقوا عليهم الرصاص. جاء إلى هناك شخص ما وقال ابن عمي قُتل في المعركة. سمع ذلك قائده فأمر بأخذ مجموعة من ٥–٧ رجال. أخذوهم جانبًا وأعدموهم رميًا بالرصاص. بعد ذلك جاء شخص آخر وقال بأن أخاه قتل في إحدى المعارك. مقابل الأخ يُعطون أكثر، لذلك، عندها أمر القائد بأخذ مجموعة أكبر وأطلقوا عليها الرصاص أيضًا وعلى هذا النحو استمرت العملية». (ن.م).

شاؤول دجان، مؤرخ زخرون يعقوب، حدّث جيلات أيضًا بأنه قبل خمسة عشر عامًا حدّثه يعقوب إيشتاين وتسفي تسوكرمن، اللذين ليسا بين الأحياء اليوم، بأن رجال «الكسندروني» اقترفوا مجزرة في الطنطورة وبسبب ذلك لم يسمحوا لهما بالدخول إلى القرية.

أخبر عن عمليات القتل هذه شهود عيان فلسطينيون كثيرون وعدد قليل من الشهود اليهود. أكرر، اثنان فقط من الشهود اليهود تراجعا عن شهادتيهما بواسطة تصريح للمحكمة، طوفيا ليشنسكي الذي وصف الهجوم الجنوني والذي توفي في هذه الأثناء، أما كوهين وجراف وسولنيك فلم يحن وقتهم للإدلاء بشهاداتهم. لا توجد أية علاقة بين هذا التراجع وبين النتائج التي توصل إليها الادعاء أو اللجنة. النتائج الصعبة، أي عدم

التلاؤم الكامل بين ما قيل وبين ما كُتب في الأطروحة، تتطرق إلى شهادات شهود فلسطينيين لا يهود. بما يتعلق بعدد من الشهادات اليهودية، ادّعت لجنة الجامعة، وليس الادعاء، بأن كاتس تمادى كثيرًا في تفسير ما قيل له.

الأوصاف التي تحتوي على عزل الآباء عن أبنائهم والمعاملة الفظّة لنساء القرية كلها أوصاف فلسطينية، مع أن إعدام امرأتين داخل القرية شهد به شهود يهود وعرب معًا.

الوثائق من أرشيف «الهچناه» وأرشيف الجيش تشير إلى اهتمام مكتب رئيس الأركان العامة بأعمال شاذة في الطنطورة، تم تنفيذها بعيد انتهاء المعارك، كما تشير إلى رد قادة المكان بأن الأمر لا يعدو كونه «نشوة الانتصار»، وتشير إلى إشاعات وصلت إلى هيئة الأمم المتحدة حول مثل هذه الأعمال وإلى الإنشغال بقبور جماعية بسبب التخوّف من انتشار الأوبئة والأمراض في القرية بعد الاحتلال. وهكذا كتب قائد اللواء إلى قائد منطقة نفتالي في ٣١ أيار/ مايو ١٩٤٨، أي بعد ثمانية أيام من انتهاء المعارك التي، وكأنه، قتل فيها عشرون عربيًا فقط. «اهتم بأن يدفنوا جثث العرب التي في الطنطورة لتحول دون انتشار الأوبئة. لا يُعقل ألا تنفّذ ما يُلقى عليك. هذه المرة المقصود هو تخطيط الطنطورة. كان عليك أن تنتهي من القيام بذلك» (كذا في المصدر). والجواب الذي جاء بعد ذلك بيومين هو: «ردًا على كتابك بما يتعلق بدفن العرب في الطنطورة. علىَّ أن أشير إلى أننا دفنّا جميع القتلى الذين كانوا في الطنطورة، ولكن، للأسف، تموت هناك يوميًا الأبقار والخيول». بعد ذلك بتسعة أيام يتسلم قائد المنطقة التقرير التالي: «فحصت، أمس، القبر الجماعي في مقبرة الطنطورة ووجدت كل شيء على ما يرام». (أرشيف الجيش الإسرائيلي، ملف أ/١٨، ملف مرسل ٤٩ / ٦٣٨ ٤).

تفسيرات واسعة

التاريخ العلمي للحرب

ليس من قبيل الصدفة أن أورد كاتس الأعمال الشاذة في الطنطورة كما اتضحت من شهادات من قابلهم في الفصل الرابع من أطروحته ولم يوردها كأطروحة قائمة بذاتها. حتى وإن لم يحسن كاتس وصف ذلك فإنه يتطرق إلى الأعمال الشاذة، التي سمّاها في فبراير/ شباط ٢٠٠٠ في المقال الثاني في «معريف» بـ المجزرة»، على أنها جزء من نقاش شامل أكثر بما حدث، حسب رأيه، في السفوح الجنوبية لجبل الكرمل. المضايقات، الإحتلال، الطرد وأعمال القتل كانت جزءًا من ذلك العمل الذي تكرّر وعاد وتكرّر في القرى الخمس الواقعة

على سفح الجبل خلال الأشهر الثلاثة التي بين مايو / أيار ويوليو / تموز ١٩٤٨. ما حدث هناك كان جزءًا من شبكة عامة أكثر لأعمال عسكرية يهودية ضد السكان الفلسطينيين المدنيين في ٦٤ قرية كانت تقع بين تل أبيب وحيفا (قريتان فقط منها بقيتا قائمتين بعد انتهاء المعارك). كان هذا أيضًا مصير عشرات القرى الأخرى في الجليل، ومنطقة القدس والنقب الشمالي. في جميع هذه الأماكن لم تدر معارك بين قوات عسكرية نظامية بل أعمال عسكرية لقوات يهودية مقاتلة داخل مناطق سكنية قروية، حصلت في مناطق معيّنة فقط على إمدادات ذات قيمة من المتطوعين من البلاد العربية المجاورة أو من الجيوش النظامية العربية التي دخلت فلسطين في ١٥ أيار ١٩٤٨. في منطقة السهل الساحلي وكذلك في غالبية قرى الجليل، وقف السكان المدنيون العرب في الغالب وحدهم في مواجهة القوات اليهودية المقاتلة. في هذه المواجهة بين القوات المقاتلة من الشباب اليهود بعضهم فتيان أبناء ١٦ و ١٧ عامًا وبين السكان المدنيين العرب، تجلّت ظواهر إنسانية إلى جانب ظواهر وحشية، كما يتّضح من الفصول الأخرى من أطروحة كاتس وكذلك من الأشرطة الكثيرة التي حضّرها.

هذه النظرة في أطروحة كاتس على القرى: أم الزينات، الطنطورة، جبع، إجزم، عين غزال، توفّر بداية إطار تحليلي جديد لفهم فصول معيّنة في حرب ١٩٤٨ وفصول رئيسية في النكبة الفلسطينية. في هذا الإطار الجديد لا يوجد مكان للمصطلحات المألوفة في وصف العمليات العسكرية أو الحربية، عندما نقدم على وصف تسلسل الأحداث في السهل الساحلي أو في قضاء عكا (الذي هو الجليل الغربي في لغة الحديث الصهيوني). في هاتين المنطقتين، الأولى المساحة التي خُصّصت للدولة اليهودية وفق القرار ١٨١ الصادر عن هيئة الأمم المتحدة والثانية القسم الذي احتُل وضُمّ من الدولة العربية العتيدة وفق القرار المذكور نفسه، في هاتين المنطقتين كانت تقع غالبية القرى الفلسطينية التي دُمّرت وعلى أنقاضها أقيمت بلدات يهودية جديدة في السنوات الأولى لقيام الدولة. في المصادر المهنية التاريخية التي كُتبت حتى أيامنا، اعتُبرت العمليات العسكرية التي حدثت في البلاد منذ الخامس عشر من أيار ١٩٤٨ جزءًا من حرب شاملة بين جيشين. هذه هي الفرضية التاريخية من الناحية النظرية. المهارة الضرورية لاسترجاع الماضي هي مهارة المؤرخ العسكري. مهارة يتم التأكيد بواسطتها على الاستراتيجية والتكتيك العسكري لكل من الطرفين على أنهما العاملين الأكثر أهميةً في تفسير ما يحدث من وقائع واللذين يحددان التطرق الأخلاقي لما نُفّذ من أعمال. على سبيل المثال إصابة قرية خلال معركة تدور بين قوتين متحاربتين تعتبر جزءًا لا يتجزّأ من ساحة المعركة وتُصوَّر كعمل ضروري في المحاولة لحسم الصراع بواسطة

الحرب بين معسكرين (دولتين، أو حركتين قوميتين، أو منظمتين) . في الحرب تحدث مذابح وأعمال قتل شاذة لا علاقة لها بالتطورات في ساحة المعركة والتي لا تُشرعن (تحصل على الشرعية) أخلاقيًا في الكتابة التاريخية العسكرية .

كذلك أقترح التمعّن في الأحداث التي وقعت بعد أيار ١٩٤٨ في إسرائيل / فلسطين من منطلق نموذج التطهير العرقي . من الناحية التاريخية العلمية يتمّ الحديث هنا عن أعمال تتعلق بالسياسة الداخلية للنظام تجاه المواطنين . لا توجد هنا ساحة معركة بل عمل عنيف من قبل نظام جديد داخل مراكز سكانية مدنية . الأيديولوجية العرقية والاستراتيجية الاستيطانية والسكانية هي التي وجّهت هنا، وليس الاستراتيجية أو التكتيك العسكريين . المجازر إن كانت مخططة أو لا فهي جزء لا يتجزأ، وغير شاذ، من عمليات التطهير العرقي، الذي يتم بشكل عام وبنجاح كبير بواسطة الطرد والتهجير « فقط » .

الشهادات في أرشيف النظام الذي ينفّذ التطهير العرقي لا تتيح الفرصة لظهور صورة واضحة لأن هدف النظام منذ البداية الضبابية إن كان ذلك في الأوامر أو في الطريقة التي توثّق بها عملية التطهير . من هنا جاءت الأهمية الكبيرة لاستعمال شهادات الضحايا أو الأشخاص في الحقل الذين نفّذوا عملية التطهير العرقي . عملية الاسترجاع تتم في الأساس بواسطة الربط بين الذاكرة الجماعية والشخصية للضحية والجاني .

في إطار تحليلي جديد الاصطلاح الأكثر ملاءمةً هو التطهير العرقي . في صلب مبدأ التطهير العرقي تقف عمليات الطرد والتشريد لا عمل المجازر . كما أخبر تيم جودة، ربما المتمعن الأكثر مداومة وتجربةً في حروب البلقان الأخيرة . داخل عمليات التطهير كانت هناك عمليات قتل هنا وهناك أثارتها في الغالب مشاعر الانتقام أكثر من كونها برنامجًا واضحًا ومخططًا سلفًا . إلا أن برنامج التطهير العرقي استعان بالقتل ليس أقل من استعانته بالطرد والتشريد المنظّم لفرض حقائق عرقية جديدة (جودة، ٢٠٠٠) .

عند فحصها وفق التعريفات الأكثر شعبية وحتى الأكثر أكاديميةً فإنّ أحداث الطنطورة تبرز كنموذج كلاسيكي في داخل واقع التطهير العرقي . تعرّف موسوعة هتشينسون العائلية التطهير العرقي على أنه الطرد بالقوة من أجل خلق تجانس في منطقة مختلطة أصلاً . هدف الطرد هو التوصّل إلى هجر المنازل بكل وسيلة ممكنة بما فيها وسائل غير عنيفة مثلما حدث عند إخلاء المسلمين من كرواتيا بعد اتفاق درايتون في عام ١٩٩٦ (هتشينسون ٢٠٠٠) . وزارة الخارجية الأمريكية تتمسّك بتعريفات مشابهة وتضيف أن ملخص التطهير العرقي، في رأيها، هو محو تاريخ مكان معيّن بواسطة تفريغه من سكانه الأوائل بكل الوسائل، وفي جوّ يهيئ لعمليات انتقام ومجازر تكون نتيجتها في الغالب نشوء

قضية لاجئين جديدة. الحالة التي فحصها تقرير وزارة الخارجية بتعمق في مايو / أيار ١٩٩٩ كانت حالة مدينة بيك، الواقعة في غرب كوسوفو، والتي فُرّغت من سكانها خلال ٢٤ ساعة. المنهجية هي في التخطيط للطرد والتهجير لا في ارتكاب المجازر ضد الكوسوفيين. أنواع مختلفة من أعمال القتل هي نتيجة لا مفر منها لمثل هذه العمليات (وزارة الخارجية، ١٩٩٩). تعريفات مشابهة أعطتها الأمم المتحدة في التقرير الذي كتبه أعضاء مجلسها لحقوق الإنسان في عام ١٩٩٣. يربط التقرير بين الرغبة في فرض السيطرة العرقية على منطقة مختلطة تكوين صربيا الكبرى - بالذات بواسطة الطرد ووسائل عنيفة أخرى. يصف التقرير عمليات التطهير العرقي على أنها تشتمل على فصل النساء عن الرجال، واعتقال الرجال البالغين، تفجير المنازل وتوطين سكان آخرين في وقت لاحق. في أماكن معيّنة في كوسوفو أبدت ميليشيات مسلمة محلية مقاومة. في الأماكن التي حدثت فيها مقاومة أو معركة عنيفة انتهى الطرد بمجزرة أيضًا (تقرير هيئة الأمم المتحدة، ١٩٩٣، وبشكل خاص الملاحظات ٢١١-٢١٦). جميع الشهود اليهود الذي تحدثوا عن مجزرة ربطوا ذلك بحقيقة كونهم اصطدموا بمقاومة محلية.

الدراسة الأكاديمية الأكثر شمولاً حول تعريفات التطهير العرقي قام بها دراجن پتروڤيتش. وهو يربط بين القومية، قيام أمم جديدة والنضال القومي وبين عمليات التطهير العرقي. يلقي رجال السياسة مهمة التطهير على رجال الجيش بدون منهجية وتوجيهات دقيقة في حين أن الهدف واضح (پتروڤيتش، ١٩٩٤). يلفت پتروڤيتش وآخرون انتباهنا إلى الفرق بين المجازر التي هي جزء من الجنوسايد (الإبادة الجماعية) حيث تكون المجازر مخططة سلفًا، وبين المجازر التي هي نتيجة الكراهية ومشاعر النقمة على خلفية أمر عام بالتطهير العرقي (نايمرك، ٢٠٠٠). في حالة فلسطين فقد حدث التطهير العرقي بموجب السيناريو الذي تمّ توقعه في الخطة «دال» من يوم ١٠ آذار ١٩٤٨، والذي بموجبه يجب تنظيف الأراضي التي خصصتها الوكالة اليهودية للدولة اليهودية من السكان المحليين - الأراضي التي خصصتها هيئة الأمم المتحدة في قرارها رقم ١٨١ ومساحات أخرى إضافية تم تحديدها وفق اعتبارات استراتيجية.

لم يتناول كاتس، للأسف، هذا الموضوع بشكل مركّز، إلا أن التسجيلات التي تركها وراءه وخاصة شهادات الضباط اليهود توفّر لنا مادة مثيرة حول الطريقة التي نُفذت بها «الخطة دال» بعدما نُقلت إلى لواء «الكسندروني»، ومنها إلى «الكتيبة ٣٣» التي دخلت إلى الطنطورة. بشكل عام التطهير العرقي لفلسطين بكاملها ولمنطقة الساحل بين الخضيرة وحيفا بشكل خاص تم تنفيذه بدون أوامر واضحة من فوق، كما شهد بذلك قائد الكتيبة

التي احتلت الطنطورة. بناء على هذه الأوامر كان للقائد الذي يحتلّ قرية معيّنة كامل الحرية لاتخاذ القرار حول مصير هذه القرية وسكانها، بغضّ النظر إن كانوا استسلموا أم أخذوا أسرى.

« الخطة دال » ما زالت تسمّى في المراجع المهنية خطة عسكرية. في المدة الأخيرة فقط بحثها باروخ كيمرلينج وسمّاها مبدأ (دوكترينا) عسكريًا كان تنفيذه كخطة بواسطة أمر نُقل إلى جميع وحدات الجيش في ١٤ مايو / أيار ١٩٤٨ « الإنتقال إلى حالة دال » (كيمرلينج ص ٢٧٣ : ٢٠٠١).

كانت هذه الخطة عسكرية، او كانت مبدأً عسكريًا فقط تجاه الوحدات العسكرية النظامية التي دخلت من مصر والأردن وسوريا ولبنان. كما كانت خطة سياسية للاستيلاء على مؤسسات الإنتداب سابقًا. ولكنها بالنسبة للسكان الفلسطينيين داخل الأراضي التي تحوّلت إلى دولة إسرائيل كانت توجيهًا غير عادي للقيام بعمليات التطهير العرقي. عندما أعلن قائد الأركان العامة عن « حالة دال » عن البدء بالقيام بأعمال التطهير العرقي في السهل الساحلي والجليل وفي داخل مئات البلدات الفلسطينية. وحقًا كما يكتب كيمرلينج « وبالإضافة إلى ذلك فقد عكس المبدأ بشكل واضح الطموح الأيديولوجي الصهيوني الحلي الذي تمثّل في تحقيق امتداد يهودي خالٍ من الوجود العربي إلى أكبر حد ممكن كشرط لإقامة دولة قومية يهودية انتقائية » (كيمرلينج، المصدر نفسه، ص ٢٧٤).

الطريقة التي عمل بها لواء « الكسندروني » عند احتلاله قرية ما والتي عمل بها عندما احتل وشرّد أهالي الخيرية وكفار سابا العربية وقيساريا والساقية وأم الزينات وفي فترة متأخرة عين غزال (عين ايالا حاليًا)، وإجزم (كفار مهرال) وجبع (جبقع كرمل) – هي القيام بتشريد أهالي القرية في الوقت الذي استعر فيه أوار المعركة. لم يتمّ تطويق القرية بالكامل وهذا عن وعي وتخطيط مسبق حيث ترك أحد الاجنحة مفتوحًا. اما في الطنطورة فبسبب خلل في التنسيق وقت المعركة فقد تم تطويق القرية بالكامل؛ وقد أغلقت سفن الوحدات البحرية طريق الهرب من جهة البحر، في حين أغلقت وحدات « الكسندروني » بقيّة الأجنحة على اليابسة ولم يتركوا للسكان اي فتحة للهرب. إن تركيز عدد كبير من السكان في أيدي المحتل – كما سبق وقلنا فإننا نتحدث عن ١٥٠٠ نسمة – ربما خلق تخوّفًا نجمت عنه « ثورة الغضب »، بينما تركيز ما بين مئتين وثلاثمئة من الأسرى على الشاطئ أثار الفزع الذي تسبّب في المجزرة على الشاطئ. ما يظهر من البرقية التي أُرسلت إلى قائد الكتيبة والتي أوردت مقتبسةً في كتاب لواء « الكسندروني » (ن.م. ٢٢٩) : « أنا خائف من العدد الكبير من الأسرى ». ويتحدث قائد الكتيبة في الكتاب أنه قال في رده : « أمرته

بأن يضع عدداً من المدافع على البيوت المحيطة وأن يبعد جنوده عن الأسرى لئلا يحاول هؤلاء الهجوم عليهم». من شهادات الأشخاص الذين نفذوا المجزرة، يتضح أن عدداً منهم نظروا إليها كعمل إيجابي لجهاز المخابرات لكي يمنعوا الشباب من أن يصبحوا جنوداً والآخرين من الانتقامات الشخصية.

لهذا الإطار المفهومي الجديد الذي يميّز بين القيام بمجزرة والقيام بعملية تطهير عرقي ولكنه يشير في الوقت نفسه إلى العلاقة المتبادلة بينهما – توجد انعكاسات سياسية بعيدة الأثر ولذلك يمكننا أن نخمّن أنها ستثير في المستقبل معارضة واسعة. كما قيل، وعن دون قصد، ساهم كاتس في إثارة القضية لأنه أراد توسيع البحث التاريخي العلمي لحرب ١٩٤٨إلى ما وراء خطوط الخريطة الهيكلية التي رسمها الجدال بين «المؤرخين الجدد» و«القدامى» (بابيه، ١٩٩٣ و ١٩٩٨). هذا الجدل الذي أساسه الاشتغال بتاريخ الحرب بمستوى الماكرو وتجاهل الانعكاسات والتعقيدات التي يطرحها البحث التاريخي لأحداث سنة ١٩٤٨ بمستوى الميكرو. كان البحث حتى الآن في أساسه بمستوى الماكرو وذلك لأن مواد الأرشيف التي ثار الجدل حول تفسيرها ومعالجتها بين التاريخ الجديد والقديم في إسرائيل، لم تمكّن من الوصف العريض لأحداث محلية. من أجل ذلك كانت هناك حاجة إلى استعمال التوثيق الشفهي والمقابلات وحتى إلى توجه آخر وشامل أكثر بالنسبة إلى الأشكال التحليلية التاريخية العلمية والى طريقة عمل المؤرخ.

وقد تأمّل كاتس أن يسير خارج الطريق الذي رسمه بيني موريس الذي فتح في كتابه «ميلاد قضية اللاجئين الفلسطينيين»، (١٩٤٧–١٩٤٩ موريس، ١٩٨٤) نافذة لنظرة إسرائيلية جديدة على ما حدث في حرب ١٩٤٨ بحيث عدد واحدة واحدة القرى والأحياء التي احتلتها القوات اليهودية ووصف بإيجاز (في جملة أو جملتين في معظم الحالات) ما حدث في كل واحد من هذه الأماكن. كاتس أراد أن يفحص بشكل مفصّل ما الذي حدث في أحد المقاطع التي ورد ذكرها عند موريس.

استطاع كاتس أن يتحرك وراء خطوط الخريطة الهيكلية وبالذات لأن بحثه اشتمل على مركبات كثيرة من الربط: الربط بين شهادات يهودية وفلسطينية عن النكبة، وبين استنتاجات التاريخ الجديد الإسرائيلي والتاريخ الفلسطيني وبين وثائق فلسطينية وإسرائيلية. البحث الذي يستند على مثل هذا البحث هو المحور الرئيسي الذي يمكن بل يجب أن يُبنى بناء عليه جدول العمل في البحث المستقبلي.

استند بحثه على شرائح قديمة أكثر من الربط التاريخي العلمي بين الإسرائيليين والفلسطينيين. يحتاج مثل هذا الربط إلى عدة شروط مسبقة لكي ينضج وينجح. فهو

يستطيع أن يقوم فقط في جو من المصالحة السياسية التي تنتج رؤية تاريخية ناقدة في الطرف القوي في معادلة النزاع، وهو ينضج فقط في جو تاريخي متعدد الاصوات ولو في أدنى حد من الإعتدال. وهذا حقًا ما كان: عملية المصالحة التي بدأت في الثمانينيات أنتجت تاريخًا إسرائيليًا جديدًا أدخل جهود المصالحة السياسية إلى البحث حول الماضي أيضًا، من خلال النيّة لبحث وفهم ما حدث فيه. كتب هؤلاء المؤرخون الذين دُعوا بـ«المؤرخين الجدد» تاريخ حرب ١٩٤٨ من خلال تبني فصول رئيسية من القصة (الترتيف) الفلسطينية حول النكبة. بشكل موازٍ، وليس دائمًا بعلاقة مباشرة بالنقاش حول الماضي، تعرّضت الاكاديميا الإسرائيلية إلى توجهات (نظريات) كثيرة في البحث التاريخي والذاكرة الجماعية. سياقات أيديولوجية وسياسية لإنتاج معلومات عن الماضي فُهمت على أنها جزء من الواقع، والتي وإن كانت هناك حاجة إلى الحذر منها، لا يمكن الكتابة بشكل منفصل عنها. كجزء من المفاهيم الجديدة هذه، فإن الصلة بين النفوذ والمعلومات وبين القوة والكتاب والقصة نفسها تمثّلت، فيما تمثلت فيه، في مقالات كثيرة في دورية «نظرية ونقد» (أنظر رابينوفيتش ١٩٩٣: ٦٥-٧٨ وراز-كركوتسكين ١٩٩٣، ٢٣-٥٦).

لقد تعاظم الوعي للصلة بين النفوذ والمعلومات عندما تغيّرت مكانة الاكاديميا الإسرائيلية التي تبحث في النزاع في مراكز الأبحاث العلمية في العالم. لعدة أسباب متنوعة، والتي ليس المكان مناسبًا لتفصيلها هنا، حظي البحث الأكاديمي الفلسطيني منذ أواخر الثمانينيات بشرعية أكثر في حين أن البحث الإسرائيلي الصهيوني كان مشبوهًا بالدعاية أكثر مما كان في الماضي (أنظر بابيه ١٩٩٩، ١-٨) منذ الانتفاضة الأولى قامت عملية شرعنة/ إضفاء للشرعية على بحث القصة (الترتيف) الفلسطينية بموازاة سحب الشرعية عن القصة (الترتيف) الصهيونية.

تُرجمت شرعنة القصة الفلسطينية إلى اهتمام دراسي في الصغير، والخاسر، والضحية. من الناحية المنهجية مجمعات الشهادات لمثل هذه المجموعات في التاريخ البشري (نساء، افارقة - امريكان شعوب بدون تاريخ، عمال وآخرون) هي ذكريات موثّقة في الحاضر بواسطة أصحاب الشأن أنفسهم وليس كما كان بشكل مطلق بواسطة أعضاء من مجموعة القوة والسيطرة. يمكننا بالطبع استخلاص دلالات جديدة من شهادات، مؤلفوها هم من المجموعة القوية ولكن هذا وحده غير كافٍ.

تأمُّل النزاع بشكل عام والنكبة بشكل خاص من وجهة نظر الضحية، المهزوم، يمكن أن يتمّ في الأساس بواسطة استخدام ذكريات اللاجئين من عام ١٩٤٨. تشير الاستخدامات

التي استعملها نافذ نزال وسوزان سليومفيتش إلى مدى اختلاف الصورة التاريخية التي تظهر من هذه الزاوية (نزال ١٩٧٤ وَ سليومفيتش ١٩٩٨) . سار كاتس في هذه الطريق وسوية مع الآخرين (كناعنة واشتية ١٩٨٧، كتاب ١٩٨٧ والمدور ١٩٩٤) ساهم في وضع إطار تحليلي جديد للنكبة غير موجود في الابحاث التاريخية الإسرائيلية، القديمة والجديدة، والتي قدّمت جميعًا ابحاثًا قصصية (نرتيفية) بدون إطار تحليلي . (لورخ ١٩٨٩ وأورن ١٩٧٦ من القدامى وموريس ن.م. وپاپيه من الجدد) .

التاريخ الشفهي مهم بشكل خاص لجسر الفجوات التي تتكون عندما تعتمد عملية الإعادة على شهادات مكتوبة فقط، أو عندما لا يوجد غيرها في حالة انعدام الشهادات المكتوبة . الوثائق التاريخية، في نهاية المطاف، تمنحنا هياكل « نحيلة » لقصص الماضي ولا يمكن ان نستخلص منها وصفًا « واسعًا » للاحداث كما انه لا يمكننا دائمًا من خلالها تأمّل الدوافع التي تقف وراء القرارات والإمكانيات التي رفضت والعمليات التي لم تقدَّم عنها التقارير .

التاريخ الشفهي الذي يدور حول سنة ١٩٤٨ هو أيضًا المخرج الوحيد لمواجهة أعمال بشرية في عصر التلفون – وحتى وإن تنصتت مصلحة الإستخبارات لمكالمات القيادة الفلسطينية في سنة ١٩٤٨ – فلم يفتيَش منها او على الاقل لم تترك شهادات مدوّنة، من محادثات القادة والسياسيين اليهود من تلك الفترة . المقابلات مع من كانوا، تتحوّل إلى مادة خام مهمة وذلك ايضًا لأننا نتناول قطعة أرض صغيرة بما يكفي لتمكين حصول لقاءات غير موثّقة وجهًا لوجه خلال وقت قصير وبصورة متكررة جدًا . لكي نسترجع اتخاذ قرارات محلية بواسطة وصف كامل وغير هزيل مع كل إشكالية الذاكرة الإنسانية وأوهامها فإننا نحتاج إلى التاريخ الشفهي، ما دام من الممكن جمعها .

يتضح لنا إلى اي مدى يمكن لشهادة شفهية ان تكون كاملة وموثوقة أكثر من شهادة ارشيف وذلك من مقارنة بسيطة بين تعامل نتيڤا بن يهودا مع المجزرة التي نفذها البلماح في عين الزيتون وبين التقرير في كتاب بيني موريس، « ميلاد قضية اللاجئين الفلسطينيين »، الذي يستند بتزمّت ديني على تقارير الجيش الإسرائيلي . تقارير تخفي بطبيعتها أكثر مما تكشف – فلا عجب ان يكون التطرق فيها إلى عدد المذبوحين / الضحايا وليس إلى ظروف القتل ومصداقيته . من الجدير بالتنويه إلى ان بن يهودا لم تُعطِ « شهادة » . في المقدمة لكتابها تكتب قائلة بانها يقظة إلى كونها تحطّم أساطير (المقدمة) ولكنها من الجهة الأخرى تتستر من وراء القول بأنها تكتب أدبًا وأن اي تشابه بينه وبين الواقع فهو محض صدفة . وعلى كل حال، هكذا تقول بن يهودا :

«لكن يهونتان استمر يصرخ، وفجأة دار بظهره تجاه ميركا وغادر المكان وهو يغلي، وطوال الوقت يواصل ادعاءاته: لقد فقد صوابه! مئات الأشخاص ملقون هناك مقيدين! إذهب واقتلهم! إذهب وصفّ مئات الأشخاص! مجنون يقتل أشخاصًا مقيّدين، ومجنون يضيّع عليهم جميع الذخيرة! على أشخاص مقيّدين!». وفي الصفحة التالية: «أنا لم أدرِ من المقصودون، من سياقي وينظر، ولكنني فهمت أن الأمر أصبح أمرًا مستعجلاً، تحوّل إلى ضرورة مستعجلة وفورية: حل القيود من أيدي وأرجل هؤلاء الأسرى، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك! عندها سألت ميركا: «لماذا، ما المشكلة؟» وعندها اتضح لي أنهم جميعًا كانوا قد قتلوا! «حلّت القضية» (بن يهودا ١٩٨٥، ص٢٤٥–٢٤٦).

بينما يسجّل بيني موريس بشكل جاف: «حوالي ٣٧ شابًا من بين الشبان الذين قُبض عليهم في القرية قد أوقفوا. يبدو أنهم شُملوا ضمن مجموعة الأسرى العرب، الذين بلغ عددهم حوالي ٧٠ شخصًا، وذُبحوا وأياديهم مقيّدة» (١٩٨٤، ص١٤٤).

في الآونة الأخيرة كتب المؤرخ عومر بارطوف بشكل مثير جدًا حول قيمة التاريخ الشفهي. لقد تطرّق إلى استخدامه في استعادة أحداث من الكارثة. وحتى وإن كان من غير الممكن، بالطبع، المقارنة بين الكارثة والنكبة، فإن فقرة من مقاله تساهم جيدًا في فهم التاريخ الشفهي كوسيلة شرعية لاستعادة صدمات الماضي:

«ذكرى الصدمة ليست ملتبسة فحسب وغير مستقرة، غنيّة بالمتناقضات، وغير موثوقة. فالأمر الذي نتعلّمه (من مذكرات الناجين من معسكرات الاعتقال النازية) هو ليس التفاصيل الدقيقة حول إدارة المعسكر، ولوائح أوقات قيام القطارات، وأهدافًا أيديولوجية ونظام إبادة الشعب. هذه هي المواضيع التي من الأفضل تركها للمؤرخين. الأمر الذي نتعلّمه (من الشهادات الشخصية) هو مدى العظمة غير المتناهية للألم والمعاناة التي تحول ذكرى تلك السنوات إلى عبء أثقل من أن يحتمله الإنسان العادي والذي التصق وجوده بالتفكير ويحتل مكانًا في طبقات الوعي العميقة جدًا بعد أن مُسحت الذكريات ولُطّفت» (بارطوف ٢٠٠٠، ص٦).

بشكل موازٍ لقضية كاتس وفي بعض الحالات بسببها، اتسع البحث بواسطة الشهادات الشفهية حول النكبة. ولكن لكي يستطيع الباحثون في البلاد القيام بدورهم في هذا البحث في أعقاب قضية كاتس عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار موقف المحاكم والمؤسسة الأكاديمية قبل أن يبدأوا طريقًا في البحث يقودهم إلى الاصطدام المباشر مع هاتين المؤسستين.

بدأ تدخل جامعة حيفا مع تقديم الدعوى ضد كاتس في فبراير / شباط ٢٠٠٠ . في حين اشار سلوك سلطات الجامعة، حتى بدء المحاكمة، إلى الحيرة وفقدان الصواب، فإن السياسة التي اتخذتها الجامعة منذ نشر كاتس اعتذاره قد تميّزت بعدم الإستقامة الاخلاقية . فقد رفضت الجامعة قبول التراجع عن الإعتذار وتصرفت وكأن اتفاقية الإعتذار ما زالت قائمة / سارية المفعول . الوقت القصير الذي مرّ لا يتيح الفرصة أمام تحليل وافٍ لسلوك الجامعة ولكن بعض الاستنتاجات الجزئية تستخلص وحتى من زاوية النظر المركبة التي نوجد فيها اليوم قبل أن تنتهي القضية .

كانت أطروحة كاتس، حسب معلوماتي وحسب الفحص الذي اجريته، البحث العلمي الاول الذي قُدم في إسرائيل في إطار الدراسات المتقدمة والذي احتوى على ما يزعزع القصة (الترتيق) الصهيونية حول حرب ١٩٤٨ . عدد من الطلبة المتقدمين تناولوا العلاقة قبل الحرب بين الوكالة اليهودية وشرقي الأردن والى حد ما زعزعوا أسطورة القليلين مقابل الكثيرين، وعدد قليل منهم فقط تناولوا موضوع اقتلاع الفلسطينيين من أراضي الدولة اليهودية وموضوع ارتكاب المجازر . هذه الأطروحة لا تتخفى من وراء احاديث ما بعد الحداثة، عندما تاتي لتقول اقوالاً قاسية عن السلوك الأخلاقي الصهيوني والإسرائيلي في الماضي، وقد كتبت في إطار مجال معرفي في لباسه المحلي، سلبًا او إيجابًا، بريء من أي بحث يتعلق بفلسفة الوجود في مسألة الحقيقة التاريخية . بحث جيد، مثل هذا الذي يحصل على علامة عالية، هو بحث « حقيقي » في نظر الكثيرين في المؤسسة الاكاديمية وبالتاكيد في نظر من هم خارجها . جهاز الفحص والمصادقة الذي أُعطي للبحث في إطار الدراسة الاكاديمية هو « علمي » حتى أكثر من الجدل الذي يدور بين المؤرخين من على صفحات الجرائد . المصادقة على حدوث مجزرة في إطار دراسة اكاديمية يفهم، على الأقل، في نظر جمعية « الكسندروني »، ولكن في نظر الجمهور الواسع أيضاً، على انه مستند علمي، وشبه قانوني .

فحص عملية نشوء المعارضة للأطروحة واستنتاجاتها في داخل جامعة حيفا يكشف لنا ان مصدرها هو رجال قسم « دراسات أرض إسرائيل » . هذا القسم الذي صادر الموضوع الفلسطيني من قسم تاريخ الشرق الأوسط ومعه صادر بحث وتدريس حرب ١٩٤٨ . في محور المعارضة وقف شخصان من أعضاء قسم « دراسات أرض إسرائيل » اللذان استغلا مكانتهما العالية في الجامعة، الأول كعميد كلية الآداب والثاني كرئيس مدرسة التاريخ،

وهي الهيئة التي توحّد داخلها جميع أقسام التاريخ في الجامعة. لقد ساهم الإثنان مساهمة كبيرة في المناقشات التي دارت داخل الجامعة وقد طالبا بشكل جازم برفض الأطروحة.

في قسم «دراسات ارض إسرائيل» يشتغلون كثيراً في التحقيق مع شهود يهود حول «أرض إسرائيل» وتاريخها. ولكن الباحثين في قسم «دراسات ارض إسرائيل» تفاجأوا، شأنهم شأن الجنود اليهود الذين اشتركوا في الحرب، عندما جاء باحث إلى الجنود والضباط ليس لكي يسمع منهم قصص البطولة في الحرب بل تحداهم بعمل همجي قام به الجيش الإسرائيلي في تلك السنة. من بين الجنود كان هناك من لم يتورّعوا عن الحديث عما شاهدوا - ولكن ليس من منطلق الشعور بالندم بالذات. أولئك الذين تحدثوا بصدق عن أعمال القتل فعلوا ذلك لانهم لم يعوا موضوع كاتس ولم يخطر ببالهم أن هناك من ينظر إلى هذه الشهادات على أنها شهادات على حدوث جرائم حرب. لأن هذه هي طبيعة واتجاه الحديث الصهيوني المهيمن الذي لا يرى في عملية قتل العربي قضية أخلاقية، إما لانه يمكن تسميتها أعمالاً دفاعية أو في أسوأ الحالات اعتبارها أعمالاً شاذة لا تدل على القاعدة. شذّ عن ذلك يوئيل سولنيك وشلومو أمير اللذان طلبا عدم ذكر تلك الاعمال التي سمياها «مخجلة». قال سولنيك لكاتس: «كانت هناك (في الطنطورة) أمور مخجلة جداً، إحدى أكثر المعارك مدعاة للخجل التي حدثت، كما اعتقد، في دولة إسرائيل». سأل كاتس: «مثل؟» أجاب سولنيك: «باختصار، إنهم لم يبقوا احداً على قيد الحياة». (المقابلة ١٧ حزيران ١٩٩٧، الشريط ٥).

إلى جانب رجال الإدعاء، ويبدو أنه بالتنسيق الكامل معهم، كوّن عميد كلية الآداب ورئيس مدرسة التاريخ، مجموعة ضغط كبيرة وجهت سياسة الجامعة ورؤساءها. في الجامعة لم تكن مجموعة ضغط معاكسة ولم ترتفع أصوات لها تأثيرها باستثناء رئيس قسم تاريخ الشرق الاوسط وكاتب هذا المقال (الذي منذ ذلك الوقت «تقاطعه» كلية الآداب) في وجه السياسة التي تبلورها سلطات الجامعة.

ساهم في ذلك الجو الجماهيري والعام خارج جدران الجامعة. عرضت أطروحة كاتس للنقاش العام خلال فترة وقف، في بدايتها، موضوع المسؤولية الإسرائيلية عن النكبة في مركز المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية وفي نهايتها اندلعت حرب إسرائيلية - فلسطينية التي من بين ما غذّاها كان انعدام وجود حلّ لقضية اللاجئين الفلسطينيين. خلال هذه الفترة سنّت الكنيست قانوناً هدفه منع حكومات إسرائيل في المستقبل من التفاوض حول موضوع حق العودة للفلسطينيين. كان هناك إجماع كامل داخل الطيف الصهيوني من اليسار وحتى اليمين لأنّ العودة حكمها حكم الإنتحار، مع أن المفاوضات في طابا أظهرت

بوادر لاستعداد إسرائيلي لمناقشة مسؤوليتها على الاقل حسب تقارير الجانب الفلسطيني في المفاوضات.

دار النقاش داخل جامعة حيفا في ظل النقاش في وسائل الإعلام. الصحافة الإسرائيلية التي غطّت على صفحاتها الأولى اعتذار كاتس، لم تشر إلى تراجعه. لقد وُصف كاتس في الصحف الثلاث الكبرى في صفحات الأخبار، وفي فترة لاحقة في افتتاحيات الصحف، كمزوّر، مؤرخ زائف، اختلق حادثة لم تحدث في الواقع لأسباب أيديولوجية. بسبب كون كاتس قد خضع مبكراً، بعد يومين من الكشف عن اقتباسات غير دقيقة، كان الافتراض أن الحديث عن عيّنة من الأخطاء وانه مع الوقت سيتم الكشف عن جميع الأخطاء، أما في الحقيقة فقد كانت تلك جميع الأخطاء التي نجح الادعاء ولجنة التحقيق في إيجادها. من هنا كانت الطريق قصيرة لافتراض الصحف بانه لم تكن هناك مجزرة وهناك من تمادوا وادّعوا بانه لم تكن هناك نكبة (راجع تقرير جريدة «يديعوت أحرونوت» ڤيرد لوفيتش من يوم ٢٢ ديسمبر / كانون أول ٢٠٠٠ ويوسف جوليل في جريدة «جيروزاليم بوست» من يوم ٢٥ ديسمبر / كانون أول ٢٠٠٠). «صوت إسرائيل» و«القناة الأولى» ابتهجوا بـ«كشف» كاتس. حتى أن صحفيين يتعاطفون ظاهريًا مع اليسار، مثل توم سيجف، أبدوا ملاحظة بانه من المحتمل أن تكون قد حدثت مجزرة ولكنها اكتشفت بواسطة المؤرخ غير المناسب («هآرتس»، ٢٩ ديسمبر / كانون أول ٢٠٠٠).

وهكذا كان في كل ملتقى طرق إضافي في هذه القضية. كل قرار أُضيف إلى سلسلة طويلة من سحب مصداقية الأطروحة تمّ نشره وفي مكان رئيسي. وقد وصلت العدائية الإعلامية لكاتس ذروتها عندما رفضت «هآرتس» و«يديعوت احرونوت» نشر إنكار كاتس لكتاب الإعتذار الذي نشرته باسمه جمعية «الكسندروني» (الإنكار الذي أراد نشره كإعلان مدفوع الثمن من ماله الخاص).

يعكس الرد على قضية الطنطورة، بلا شك، تصلب المواقف في إسرائيل نتيجة لاندلاع الانتفاضة الأخيرة وبشكل خاص الاحداث داخل إسرائيل نفسها. منذ أكتوبر / تشرين أول ٢٠٠٠ صمت صوت النقد الأخلاقي الصهيوني. صرّح «أنبياء السلام» أمثال داڤيد جروسمان، وعاموس عوز، وأ. ب. يهوشواع، بصورة علنية، في مقابلات إذاعية، بأنهم أخطأوا عندما صدّقوا الفلسطينيين (عوز، ٢٠٠٠)، وربما الأهم من ذلك أنهم نشروا على الصفحة الأولى لجريدة «هآرتس» بتاريخ ٢ يناير / كانون ثان ٢٠٠١ إعلانًا يؤكد معارضتهم الجازمة لحق العودة الفلسطيني. لم يكن بإمكان كاتس أن يختار توقيتًا أسوأ

من هذا لعرض شهادات عن مجزرة وللكشف عن المسؤولية الإسرائيلية عن أعمال فظيعة في حرب ١٩٤٨ .

النقاش داخل الاكاديميا حول قضية كاتس، على خلفية هذه الاحداث، لامس العلاقة بين التكتيكات الخطابية الاكاديمية وبين إمكانية قيام بحث بديل في موضوع النكبة . لقد زوّدتنا مؤخرًا حالة بمبجي سسبورتس بالخلفية التاريخية لنشوء هذه الإنشغالات في موضوع اللاجئين الفلسطينيين (بمبجي - سسبورتس ١٩٩٩) . يتضح من بحثها كما سبق وذكرت في دورية « نظرية ونقد » (پاپيه ١٩٩٣) ، بأن القصة (الترتيب) الصهيونية حظيت بدعم تجريبي من هيئات اكاديمية : أقسام، معاهد أبحاث ودوريات - أقيمت من أجل تثبيتها على أسس علمية .

من الصعب أن نتكهّن كيف ومتى ستنتهي قضية كاتس، ولكن بالإستناد إلى ما حدث حتى الآن فإنّه يمكننا أن نفترض أن المؤسسة الاكاديمية الإسرائيلية ستستمر في محاولتها منع الشرعية عن التاريخ الشفهي لـ١٩٤٨ وستكون بقظة أكثر في ترشيد المؤرخين حديثي العهد لكي يرضخوا رضوخًا كاملاً للقصة (الترتيب) الصهيونية في موضوع ١٩٤٨ وفي كل معالجة أكاديمية « للبقرات المقدسة » . وحقًا فإن عددًا من الاساطير الاساسية مثل « قليلون مقابل كثيرون » ، و« هرب الفلسطينيين بمحض إرادتهم » قد تحطّمت حتى لا تكاد تُعرف، أما القصة (الترتيب) في خطها الاساسي فقد بقيت كما كانت وقد صمدت أمام هجوم « المؤرخين الجدد » : لقد تمّ حقًا طرد بعض الفلسطينيين في أثناء الحرب، إلا أن هذا الطرد كان نتيجة للمعارك نفسها وليس نتيجة لبرنامج للطرد الجماعي . ولذلك يجب التعامل مع حالات الطرد التي كانت على أنها جزء طبيعي وحتمي من الحروب التقليدية ولا توجد لها اي علاقة بالتطهير العرقي أو جرائم الحرب (شپيرا ١٩٩٩) . هذه صيغة مريحة من الناحية الأخلاقية والسياسية للمؤسسة الاكاديمية وللقيادة السياسية فيما إذا وجدت نفسها مرة أخرى تجري المفاوضات السياسية مع الجانب الفلسطيني .

إجمال

ثلاثة استنتاجات تستخلص من قضية الماضي والحاضر . الأولى هي بحثية علمية تاريخية . تدل قضية كاتس على الاهمية القصوى لاسترجاع حرب ١٩٤٨ بواسطة شهادات ضحاياها وليس فقط على ضوء وثائق الذين تسببوا في ظهور ضحاياها .

الاستنتاج الثاني يُستخلص من طريق معالجة قضية كاتس في وسائل الإعلام، وجهاز

القضاء والمؤسسة الاكاديمية. منه نستدل على انه ممنوع في جميع الحالات ان يتم الحكم على عملية استرجاع حرب ١٩٤٨ خارج جدران المؤسسة الاكاديمية، إلا إذا كان هناك استعداد لطرح الموضوع بكامله للبحث الخاص أمام محكمة جرائم الحرب – الهيئة القضائية الوحيدة التي يوجد فيها توازن ما بين التحكيم التاريخي العلمي وبين التفسيرات الشخصية من جهة والسياسية من جهة أخرى. ليس من قبيل الصدفة ان الفلسطينيين يحاولون منذ خمسين سنة طرح قضية المسؤولية عن النكبة أمام هيئة قضائية كهذه، وإسرائيل تعارض ذلك معارضة شديدة.

إلى جانب ذلك، فإن التطورات في قضية كاتس تدلّ على أن المحاكم المحلية ليست منبرًا لائقًا لبحث ما حدث في حرب ١٩٤٨ بسبب الجهل بكل ما يتعلق بعملية الاسترجاع التاريخي وبسبب الرضوخ للقصة (الرتيف) الصهيونية.

الإستنتاج الثالث يتعلّق بوظيفة المؤسسة الاكاديمية الإسرائيلية في واقع النزاع المستمر. يبدو ان معظم اولئك الذين بداخلها ويتناولون النزاع، بهذه الطريقة أو تلك، يفضلون الرضوخ للقصة (الترتيف) القومية وعدم مواجهة المفاهيم الإجماعية (التي يوجد حولها إجماع) في وقت يفضّل فيه الجهاز السياسي التجانُس في الفكر والرأي تجاه القضية الفلسطينية على النقاش الذي ميّزها في النصف الاول من التسعينيات.

وعليه، قليلة هي احتمالات البحث المفتوح، على طريقة التاريخ الجديد، في المؤسسة الاكاديمية الإسرائيلية في السنوات القريبة. يبدو أنه من الجدير حاليًا تشجيع قيام أبحاث إسرائيلية – فلسطينية خارج المؤسسة الاكاديمية وداخل تنظيمات غير حكومية مستقلة تشتغل في البحث الاكاديمي في إسرائيل وفلسطين لتوسيع الجهود التاريخية العلمية لاسترجاع النكبة. الهدف الفوري والاولي هو إقامة بنك شهادات قبل فوات الأوان وعدم بقاء من تؤخذ شهاداتهم.

العلاقة بين استرجاع النكبة وبين جدول أعمال جهود المصالحة في المستقبل يجب الا يردع البحث الاكاديمي، بل على العكس، يجب أن ينمي في المدى الجماهيري اليهودي الإسرائيلي وعيًا كبيرًا لماهية المصيبة الفلسطينية ومكانتها في الذاكرة والهوية الجماعيتين الفلسطينيتين.

لهذا السبب البحث الإسرائيلي حول النكبة يجب أن يكون جزءًا من معركة جماهيرية تستند إلى مواقف حادة وواضحة من النزاع وحلّه. قضايا مثل التعويض، حق العودة الفلسطيني، والمسؤولية الاخلاقية الإسرائيلية موجودة على كل حال على جدول أعمال محادثات السلام التي تجمّدت ولذلك فهي في قلب الوعي الجماهيري الإسرائيلي

والفلسطيني في آنٍ واحد. وأخيراً، البحث حول النكبة يحتاج إلى حماية ومظلة دوليتين. البحث التاريخي، والمعركة الجماهيرية والحماية القانونية، كلها يجب أن تكون جزءًا لا يتجزأ من عمل أكاديمي يتمتع بروح المصالحة، والارتباط بواقع النزاع، وليس منفصلاً عنها تحت شعار أفكار تقادم عليها الزمن من الوضعية العلمية والموضوعية البحثية. هذه المعركة لن تحرّر الأكاديميا الإسرائيلية من انحيازها الأيديولوجي الصهيوني، ولن تحوّلها إلى موقع بحث حيادي وموضوعي، ولكنها ستدخل إليها أصواتًا أخرى جرى إسكاتها بسبب الأيديولوجيا المهيمنة المسيطرة اليوم على الأكاديميا الإسرائيلية.

المصادر

اللغة العبرية:

אורן אלחנן, 1976. בדרך אל העיר, משרד הבטחון: תל-אביב.

במבגי - ססמורטס, "בעיית הפליטים הפלסטיניים" והשיח שלה, ג'מאעה 5: 131-121.

בן יהודה נתיבה, 1985. מבעד לעבותות, דומינו, ירושלים.

בשער, 2001. "חופש אקדמי ואחריות אקדמית", בשער (מאי-יוני): 18-26.

גילת אמיר, 2000א. "צה"ל ביצע טבח המוני בטנטורה", מעריב, 21.1.2000.

גילת אמיר, 2000ב. "טנטורה", מעריב, 4.2.2000.

כ"ץ תיאודור, 1998. "יציאת הערבים מן הכפרים למרגלות הכרמל הדרומי ב-1948", עבודת גמר לתואר מוסמך, אוניברסיטת חיפה.

לוביץ ורד, 2000. "משפט טנטורה", ידיעות אחרונות, 22.12.2000.

לורך נתנאל, 1989. קורות מלחמת העצמאות, ידיעות אחרונות: תל-אביב.

מוריס בני, 1984. לידתה של בעיית הפליטים הפלסטיניים, 1947-1949, עם עובד, תל-אביב.

סיני צבי וריבלין גרשון (עורכים), 1964. חטיבת "אלכסנדרוני" במלחמת

העצמאות, הוצאת משרד הבטחון: תל אביב.

סלוצקי יהודה (עורך). 1972. ספר ההגנה, הוצאת משרד הבטחון: תל- אביב.

פפה אילן, 1995. "ההיסטוריה החדשה של מלחמת 1948", תיאוריה וביקורת, 5 (חורף): 99-114.

צנזור דני, 2000. אתר אינטרנט על פרשת כ"ץ:
www.ee.bug.ac.il/censor/kaz

קימרלינג ברוך, 2001. "ההבניה החברתית של המושג, הביטחון הלאומי, של ישראל", תרבות דמוקרטית: 4-5 : 267-301.

רבינוביץ דן, 1993. "נוסטלגיה מזרחית: איך הפכו הפלסטינים לערביי ישראל?", תיאוריה וביקורת 4 (חורף): 141-152.

רז-קרקוצקין אמנון, 1993. "גלות בתוך ריבונות: לביקורת 'שלילת הגלות' בתרבות הישראלית", תיאוריה וביקורת 4 (חורף): 23-65.

שגב תום, 2000. "תייר זר", הארץ, 29.12.2000.

שקד מיכל. 2000. "ההיסטוריה בבית המשפט ובית המשפט בהיסטוריה- פסקי הדין בפרשת קסטנר והנרטיבים של הזכרון", אלפיים 20: 36-80.

اللغة العربية:

أبو عابد رندة، ١٩٩٧ . «ذكريات وأسى أيام مضت»، كل العرب، ١/١٠/١٩٩٧ .

الوالي مصطفى . ٢٠٠٠ . «مجزرة طنطورة»، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٤٣ صيف، ص: ١٠١-١١٧ .

الخطيب نمر، ١٩٥٠ . نكبة فلسطين، دمشق .

المدوّر عبد، وبدر عبد الرحمن، ١٩٩٤ . قاقون، مركز الدراسات، بير زيت .

كناعنة شريف وإشتية محمد، ١٩٨٧ . عيناح، مركز الأبحاث، بير زيت .

نجيب محمد حسني، ١٩٩١ . «طنطورة المجزرة والتاريخ»، كل العرب، ٢٢/١١/١٩٩١ و ٢٩/١١/١٩٩١ .

اللغة الانجليزية:

Allen Barbara, 1981. From Memory to History, Nashville: Tennessee 1981.

Bartov Omer, 2000. "An Infinity of Suffering", Times Literary Supplement, 15.12.2000.

Golel Yosef, 2000. "The Tantura Case", Jerusalem Post, 25.12.2000.

Hutchinson Family Encyclopedia, 2000. Internet Edition.

Judah Tim, 2000. Kossovo: War and Revenge. Yale: Yale University Press.

Khalidi Walid,(1961) and 1988, Erskine Childers and Jon Kimchie, A Debate on 1948, The Spectator (May-August) and Journal of Palestine Studies, 18/1, 1-20.

Khalidi Walid, ed., 1992. All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948,Washington: Institute for Palestinian Studies.

Kutab Daoud, 1987. "Kufr Shamma Explors its Palestinian Past", Al-Fajr, 7.1.87.

Lummis Tervor, 1987. Listening to History: The Authenticity of Oral Evidence, London: Hutchinson.

Menand Louis, 1996. "The Limits of Academic Freedom" in L. Menand (ed.), The Future of Academic Freedom, Chicago: The University of Chicago Press, pp. 3-20.

Naimark, Norman M., 2000. A Century of Hatred: Ethnic Cleansing in Modern Europe. Cambridge: Harvard University Press.

Nazzal, Nafez Abdullah, 1974. "The Palestinian Exodus from Galilee, 1948: An Historical Analysis", Ph. D. diss., Georgetown University.

Pappe Ilan, 1988. Britain and the Arab-Israeli Conflict: 1948-51. London and New York: St. Antony's Series\Mamilan.

Pappe Ilan,1992. The Making of the Arab-Israeli Conflict, 1948-1951.

London and New York: I.B. Tauris.

Pappe Ilan, 1999a. 'Were They Expelled? The History, Historiography and Relevance of the Palestinian Refugee Problem' in The Palestinian Exodus, 1948-1988, ed. Ghada Karmi and Eugene Cotran, London: Ithaca Press, pp. 37-62.

Pappe Ilan, 1999b. The Israel\Palestine Question. London and New York: Routledge.

Pappe Ilan, 2001. "The Tantura Case in Israel: The Katz Research and Trial", Jounral of Palestine Studies, 30 (Spring): pp.19-39.

Petrovic, Drazen, 1994. "Ethnic Cleansing: An Attempt at Methodology", European Journal of International Law 5 (3): 342-360.

Portelli Alessandro, 1984. "The Peculiarities of Oral History", History Workshop Journal 12: 96-107.

Portelli Alessandro, 1991. The Death of Luigi Trastulli and Other Stories: Form and Meaning in Oral History. Albany: SUNY Press.

Shapria Anita, 1999. "The Past is Not a Foreign Land", New Republic, 29.11.1999.

Slyomovics Susan, 1998. The Object of Memory; Arab and Jew Narrate the Palestinian Village. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

United Nations, 1993. "Report Following Security Council Resolution 819", 16.4.1993.

United States, State Department, 1999. Special Report on "Ethnic Cleansing", 10.5.1999.

باحث وأستاذ جامعي إسرائيلي، من تيار «المؤرخين الجدد»

سحر خليفة

عهدٌ قديم

صباح جميل وناصرة الجليل تتربّع فوق القمة وناقوس القلب. أجيء إليك يا قبلتنا بحثًا عن حبّ كان لنا وعبق الماضي وعود أخضر. خلّفت ورائي المسافات شاسعة تغفو في الظل لأرى نورك، وأغرف من شمسك وحنينك، وأعود صبيًّا ممهورًا عمّده الشرق.

قالوا، مريم كانت هناك في ذاك الدير، والدير ملاصق لجمعية ومخيمات الصيفية للشبيبة وقوى الاجسام. والأم في منتجع للعجزة تابع للدير والجمعية. ومريم هناك ثم تلاشت، وعادت وظهرت ثانية مع الإستعداد للموسم والصيف الجديد.

وبدات البحث عن مريم. اين مريم؟ مريم ذهبت. أين ذهبت؟ ذهبت للّد. أين ذهبت؟ ذهبت لرأس الناقورة. أين ذهبت؟ ذهبت للحج مع الحجاج للقيامة وجبل الزيتون. وأبحث عنها في كل الجليل؟ وعلى الساحل من رأس الناقورة وحتى النقب. او أقول لك؟ أنتظرها هناك عند العجوز في كل مساء فقد تجيء مع بدء الصيف.

ودخلت الدير، ثم المبنى حيث المشفى وبيت العجزة، وامتداد يطل على الساحة والمخيّم وحرش اللزاب.

وأرى العجزة، هنا وهناك، ثم الأطباء بالأبيض، وكذا الراهبات، ومكان فسيح كالمسبح، بلاطه يلمع، وخيالي تحتي كالمرآة.

وسالتُ راهبة الإستقبال فقالت: من أنت؟ قلت برجاء: أنا قريب جاء من القدس. إبتسمت لي وقالت: أهلاً، أهلاً بالاهل، أنت ببيتك، كيف الاحوال؟ قلت: الطريق كانت صعبة والرحلة بعيدة رغم القرب وكان علي أن أتنقّل من باص لباص حتى أصلكم، والمحطات ما أكثرها، وكلّها مرصوفة بالاغراب. شعرت هناك أني في الغرب. شممت رائحة الغربة، أحسست أني في نيويورك، وخفت كثيرًا من التفتيش والعملية. عملية جديدة في حيفا وقد مررت بأعجوبة. رأيت الشرطة ونقط الجيش تبحث وتفتش عن عربي. لكن، يمكن، بسبب شكلي. ونظرت إليّ مستطلعة فأردفت بخجل: وكذا عمري، لكن هنا..

والتفتُّ حوالي وأنا أرى كراسي العجلات والنقالات وامرأة تمشي على عكاز ورجلاً مسنًا يتطوح، يمشي زحفًا وأرى خياله تحت قدميه ويكاد يقع فقلت بحزن: وكذا عمري. قالت همسًا: لا تتشاءم، هنا الاعمار تتجدد. قلت بحيرة: في هذا المكان؟! قالت: أُنظر، عبر الزجاج تحت الشرفة ماذا ترى؟ قلت: مخيم. قالت: صحيح، هنا العجزة وهناك الشباب، أفهمت الآن؟ طبعًا فهمت، لكن الصوت، ما هذا الصوت؟

وخرجت إلى الشرفة أتفرج. ورأيت القيامة تكاد تقوم. أفواج الشبيبة في مجموعات يبنون السلاسل والحبلات، يرصفون الطرق، يدهنون الحديد، يحفرون الأرض، يحملون القفف ودلاء الدهان. كان العمل في أوله والإرشادات تنتقل عبر السماعات. هذه ضجة. ما هذا الضجيج؟ أهذا صحي؟ قالت: في الغرف صمت مطبق وهدوء تام. ستري بنفسك. وقد رأيت، إذ حين وصلت إلى الغرفة ورأيت الأم في مقعدها تغرق في الصمت، عرفت الفرق. عبر الزجاج كان مخيم للشبيبة وفي الغرفة أم صماء لا تتحرك.

قال الطبيب: ليست صمّاء، في غيبوبة، أو بالأحرى، في عالمها. أحيانًا تفيق وتتفاعل وتسأل عن مريم والاولاد وتذكر اشياء لا نذكرها وتحكي وتهرف ما شاء لها الخرف في هذا العمر. في هذا العمر.. هذا طبيعي. ونظر إليّ يتاملني، فقلت بخوف: أعرف، أعرف. وجلست على طرف الكرسي أتاملها. كانت على كرسي العجلات بلا نظارة ورأسها مكشوف بشعر خفيف أبيض كالليف وعروق يديها كالديدان. شيء مخيف، في هذا العمر كيف نصير، مثل النبات وجذوع الشجر! لكن الخوف ليس من الشكل، بل العفوة، والغيبوبة، وتلف في الوعي وخلايا الدماغ.

هربت من رائحة الموت إلى الشرفة فتبعني الطبيب وبدا يسأل: ماذا عن القدس؟ أين وصلتم؟ كيف الأوضاع؟ ماذا تعمل؟ هل أنت قريب؟ كيف الطريق؟ والعملية؟ وهل ضايقوك؟ ألديك أحد هنا في الجليل تنزل عنده؟ وأشار علي بنزل صغير خلف المبنى لا يخضع لرقابة أو تفتيش. وقال: أراك بعد المغرب في المخيم ففي المساء رقص وغناء وموسيقى. واتفقنا.

لكن الحالة أين هي؟ تلك الحالة.. عبر «بوابة مندلباوم» وما أثاره ذكرها في ذاك الوقت من إشكالات وتعليقات. أذكر تمامًا ما قلناه وعلقناه وعايشناه. قلنا أشياء لا أنساها وأراها الآن مثل النكتة. قالت: «جنة»، وأقول الآن: فعلا جنة، أهناك جنان في الدنيا مثل الكرمل وعيون الجليل؟ مررت بها وأنا محنيٌّ خوفًا من شرطي يناديني ويقول لي أين التصريح؟ لكن الخوف لم يمنعني، ولا الطريق والعملية. أين الحالة؟

ونقرت الباب بوجل وحذر، فسمعت صوتًا قويا يقول: «أدخل». فدخلت بخوف،

رجل للامام ورجل للخلف. ورأيت راهبة طويلة في مثل طولي أو أطول. كانت ما زالت مشدودة رغم الكبر وخطوط السن. والأخرى كانت بنظارة وإطار ضخم، لكن عيناها شاسعتان ونظرها حازم. قالت: من أنت، والإسم الكريم وما طلبك؟ قلت: الضفة وجبال القدس وحنين القلب إلى القبلة. أنا من ضيّعت أحلامي وحبي الكبير والمستقبل. أنا من جاب بقاع الارض بحثًا عن هدف وقضية. أنا من حمل إسم جدّه وصفات أبيه وما وجد إبنًا يرضاه أو يرث اسمه. كانت غلطة، وأنا نادم، هل يرضى يسوع أن أتعذّب وأظل متهمًا أبديًا لا أجد قاضيًا ينصفني ويزيل الحكم؟ إن كان يسوع يرضى بهذا، إذن ما الفرق؟ وأظل أدور الدوائر بحثًا عن ماضٍ كان هنا وامرأة حلوة كانت لي وابنًا لا يعرف سر أبيه؟ إبني ضائع وأمه مريم وأنا هنا أبحث عن خيط، فدلّيني.

نظرت للارض وهي تفكر. هل يرضى يسوع أم لا يرضى؟ هل يغفر لي أم لا يغفر؟ هل ينقذ عاصيًا من ذنبه؟ خفت من الحكم فجلست على طرف الكرسي ومددت نظري عبر الزجاج إلى الشرفة. وسمعت الشباب بصوت واحد وهم يهزجون بأغنية كنت أسمعها في روما فيغمرني الحنين وأمل بائس. أغنية صغيرة في الكاسيت وأنا أسوق عبر الطرقات الجبليّة وأرى الشجر وتفتيح اللوز وظلال الأرز والصنوبر وعبيرًا يمتد من المغرب حتى الساحل وضفاف النهر. كانت فيروز تغنّي للبحر ومراكبنا تعبر فينا رمل الغربة وامتداد الرحيل. في ذاك الوقت، من ذاك البعد، ما كان رجوعي إلى الجنّة إلا حلمًا، وأملاً بلقاء عايشته ثم تناثر عبر الفلوات وتناثرنا.

وغنّى الشباب والسماعات تهدر في الجو فدمعت عيناي. رات دمعاتي فاقتربت ومدّت يدها وأخذت بيدي وفتحت الباب إلى الشرفة وقالت: هنا كانت مريم. قد تأتي اليوم، غدًا، بعد غد، أنا لا أعرف، لكن حتمًا ستجدها هنا إن أنت صبرت، فالأم هنا، وأنا هنا، والدير ما زالت تنزل فيه. في هذا المساء يحتفل الشباب بصب الإسمنت. قد تجيء اليوم فالمدعوون من كل الجليل ومن الضفة. قد تجدها هنا أو عند الأم، أسالت الأم؟ قلت: صمتاء! قالت: نوبة، أحيانًا تغيب عن الدنيا وتصبح تمثالاً حجريًا، وفي اليوم التالي تستيقظ وتحكي بثبات ووعي كامل. جرّب، حاول.

قلت: غفرت؟ ابتسمت لي وقالت بعتاب: أنا من تغفر؟! ثم اخترقتني بعينيها وقالت همسًا: وهل تغفر أنت؟ ومدّت يدها تستودعني فلثمت اليد وقلت: الجنة مهما ابتعدت ستظل هنا، عند الخالة. وحكيت لها ما رددناه في ذاك الوقت فقالت بسماح: مجرد أسماء، كلها أسماء، لكن الجنّة هي الجنّة!

وفتحتُ الباب.

خرجت مساء مع « أبو يوسف » إلى الإحتفال بصب الإسمنت. تغدّينا معًا وشربنا معًا وفتحنا القلب ثم تمددت للقيلولة حتى أسهر لان السهر ينهك جسمي. وأنا خارج، لمحت الروسي بطرف الممر فابتسم لي ودمدم كلمات لم أفهمها لكني التقطت كلمة « شالوم » فتجاهلته. أسرعت الخطى نحو الدرج وهو خلفي. أسرعت فأسرع ووصلنا معًا أمام الـ كاونتر» وكان « أبو يوسف » يسلم مفاتيح الغرف وطلبات الليل للنوبتجي. ابتسم لنا وهو ما زال ينهي الأشغال وسمعت الروسي يردّد له نفس الألفاظ وألحقها بكلمات لم أفهمها. أهي العبرية أم الروسية أم الإيديش؟ ثم تبيّنت أنه يلفظ كلمات عربية بشكل مكعبل بحيث تبدو كعجينة ممطوطة ومبعوجة ولا تعرف إن كان المقصود بها أن تكون رغيفًا أم حدوة! لكنّي فهمت كلمة « حبيبي » وفهمت طبعًا « أبو يوسف » وفهمت أيضًا أن صياح « ابو يوسف » حين تبادلنا أحاديث القلب على البيرة و « عمره ما ذاقها » و « إن شاء الله عمرهم ما طفحوها » لا تصل اسماع ذاك الروسي إما لأن الروسي زبون هام، أو لأن « أبو يوسف » يحسب حسابات لا أحسبها، أو ربما، وهذا الأغرب، أن « أبو يوسف » لا يعني ما يقول حين يفضفض. أشرت إليه فاقترب منّي وهو ما زال خلف الـ كاونتر» ووشوشته بخوف: « شوف هذا الروسي لاحقني! » ربت كتفي وقال بسرعة: « جاي معانا ». أحسست بسطل ماء بارد يندلق عليّ فاربد وجهي وتجهّمت والروسي يصفر مطروبًا أمام الزجاج ويتفرّج على المارة والسيارات. وانتابني إحساس مشابه لما أحسست به عند جميلة وهم يصعدون درج الطابق وأنا مختبئ عند « الانتين » أراقبهم، أتلصص عليهم وأرهبهم كما لو كانوا أهل الدار ونحن الجيران! وراودتني نفسي بالرجوع إلى الغرفة ونسيان الحفل، لكن مجيئي لذاك الحفل كان لمريم، ومريم ستكون في ذاك الحفل، وإن لم أذهب، فما نفع الرحلة ونفع البحث؟ إذن أذهب، ولكن وحدي. أي أن أتخلّى عن الصحبة ورفقة « أبو يوسف » وحواديته وأدعه له؟ شيء بايخ! يعني أدع ذاك الدخيل يفصلنا؟ لا، لا يمكن. إذن أذهب لكن بشرط، ألا يقترب مني خطوة ولا أراه أو أرى وجهه. لا يحكي معي ولا أحكي معه وأنسى تمامًا أنه موجود على وجه الأرض. وهذا ما كان. مشينا معًا تلك الأمتار نحو الساحة، « أبو يوسف » يمشي في الوسط، وأنا من هنا والروسي هناك، ولا كلمة! « أبو يوسف » يحكي ويمازح وأنا اسمع، والروسي يسمع ويهز الرأس ولا يدع مناسبة تفوته إلا وابتسم لي وغمز بعينه أو رسم علامة استفهام. دمدمت لـ « أبو يوسف » أتساءل فشد يدي وقال همسًا: « فودكا، فودكا، ما يكون لك فكر، مش فاضي لك ».

مش فاضي لي؟ أي أن لديه ما يكفيه. وهذا ما شرحه « أبو يوسف » بعد السهرة. ومختصر القول إن إيلاي، وهذا اسمه، كان يعمل في « مسرح تشيخوف »، ثم تقاعد، أو

بالاحرى، تقاعدت الدولة، فتقاعد لان الدولة ما عادت ترعى الفنانين. أفلست الدولة واختلت وهبط المسرح. هرب الكتّاب إلى الخارج والفنانون والراقصون وهربت «نينا». و«نينا» حبيبته الحلوة قبل الإفلاس. ترك زوجته وأولاده ولحق بـ«نينا» أيام العز، وأيام العز كان الكتّاب في المسرح شيئًا هامًا، سلطة ووجاهة وبيت ومعاش، و«نينا» الراقصة الصغيرة كانت أصغر من أن تُدعم، او أنّ الدعم كان صغيرًا بحجة الموهبة والإنتاج، فوجدت في عز الكاتب إيلاي ما يرضيها رغم الفارق في العمر والفهم والقناعات. وعاشت معه فقل الانتاج وهبط وزنه فبدأ يشرب، وأفلست الدولة وذهب العز فزاد الشرب، وأصبح إيلاي في وضع بغيض، فلا هو بالشاب ليرضيها ولا هو غني ليشبعها ولا هو مدعوم ليعطيها. وكان الرحيل إلى إسرائيل بديلاً مطروحًا فلحقت بالركب ولحق بها. لكن «نينا» اندمجت في السوق لان السوق بحاجة لشباب ودماء الشباب ورقص وعري في الحانات، أما إيلاي فماذا لديه سوى قلمه؟ وماذا يكتب عن جو يجهله وباية لغة؟ والدولة الجديدة لا تدعم ولا تتبنّى، بل تدعك لشأنك وطلبات السوق، والسوق تقرر ما المطلوب. وبما أن إيلاي ليس سلعة، أو فلنقل سلعة قديمة لا تتناسب مع روح الجو، فقد لجا إلى نزل صغير بسعر رخيص بانتظار العودة إلى بلده، اي إلى موسكو، لكن موسكو لا ترضى به، فأصبح إيلاي مثلي ومثلك، حسب القانون، أي هو موجود غير موجود. وشيء آخر يشبهني به، هو جاء يبحث عن «نينا» وأنا جئت أبحث عن مريم. لكن إيلاي بوضع أفضل، فمهما كان هو يهودي وأنا مسلم، وهو بتصريح وأنا بدونه، وهو غير ملاحق بشبح الـ«شين بيت» وقانون دولة إدعس يا تهاق، كما انه مبسوط بالـ«ڤودكا» ويحب الأكل والتبولة ورقص الدبكة، ويريد أن يرقص ويفرفش وينسى «نينا».

ابتدأ الحفل بالاكل والشرب والمزّيكة، ثم الدبكة وشباب يطيرون فوق المسرح على أنغام الشبابة وصفّق الجمهور، ثم فرقة فيها طبلة وعود وقانون وشاب يشق عنان السماء بمواويله. طرب الجمهور واهتزت رؤوس ودمعت أعين وسال العرق مثل الانهار. وشربت أنا مثل اللقلق وطفح الروسي حتى تدحرج تحت الأرجل ثم تماسك وصار يلوح بفوط السفرة حتى يثبت أنه ميسوط ومتجاوب ويحب الكيف ويحب العرب، و«أبو يوسف» يشده من ظهره ويقول له: «أقعد، أقعد، خليك ساكت». وأنا أراقب سلطنة هذا وتحسُّب ذاك وأجد الأمر مثيرًا للضحك والحزن معًا، فهذا مغتاظ ومتوجس، وذاك يرقص من غير حساب. بدأت مراقبتي بالفضول، ثم بالضحك، ثم حسدته، فهو منطلق ولا يابه بنظراتي ونظرات الناس. الأنه غريب لا تقيّده مفاهيم الجو؟ الانه فنان لا يابه بالعيب والأُصول والوجاهة؟ أم لانه مرّاق طريق في حضارة لا يفهمها ولا يعرفها ولا يابه حتى أن يعرف؟ لكنّه وهو يلوح بفوط

السفرة ويميل هنا ويميل هناك ويدلق كاسات العرق على صحون البزر والفستق يلتفت إلينا ويشد يديه إلى صدره ويتضرّع: «معليش يا خبيبي.. متآسف». ثم يشرب ويطلق صرخات جبّارة ويميل ويلوح ويتجشأ ثم يجلس ويغمض عينيه ويقول بوله وحرقة قلب: «آه يا نينا!» ثم يتكئ على الطاولة ويمسح دمعات مسروقة وهو يضحك ويشرب ويصيح: «آه يا خبيبي!».

ابتدأ الرقص، وقام الجمهور إلى الساحة وقام «أبو يوسف» وتركني وبقيت أنا وذاك الروسي نشرب ونعبّ مثل الاسفنج حتى دخنا. ارتمى على الطاولة وارتميت أنا وصرنا نبكي، هو يقول: «آه يا نينا» وأنا أقول: «آه يا مريم». ثم تلاشيت. نمت على الطاولة بين الاقداح حتى صحوت على بطني، احسست بامعائي تتخبّط ونفسي تلعي فهرعت إلى أقرب شجرة وهناك أفرغت ما يضايقني ثم صحصحت. بدات أصحو من السكرة وأعرف من انا وماذا أفعل. خجلت من نفسي ومن سكري فمشيت قليلاً بين الشجر حتى أسترد وعيي وقواي. وجلست على قمة صخرة بين الأشجار ومن هناك تابعت الجو.

رآني «ابو يوسف» اعتزل الجو فظن أني تضايقت من رقصه وإهماله لي أو أني تضايقت من الروسي فاراد إصلاح ذات البين وتطرية الجو، فصعد إلى المسرح وخطف المذياع وبدأ بتوزيع التحيّات على الموجودين ويشير إلي كي أتجاوب: «يعيش الشباب ومجهود الشباب والفين سلام لعيون الشباب». فصاح الجمهور: يعيش، يعيش. وعاد يردد ويشير إليّ كي أتجاوب وأرد عليه: «ويعيش المسؤول عن المخيم كابتن اسحق ابو الشباب وحبيب الشباب». وصاح الجمهور: «يعيش، يعيش». وصاح ثالثة وهو ينظر إلي ويشير إلي وإلى نفسه: «ويعيش الشباب واحنا معاهم قلوبنا شباب. يا الله يا محمود شدّ الطبلة ورقصنا معك على وحده ونص». وامتلات الساحة بالراقصين و«أبو يوسف» يرقص كالفيل ويتطلع إلي ويشاور لي وأنا ما زلتُ أترنّح وأتحسس بطني وأتجشأ. ثم اقترب من الميكروفون وقال لاهثًا وبصوت اجشّ: «ولازم كمان نحيي الضيف من الضفة من ريحة القدس، أخونا ابراهيم، تع يا ابراهيم». فانطلقت صيحات الجمهور وهم ينظرون إلى جهتي ويرددون: «يعيش ابراهيم». وبدات الموسيقى تعزف والطبلة ترن والمغني يغني والناس يردون: «طلوا احبابنا طلوا، نسم يا هوا بلادي». وامسك «أبو يوسف» بالميكروفون وقد زاده الرقص انفعالاً وجمودًا وما كان يعلم أن الجمود بسبب السكر والتقيؤ وحيلي المهدود: تع يا ابراهيم! تعال سلم على أهل الدار. وانطلق الجمهور بحماس شديد: «عاوزين ابراهيم، عاوزين ابراهيم». ورأيت الروسي يقف ويصيح وهو يلوح بفوط السفرة: «وآنا خبيبي!» فشده أحدهم من ظهره وهو يزجره: «اقعد حيلك خلينا نشوف». لكن الروسي لم يقعد

إذ اعترض طريقي وأنا أحاول الوصول إلى المسرح بين الطاولات وحشود الناس وقال ضارعًا وهو يلوح: «وآنا خبيبي!» فشدّه آخر من ظهره وقال: «أقعد، خلينا نشوف». لكنه استقتل وشدّ بي وهو يصيح في شبه بكاء: «آنا خبيبي». فصاح أحدهم بغضب وعجب: «ماله هذا؟ كان ناقصنا؟! مين اللي جابه للحفلة؟ أقعد، أقعد، خلينا نشوف». وسمعته يرتطم بالكرسي ويدلق أقداح العرق على البزر والفستق ويقول بخوف: «آنا متآسف». ثم يشهق وينوح بلوعة وحرقة قلب: «آه يا نينا!» فشعرت بحزن لا أفهمه.

لكن الحزن تبخّر هناك على المسرح وأنا محاط بعيون الحب. أحسست بقلبي يكاد يذوب. أحسست بروحي تكاد تطير. أحسست أني في الجنّة مع أهل الدار. أهؤلاء هم الجنة؟ أهؤلاء هم أهل الدار؟ شباب وكهول وصبايا وأنا معهم أنسى مريم، بل أذكرها لأني أرى مريم فيهم. بل أراها هناك على الكرسي وطاولة الوسط تراقبني وتقول لي ما كانت تقول: «يا الله فرجيني خيالاتك! انت مجنون!» وأنا أقول: «شايف عنزة مثل الغولة لكن إنت أحلى من الغول». و«أبو يوسف» يلكزني ويقول لي: «يا الله إحك. يا الله تحرك». وفتحت فمي لكي أقول: يا أهل الدار، يا حباب القلب، يا خيالنا وروحنا وأسامينا. لكني سمعت الروسي يصيح: «آه يا نينا». وآخر يزجره: «أقعد واسكت خلينا نشوف». وخيال مريم يهوج يموج وراسي والجمع وأمعائي وأنا أرتجف من الإنفعال والخجل الفظيع من الميكروفون وعيون الناس. وقلت كلمات لا معنى لها، قلت بثأثأة مرتبكة ودموعي تسيل: «مش عارف أحكي، سامحوني..». وانهمرت دموعي فتلعثمت، ووقفت الكلمات في حلقي وانبح صوتي فتنحنحت، وسكت الجمهور ودمعت أعين، فلكزني «أبو يوسف» في كتفي وهمس في أذني يساعدني: «حيّي الشباب، حيّي الكابتن». فتمالكت نفسي وتطلّعت نحو الشباب في الصف الأمامي مباشرة، صبايا وشباب مثل الحبق وقلوب الحس، وهم يتطلعون إلى وجهي بعيون باسمة وحزينة. أهي البسمة؟ أهي الدمعة؟ أم هو الشوق ما حركني ولكزة «أبو يوسف» في ظهري إذ وجدت نفسي أصرخ بحماس، من صميم القلب: «يحيا الشباب ويعيش الشباب وكابتن إسحق واحنا معاهم». فصاحوا جميعًا كما لو كانوا يستيقظون من الدهشة وانفعال عميق: «يعيش، يعيش». همس «أبو يوسف» في أذني: «وشباب القلب، يا الله، تحرك». فانزاح الخجل وصحت بسرعة وبلا تفكير: «وشباب القلب يالله تحرك». فصاحوا بحماس وهم يضحكون: «يا الله تحرك».

فهمس «أبو يوسف» في أذني: «أمّا اهبل! هذا العرق والا الفودكا؟».

وفي ذاك الجو، ومن خلال الهتاف والضحك والدموع والتعليقات صاح الروسي: «آه يا نينا»! فصاحوا جميعًا من خلفه: «أقعد واسكت، كان ناقصنا؟!!».

واشتعلت السهرة من جديد وارتفع صوت السماعات والزغاريد حتى وصلت قمم الجبال وأعالي الشجر، و«نتسيريت عيليت».

دخلت مريم فصاح إيلاي: «آه يا نينا!». والتفت إلي لأني أنا صحت: «مريم!» وارتميت بجانبه على الكرسي. لكن «نينا» لم تلتفت لا لي ولا له، بدأت ترقص. كانت برفقة حيفاوي يعمل مأمورًا في الميناء ويُهرّب ويسكي وشوكولاتة. كانت مريم، تشبه مريم في العشرينات، لكنها ليست مريم لأن مريم مثلي الآن في الستينات، وهذه المرأة ما زالت ابنة ثلاثين وشعر أشقر. لكن الطول، والوجه، والخصر، وعيون خضراء على عسلي! كانت تلبس تنورة شيفون وتحتها لا شيء، مجرد خيطان، خيط هنا وخيط هناك يستر ما بقي من العورة. لكن العورة ما زالت في كل مكان. أما إيلاي فبدأ يشخر، وأنا مذهول أراقبها بفم مفتوح.

مرّ بنا كابتن اسحق ورآنا بشحوب الموتى فهرع إلينا وبدأ يسأل وأنا اقول: «لا شيء، لا شيء» وإيلاي يهذي ويتمتم: «نينا، نينا» ويرطن كلمات روسية على عبرية على عربية ثم يقهقه مثل المجنون.

واشتعل الرقص. كانوا يغنون الدلعونا والميجنا ثم انقلبوا وانقلب لسان عريف الحفل وبدأ يرطن، كلمة عربي، كلمة عبراني على روسي، ثم الحبشة! والطبلة ترنّ ساعة بلدي وساعة فرنجي وساعة إيقاع إفريقي وعلى وحدة ونص. ومريم أمامي تتلوّى ساعة بالشال وساعة بلا شال وساعة تفرقع بأصابعها مثل الاسبان وساعة بصاجات مصرية. ونزل «أبو يوسف» للساحة وبدأ يراودها عن نفسه بحركات فجّة عربية ويدبك كالدب فيتزلزل إسمنت الارض. ضحك الجمهور وضحك المأمور الحيفاوي وتخلى له أبو يوسف» عن الساحة واخذ يصفق، ومريم تدور بالشال والشيفون والشعر الحرير وأنا مذهول أراقبها بفم مفتوح.

وارتمى «أبو يوسف» بجواري وهو يلهث، لكن إيلاي لم يتحرك وبقي يشرب ويراقبها ويهز الرأس. وهمس «أبو يوسف» وهو يضحك:

– بنت الحرام ما بتشبع رقص!

والتفت إلي لأتجاوب فوجدني جامدًا من غير حراك. مدّ يده وأخذ كاسي وشفط جرعة ومسح عرقه وهو يلهث ويضحك على نفسه من نفسه. رآني ما زلت أُراقبها وأنا مشدوه فدفع كتفي بطرف كتفه وقال بتلغيز:

– شو، عاجبتك؟

ولما لم أجبه، قال محذرًا:

– إوع تغطس، من بعيد لبعيد.

التفتُّ إليه لاستفهم فأتبع قوله وهو يغمزني على جاري:

– شايف حاله؟ مثل الشمعة.

ثم دغرني كي أتجاوب:

– وإنت مالك؟ دايخ سكران والا بتتذكر أيامك وأيام الشباب؟

ابتسمت بحزن ولم أنطق، فدغرني ثانية وقال بعجب:

– بنت الحرام شو بتشبهها! تشبه مريم قبل القصة وقبل ما تحبل وتتبهدل.

التفتُّ اليه وفتحت عيني وسألت بلهفة:

– مريم؟ مريم! أي مريم؟

لوّح بيده والأخرى امتدت إلى كاسي وعبّ جرعة أبقاها في فمه يتلمظها وأنا ما زلت أنتظره. رآني أحملق في وجهه وهو ما زال يراقبها وهي تتلوى في الساحة تحت الاضواء وعيون الناس فخفض عينيه وتاملني من علياله وقال همسًا:

– مريم أيوب، ما بتعرفها؟

لم أعلّق لاني ما عدت أتنفس، وقفت أنفاسي في صدري وقلبي الضعيف انتفض بعنف وغرقت في عرق بارد أخذ يتدحرج في ظهري كحبّات الرز ونسيم الخليل ينخر جلدي ويحيل العرق إلى صفحات جليدية. تذكرت يوم أخذتني إلى رام الله والأوتيل الكبير حيث تجتمع العائلات من كبار القوم والمغتربين. أنفاس الغرب ونسيم الشرق وضوء الغروب من بين الإبر الذهبية وارتفاع الصنوبر فوق غيم الصيف. ساحة ترابية تظللها ظلال اللزاب وغمام داكن يترنح فوق الممر والقرطاسيا عند المدخل ثم حشايا من الكريتون بالوان القرفة والنعنع فوق الكراسي الخشبية وقش مجدول وزجاج الخليل يلمع في الضوء وحباب البرد حول البيرة وأغنيات انريكو ماسياس تموج مع الظل ونسيم الغرب من بين الشجر وأكتاف الناس المندمجين في عالمهم قبل حزيران. كان المغرب ثم المساء حين دخلنا ساحة مسورة مسحورة فيها أكشاك حجرية وعيون تلمع في الظلمة وفرقة صغيرة ومغن شاب وأنا وهي نرقص «تانجو» ونميل ببطء ونتماوج وهي تدندن مع ذاك الصوت واللحن القديم وأنغام الفرقة الصغيرة تعزف للحب. بدأت أردد كلمات اللحن المعروفة وأؤكد لها أني معها وأني لها وأني سأظل لها ذكرى وامتداد خيال. فشرقت بالدمع وهي تردد تلك الكلمات حين الزهرة تذبل وتموت لان الأيدي تتنازعها، تتخاطفها، تنهش فيها، فيذوي الجمال ويموت السحر في أحلى جفون.

ونظرت إليها أراقبها وأقارنها وانعف ما بقي من الذكرى وحنان القلب ووجدت امرأة تشبهها ترقص في الضوء على «وحدة ونص» لكن الوحدة مكسورة والهز ركيك. أينك مريم؟ أين جمالك؟ أين عيونك؟ أين الأجواء المسحورة من ريح الغرب تعبر فينا وتنادينا وقصص تندلع من الذكرى وعشق الرهبان المنسيين عبر الأقبية المدفونة تحت الأنقاض. حنانك يا رب! أنا إن برئت من ذاك الحب فلن أبرأ من دم الإبن وعذاب الروح المسفوحة على أرض الوعد.

وفي الطريق إلى الفندق صارحت الرجل بأحزاني فالتفت إليّ وقال بدهشة: «إذن هو أنت؟ أما حكاية! أما تاريخ!» ثم تذكر ووقف أمامي وامسك كتفي وقال بلهفة:

– تتذكر يا خوي و«نينا» ترقص؟ تتذكر راهبة في البلكون بأعلى طابق في المستشفى؟ راهبة واقفة في الباب هناك.

– لا أتذكر.

– راهبة في الباب!

– لا أتذكر.

– بأعلى طابق في المستشفى، راهبة بالاسود واقفة هناك؟

– لا أتذكر.

– في المستشفى تحت الكشّاف و«نينا» ترقص؟

– كانت ترقص وأنا سكران ومش صاحي.

– يا ابن الناس، كانت مريم!

وبدأت أعود بذاكرتي كي أتذكر، في ذاك الليل، من ذاك البعد وارتفاع البناء فوق أحراش الصنوبر وضجيج المكان، من بين النغمة المشروخة وطبول الرقص فوق صاجات مصرية وهز ركيك لامرأة شقراء تشاغلني، جاءت من موسكو تشاغلني، تسحب عيني من رأسي وتثير لواعج مدفونة من ذاك الوهم، من ذاك الحلم، من ذاك الجدب المتمترس ظهرت مريم، لكن عيوني المنشغلة بالجسد الشاب تحت الاضواء وغلالة شيفون والشعر الاشقر والذكرى ونزيف القلب ظهرت مريم، ذهبت مريم، عبرت، ولّت، أغلقت الباب.

(فصل من رواية «صورة وأيقونة وعهد قديم» الصادرة حديثًا عن «دار الآداب» البيروتية)

روائية فلسطينية من نابلس/فلسطين، مقيمة في عمّان/ الأردن

محمد علي طه

قصص من « بير الصّفا »

(ع بير الصّفا وردت حليمه
جدايل سود وارختهن حليمه
مسعد يا اللّي توخذه حليمه
غني لو كان بشحدّ ع الابواب)
(شاعر شعبي مجهول)

بوظة رُكَب

إلتقط قطعة نقود معدنية ذات عشرة شواقل من توفيراته ووضعها في جيب بنطلونه « الـ جينس » القصير وخرج من البيت إلى الشارع يحدوه الأمل بالوصول إلى « بوظة رُكَب » التي حنّ إلى مذاقها اللذيذ. وفي أثناء مشيه انتبه إلى أن الشارع يكاد يخلو من المارّة في حين أن حركة السير معدومة.

لم يشعر بوحشة ولم يقلق بل تابع سيره إلى أن رأى قنّاصًا على سطح أحد المنازل يصوب بندقيته نحوه فارتعد جسده الصغير خوفًا، وصرخ وكأنّ صوته خارج من أعماق بئر سحيقة : « يا ربّ أنقذني من شرّ القنّاص !! ».

وما كاد يتمّ لفظ دعائه حتى تحوّل إلى زهرة بيضاء يانعة جميلة في حديقة بيتهم. وبعد دقائق قليلة سار مطمئنًا لأن القناص قد يئس من الصيد والقنص وحمل بندقيته وانسحب قاصدًا مقرّ فرقته.

مشى الولد مسافة طويلة ميممًا نحو محل البوظة التي تسميها أخته الصبية الدلّوعة «آيس كريم» بينما تسميها أمه « دندرما » وتتلمظ شفتاها وهي تتذكر أيام طفولتها في الشام. وفيما هو سائر يغمره الأمل والفرح لمجرد خروجه من المنزل شاهد فجأة سيارة عسكرية تقف على بعد أمتار منه عند ناصية الشارع ورأى الجنود يصوّبون بنادقهم نحو صدره الصغير فتسمر مكانه وخرج نداؤه كأنه طالع من حنجرة غريق يطلب النجدة : « يا ربّ أنقذني من شرّ الجنود !! ».

وما كاد يلفظ استغاثته حتى تحوّل إلى فراشة ملوّنة جميلة تحوم حول الزهرة البيضاء في حديقة البيت وأما سيارة العسكر فقد اختفت.

استراح الولد قليلاً والتقط أنفاسه لاعنًا الخوف والجنود والبنادق ثم سار ولسان حاله يقول: لا بدّ من «بوظة رُكَب» وإن طال السفر.

سمع دويًا قويًا فوقف بجوار سور إحدى العمارات متوجسًا قلقًا ينظر إلى البعيد. وفيما هو كذلك شاهد دبابة كبيرة مثل بناية تندفع في الشارع وفي مقدمتها فوهة مدفع طويلة مثل خرطوم الفيل أو مثل فم «الغولية» التي اعترضت طريق الشاطر محمد.

وخرج صوت الصبي شادي كأنّه يأتي من غبار سنوات بعيدة: «يا ربّ أنقذني من شرّ الدبابة!».

وما كاد يصل إلى جنازير الدبابة حتى تحوّل إلى عصفور أزرق صغير طار وحلّق حتى وصل إلى حديقة بيتهم وحطّ على فرع من شجر الليمون وصار يغرّد للفراشة الملوّنة والوردة البيضاء الناصعة في حين ابتلعت الأرض الدبابة المتوحشة.

وهنا نادته أمه: شادي! إنهض يا بني فالفطور جاهز.

فتحرك جسده الصغير تحت الغطاء ثم قعد على سريره وهو يفرك عينيه العسليّتين بأنامله الصغيرة ويحدّق في أثاث الغرفة المتواضع!!

لعبة

وقف فادي على الرصيف مقابل العمارة رقم ١٧ ورفع رأسه ومدّ رقبته ونادى: «ليلى!!» مرتين، فجاء صوت البنت من الطابق الثاني «أيْوَه. أيْوَه. لحظة!».

- تعالي نلعب معًا.

- سوف أستأذن ماما وآتي فورًا.

إنتظر فادي على الرصيف دقائق قليلة فجاءت ليلى مبتسمة تحمل سلة صغيرة فيها دميتها وبقية ألعابها.

أمسك راحتها الصغيرة بيده الصغيرة وسارا معًا إلى حديقة دارهم وجلسا على النجيل الأخضر في ظلّ شجرة الليمون الخضراء.

- أهلاً بك. ماذا تحبين أن تشربي؟

ضحكت ليلى ملء صدرها فابتسم ورد الحديقة وقالت:

- ما الطفك واكرمك اليوم!!

- أتدرين لماذا؟

– لا .
– إحزري!
– لأنك لطيف .
– لا .
– لأنك كريم .
– لا .
– لأنك تحب سلّتي . .
– قرّبت .
وضحكا فرحين كأنه لا أحد في الدنيا سواهما .
وقالت ليلى : « يللاّ . تعال نلعب . هذه الدمية » وتناولت الدمية من السلة ووضعتها على العشب ، وتابعت : « ومعي أيضاً الطبيب والممرضة » .
– دعينا من الطبيب والممرضة والمستشفى والمرض والوجع والدواء .
– ماذا تريد؟
– تعالي نلعب لعبتنا الممتعة الحلوة . نلعب الرجل وزوجته!
– حسناً أنا موافقة . ولكن دعنا نلعب المرأة وزوجها .
كشّر فادي وقال مثل رجل له شاربان : الرجل وزوجته!
احتدّت ليلى وردّت بصوت عالٍ : قلت لك المرأة وزوجها .
غضب فادي وقال : أنا الرجل هنا ويجب أن تنفذي كلمتي .
نهضت ليلى وقالت بحزن : أنت عنيد والحياة صعبة معك . سأعود إلى أمي .
وحملت سلّتها ومشت .

الإنتظار

مات الشاعر عصام الشامي ، رحمه الله ، تاركاً وراءه ثلاث مجموعات شعرية غير مطبوعة ومسودة كتاب نثري عن « علم النجوم عند العرب » وديناً للبقال؛ فبكته زوجته وجلس إبناه ثلاثة أيام في بيت العزاء يستقبلان المعزّين من أصدقاء ومعارف يقدمان لهم القهوة السادة والسجائر والتمر المجفف . ونشرت الصحف المحلية خبر وفاته في صفحاتها الداخلية . وأرسل ثلاثة أعضاء يشكّلون المعارضة في المجلس البلدي رسالة رسمية إلى رئيس البلدية ، يطلبون فيها عقد جلسة غير عادية لتخليد شاعر البلدة بإطلاق اسمه على أحد شوارعها أو إحدى مدارسها . ولأن رئيس البلدية شخصية دمقراطية ووطنية ويعرف

القانون والأصول فقد استجاب إلى طلبهم ودعا إلى عقد جلسة عاجلة وغير عادية للمجلس البلدي خلال ٧٢ ساعة من وصول رسالة أعضاء المعارضة إليه.

وفي الساعة المقررة من اليوم الموعود وبعد أن اكتمل النصاب القانوني افتتح الرئيس الجلسة بالوقوف دقيقة حداد على روح الشاعر المرحوم عصام الشامي، ثم ألقى خطابًا بليغًا عدّد فيه مناقب المرحوم وأهميته الثقافية، ثم قال: فكّرت أن أطلق اسم المرحوم على إحدى المدارس. ولكنكم تعرفون أن المدرسة الثانوية تحمل اسم رئيس الدولة الأول.. والمدرسة الإعدادية على اسم الجاحظ، الكاتب والأديب الكبير، وأما المدارس الابتدائية الثلاث فتحمل أسماء المتنبي والمعري والسيدة فاطمة الزهراء. ولا يصحّ لأسباب حضارية وتراثية وقومية أن نغيّر اسم إحداها. وأما الشوارع فعندنا شارع الحجاج بن يوسف الثقفي، وشارع زياد بن أبيه، وشارع الشنفرى وشارع داحس والغبراء وشارع البسوس. وفي رأيي أن شاعرنا المرحوم عصام الشامي يستطيع أن ينتظر على الأقل نصف المدة الزمنية التي انتظرها هؤلاء العباقرة حتى أطلقت البلدية أسماءهم على مدارسها وشوارعها، وعندئذ لكل حادث حديث.

وانتهت الجلسة بجوٍّ دمقراطي حضاري احتفالي!

التضحية

وقف بشير الزعيم على صندوق خشبي في سوق السبت عندما كان الرجال والنساء والأطفال، باعة ومشترين، يملاون ساحة السوق في ضحى ذلك النهار، وقال بصوت عال: يا سامعين الصوت صلّوا على النبي. أوّلكم محمد وثانيكم علي وثالثكم فاطمة بنت النبي.. أنا رجل وطني!

نظرت زينب النجار إليه وهي تحمل زهرة القنبيط بيدها وقالت: وطني؟ يمكن! أما رجل فلا!!

وقال بائع الهريسة: صمت دهرًا ونطق كفرًا. هريسة بلوز. تعال يا ولد!

وتصدّى له عوّاد بائع الترمس: وطني ونص!

ودار نقاش بين روّاد السوق حول الرجولة والوطنية واستذكروا قصة بشير الزعيم قبل أربعة عقود عندما حضر حفل يوم استقلال الدولة الذي أقامه رئيس البلدية والحاكم العسكري، وحينما دخلت فرقة الكشافة إلى ساحة البلدية بطبولها وأعلامها وقف بشير وصاح: «عاشت سوريا!» فهجم عليه موظفان وجندي واقتادوه إلى أمام المنصة فترجّل الحاكم العسكري عن المنصة واقترب منه وضربه بالشلّوت على مؤخرته وقال: انصرف إلى

سوريا يا ابن الشـ. . . !!

وانصرف بشير الزعيم. . لا يتفوّه مع أحد. ولا يتكلّم إلاّ بالإشارة. حتى عندما كان يمر في الشارع ويقول له صبي مشاكسًا ومناكفًا: «عاشت سوريا»، كان يهزّ رأسه ويواصل سيره عائدًا إلى بيته ويردد بينه وبين نفسه: «ضحّيت بما فيه الكفاية!!».

تأبين

تحلّقنا حول النعش متنافسين في إظهار الحزن والأسى واللّوعة على وجوهنا وفي عيوننا، لفقدان زميلنا وصديقنا المغني الذي طالما نالته ألسنتنا الحادة بالتجريح والسخرية من موهبته الضئيلة وصوته الخشن وكلمات أغانيه التافهة الخالية من الحياة والحب.

كنت أول المؤبّنين فبكيت واستبكيت وأبرزت عظمة الفقيد وخلود أغانيه الرائعة الإنسانية وأنهيت كلمتي: «ستبقى أغانيك ما بقي سنديان الجرمق وزعتر الكرمل!».. وصافحت زوجته التي أجهشت بالبكاء.

وتكلم بعدي زميلنا الصحفي حمّاد الغتّام فتحدث عن مشاركة السماء لنا في الحزن لأن نجمًا هوى وعلمًا سقط، وأبرز خسارة الفن بوفاة المرحوم وقارن بين أغانيه وأغاني سيد درويش وصالح عبد الحي.. ونظر إلى الأرملة وأجهش في البكاء قبلها.

وبذّنا جميعًا زميلنا الشاعر ممدوح السهلي بقصيدة عمودية ذكرتنا بمراثي حافظ إبراهيم، مُظهرًا لوعة الفن على الصوت الشجيّ وكيف اتّشحت عشتروت بالسواد.

وأما صديقنا فهد، السياسي المخضرم، فتحدث عن صمود شعبنا ومقاومته للاضطهاد والتمييز والعدمية القومية ودور الفقيد الريادي في هذه المعركة من خلال أغانيه وصوته.

وتقدم رجل الدين فقرأ آيات مناسبة وعدّد مناقب الفقيد ودوره في مساعدة اليتامى والفقراء وأعمال البر والتقوى.

ورفع زميلنا المتوفى رأسه وأطلّ بوجهه الزعفراني وقال بهدوء: يا أبناء الآدميات. لماذا لم أسمع كلمة واحدة من كل هذا الطوفان في حياتي؟

واختفى.

واختفينا.

عشّ الحمامة

بعثت شمس أيار الدفء في القلوب والبهجة في النفوس، وتلالأت حبيبات الندى على وجنات الأزهار، ورقصت الفراشات المزركشة، وسقسقت العصافير في عرس الطبيعة،

فتشجعتُ وفتحتُ الشباك الشمالي في دارنا فوجدت على رخامه قشًا وعيدانًا فنظفته معتقدًا أن رياح الشتاء وعواصف «المستقرضات» حملتها من الحقول والحدائق المجاورة وألقت بها في شباك بيتنا.

وبعد أيام معدودة فتحتُ الشباك نفسه فدهشت عندما وجدت العيدان الصغيرة والقش مرة ثانية فعاينت أباجور الشباك فوجدته سليمًا، وجمعت العيدان والقش وألقيت بها في سلة المهملات ومسحت الرخام بخرقة تناولتها من المطبخ.

سافرتُ وزوجتي الشابة لقضاء عطلة قصيرة في شرم الشيخ ولما عدنا اتجهت مباشرة إلى الشباك ففتحته، وإذا بحمامة تطير مذعورة تاركة عشًا فيه بيضتان صغيرتان يزيّنهما نمش خفيف.

ناديت زوجتي لتشاهد عشّ الحمامة. ودار بيننا نقاش حول مصير العش، واتفقنا على أن نبقي العش على رخام الشباك لا سيما أن الحمامة استجارت بنا.

وصرنا نراقب الحمامة وعشها يوميًا.

وفي صباح يوم مشرق شاهدنا زغلولين أسمرين يغطيهما ريش الحرام.

سعدنا ونحن نراقب زوجي الحمام في الأيام التالية، واحدًا يحرس العش والثاني يسعى للطعام. ونسينا التلفاز والسهرات والمشاوير ولم يشغلنا شاغل سوى زوجي الحمام والزغلولين الناعمين.

وذات صباح، وفيما أنا أشرب قهوتي وأدخّن سيجارتي قالت لي زوجتي: سمير.. حبيبي.. أريد خيارة مخلّلة!!

العصفور

ذلك الصباح، لم يصدق الطفل ربيع ما تراه عيناه على شجيرة الرمان في الحديقة البائسة لاطلال بيتهم في مخيم جنين فصاح بفرح غير عادي: ماما.. ماما. تعالي شوفي. عصفور دوري على الشجرة. عصفور. عصفور. عصفور!!

ضربة

كان يقف في المجمّع التجاري سارحًا يحدّق بالبضائع المعروضة ويقرأ الأسعار بلا هدف حينما مرّت أمامه وحنت جذعها الشاب مثل راقصة وضربته بمؤخرتها، فصحا من ذهوله ونظر إلى العجيزة السمينة المحشورة في بنطلون الـ «جينس» الأزرق الكالح فتدفق الدم في شرايينه، وهمّ أن يلحق بها فسمعها تغمغم بكلمة لرفيقتها وضحكتا بصوت عالٍ.

بقي واقفًا في مكانه ونظراته تلاحق العجيزة السمينة حتى ضاعت بين روّاد المجمع التجاري.

شريفة

اشتغلت مدام شريفة ثلاثة وعشرين عامًا زانية وتنقّلت في أثناء عملها من فنادق الدرجة الأولى إلى فنادق الدرجة الثالثة ثم إلى شاطئ البحر ثم إلى الأماكن المعتمة في المدينة. وعرفت شبانًا وشيوخًا وأوغادًا ورجال أعمال ومحامين وشيوخًا. ولّما لم يعد أحد يهتم بجسدها الكاسد عملت قوّادة سبعة عشر عامًا تخدم علية القوم من قضاة ورؤساء بلديات ومديري شركات وتجّار مخدرات وأعضاء برلمان. وغضب صحفي من مستوى خدماتها فكتب ريبورتاجًا طويلاً في صحيفة عنها وعن زبائنها مما أدى إلى زيادة شعبية جريدته بين القراء، وأما هي فانقطع رزقها.

ارتدت حجابًا وسافرت لتؤدي فريضة الحج في الديار الحجازية وعادت شيخة تقيّة لا شغل لها إلاّ الصلاة وعمل البرّ وقراءة الكف للترويح عن نفسها.

لما التقيت بها أمس مددت راحة يدي إليها فتناولتها وحدّقت فيها طويلاً، ثم نظرت إليّ وقالت: اللهم إهدِ أمّة محمد!!

حلّة الشعر

وقفت سلمى الخيّاط أمام المرآة فشاهدت عشرين ربيعًا يمرحون في عروقها وفي كل ربيع أزهار وأقمار وجداول وأشجار، وينابيع وعصافير وعنادل، فبدأت تغني وترقص وتتمايل. وفيما هي فرحة باغتها أخوها بصراخه «ناويه على حلّ شعرك يا بنت الكلب!». وصفعها على خدها الناعم المورّد وطرحها أرضًا وهي تستغيث: «أنا طنيبة على عمرك يا عدنان!». وجلس على بطنها وأطبق بكفيه على عنقها الماسي وهو يرغي ويزبد: «مش رايح أخليكي تدنّسي شرفنا!!».

وهنا سمع عدنان صوت فيروز من راديو الجيران يردد «يا مرسال المراسيل» فارتخت أصابعه وسمع سلمى تتمتم «وصلته.. لـ.. مها». وارتخت شفتها السفلى.

شرف العائلة

خرج طاهر الذيب من بيته في «حارة التينة» بعد آذان العشاء وتوجه إلى خمّارة «سبع الفلا» في «حارة النصارى». وفي الطريق المعتم مدّ يده بحركة لا إرادية وتحسّس خنجره

المجدلاوي الرابض تحت زنّاره منذ سنوات .

وجد رفاقه ينتظرونه فحيّا الرجال بتحية الإسلام فردوا التحية بأحسن منها وأفسحوا له مكانًا حول المائدة فجلس .

نادى طاهر الذيب الولد النادل فهرع يقول باسمًا : « أأمُر عمّي أبو الذيب » فردّ طاهر « لا يؤمر عليك ظالم » وطلب نصيّة عرق « غزالين » وحسة لبنة .

تبادل طاهر الذيب مع ندمائه الفكاهات الفاحشة حتى منتصف الليل ثم قام وودّع من تبقى منهم وانصرف متوجهًا إلى « حارة الغجر » باحثًا عن فاكهة الليل .

فتح باب منزله قبيل الفجر فرحًا سعيدًا واتجه إلى غرفة النوم . وقبيل أن يخلع ملابسه شاهد « زهرة » نائمة في السرير وقد انحسر قميص نومها الشفاف وكشف عن فخذيها اللّذين يناديان الشهوة ، فتعالت نبضات قلبه وأطلّ الشيطان من عينيه . ونظر إلى وجهها الجميل فذعر عندما رآها متبرّجة فمدّ يده اليمنى إلى خاصرته اليسرى واستلّ خنجره وطعنها في صدرها بقوة وهو يصرخ : « من هو الكلب إبن الكلب الذي واعدته يا خائنة ! » .

العملية

وقف رعد السطل في الساحة الصغيرة بين مقهى « الوردة البيضاء » وبين نادي « السنوكر » وفتح عينيه وقال : « كلكم زبالة ! » .

كان الوقت أصيلاً والطقس ليس حارًا مع أنّ الخريف كان في بدايته .

اشرأبّت العيون نحوه .

قال سليم الحافي : وحّد الله يا رعد وامسح وجهك بالرحمن !

فبحره رعد السطل بحرة غاضبة جعلته يغضّ الطرف وينسى فنجان الشاي الذي لم يشرب منه إلاّ رشفة واحدة .

وقف ناصر عبده على عتبة النادي وبيده مقبض اللّعب وقال : كبّرها تكبر .. صغّرها تصغر يا رعد !

حدّق به رعد السطل وأجابه : حينما تتكلم الرجال لا مجال لامرأة مثلك !

فرد محتجًا بصوت فيه مسحة من الرعب : أنا إمرأة يا رعد ؟!

فقال رعد بحزم : وإبن إمرأة أيضًا .

فهزّ ناصر عبده رأسه مختصرًا الشر ، وقال : كلّنا أبناء حواء .

خرج صالح العنتير ، صاحب المقهى ، ووقف على الدرجة الثالثة والأخيرة من درجات

المدخل، وقال: تفضل يا رعد روّق مزاجك بفنجان قهوة مهيّل!

فرد بجفاء: قهوتكم سايطة. لا أريدها.

وقف الشيخ حسين النجار وكان في طريقه إلى مسجد عثمان بن عفان ليؤم المصلين في صلاة المغرب، وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. قال تعالى وإن جنحوا للسلم فاجنح لها. ضع عقلك في راسك يا ولدي يا رعد!

نظر رعد السطل إليه وقال. الجو مملوء برائحة الزبل يا شيخ حسين وما عدت احتمل.

حرّك الشيخ حسين باصابع يده اليمنى حبّات سبحته اليسر وقال: الصبر مفتاح الفرج.

– صبرنا بما فيه الكفاية. وأما الآن فساجعل القرد يقف على ذيله!

– لا حول ولا قوة إلاّ بالله!

– كلكم زبالة. وأنت مثلهم.

أرخى الشيخ حسين رأسه إلى أسفل ومشى.

نهض ممدوح الطبري عن كرسيه وسار خطوات وقال وهو يرسم ابتسامة على وجهه: يا عزيزي يا رعد. لا يجوز ان تهين البلد كلها فاهل بلدتنا أهلنا ولو اخطاوا. تعال ندخّن نفسْ شيشه ونشرب الشاي.

حدّق رعد السطل في وجه ممدوح الطبري وربطة عنقه الحمراء وذقنه الناعمة ورد: إشربها مع يونس الكلب.

– أنا يا رعد؟

– آ.. كلكم من فوق طقشة طقشة ومن لجوّا خرا محشي. سادوس اليوم على رقابكم جميعًا. كلكم عملاء ليونس الكلب.

وسحب رعد السطل مسدسه من جيبه واشهره وهو يقول: ايديكم إلى فوق ووجوهكم على الجدار يا زبالة!

وسارع رواد المقهى والنادي ورفعوا أيديهم محتضنين الجدار.

– دخيلك يا رعد!

– بعرضك يا رعد.

– ابوس يديك يا رعد. أولادي صغار.

– ابوس رجلك يا رعد. أنا عريس جديد.

وهنا اطلّت فتحية العكاوي من شباك بيتها وهي ترتدي ثوبًا ناعمًا شفافًا وقالت: عامل أبو علي يا سطل! إللّي بعرف بعرف واللّي ما بعرف بقول كف عدس!!

وأحنى رعد السطل رأسه كما يرخي الكلب ذيله ومشى!

بير الصّفا

ما وجد حجراً واحداً من حجارة بيته حينما عاد زائراً من مخيم البص قرب مدينة صور إلى مسقط رأسه ميعار، فقال بأسى ولوعة: «البلدة هدموها.. والحجارة سرقوها؟» وحطّ باب الغرب في وجهه ومشى.

وصل إلى بير الصفا.

لم يجد الصبايا الملآيات ولا جرار الفخار.

ولم يسمع صهيلاً ولا خوارًا ولا ثغاءً ولا نهيقًا.

أشواك يابسة تحيط بالبئر.

صعد الدرجات الخمس التي يعرفها جيدًا واطمأنّ قليلاً لأنها لم تتغيّر. ولما وصل إلى خرزة البير استنشق الهواء بنهم. وقال: الله الله يا عوض كم أرويت عطشنا من الماء الزلال!

جلس على مقعد عوض الحجري وحدّق في فضاء البير العميق فلم يرَ شيئًا. مدّ رأسه وأمال عنقه لعله يسمع خرير الماء فلم تسمع أذناه شيئًا. تناول حصاة ورماها في البئر وقلبه يخفق فلم يسمع ارتطامها بالماء فنزلت دمعتان ساخنتان من عينيه وضاعتا في تجاعيد وجهه، وقال: يا بير يا بير. أنا محمود العبد. محمود الذي يأتي إليك صباح كل يوم على ظهر الأصيلة الزرقاء لِترِدَ الماء. يصفّر لها. ويجلس هنا ويلف سيجارة. ويناول علبة التتن لعوض. ويدخنان بلذّة وهناء. والماء السلسبيل يجري ويجري. وعصافير الدوري تتقافز. وعوض يغمز بعينه ويقول «بعد شويه ستَرِدْ أم الجدايل». ويغني عتابا.. صاح محمد العابد يا بير يا بير يا بير!!

وأفاق مذهولاً حينما سمع خرير الماء يتدفق.

مجنون عكا

حملني فوّاز من باب الفندق بسيارته الصغيرة وهو يقول: «ستقوم بجولة سياحية في شوارع عمان وأحيائها لتتعرّف على المدينة. قل لي: كيف حال عكا؟»، فأجبته مبتسمًا «تسلّم عليك!». فقال وهو يحاول أن يجد لسيارته الصغيرة متسعًا في الشارع بين عجقة السيارات: «حلوة عكا. حلوة!». قلت: «لكل مكان في الدنيا جماله الخاص». ويبدو أن إجابتي لم تعجبه، فقال: «صحيح. ولكن يا عزيزي عكا حلوة. وكل من زارها يقول ذلك».

كان يقود سيارته بهدوء إلى حيث لا أدري ولا يتوقف عن الكلام. «شايف. هذه العيادة.. هناك على اليسار.. لطبيب قلب مشهور من عكا. هذا طبيب العائلات

الأرستقراطية . له شهرة عالمية . وعلى يمينك . . هذا المتجر الواسع الكبير لتاجر من عكا . أنعم الله عليه وفضّل . يستورد بضائعه من الخارج من لندن وطوكيو . وهذا المحل الذي أمامك . . هناك . . لرجل عكيّ . والله يا عزيزي حلوياته عكاويّة ميّه في الميّه . تشعر بلذة وأنت تأكلها . حلوة وزاكية . . أنظر على يمينك . البناية الثانية . أربع طبقات .

« بناية كبيرة وجميلة هندستها رائعة . هذه البناية لعائلة من عكا تعمل بالحسابات . عندهم مكاتب وموظفون . إنتبه جيداً . بعد لحظات سترى متجرًا لبيع الجلود لتاجر عكّي . له فرع هنا وفرع في جدة . في السعودية . وفرع في مدينة أُخرى . أين يا فواز ؟ إسمها على رأس لساني » .

ونظر إلى الرصيف وخفّف من سرعة سيارته ونادى « هيه . . أبو فراس . قف يا رجل » ، وأوقف سيارته بجوار الرصيف . وجاء أبو فراس مدهوشًا فقال له : تعال سلّم يا رجل . هذا ضيفنا . . من جُوّه . أبو فراس رجل على كيفك . دكتور في الاقتصاد . يدرّس في جامعة عمان . . وابتسم ابتسامة عريضة وتابع « صاحبنا من عكا . بلدياتي » . وتبادلنا التحيات والمجاملات ثم ودّعه فواز وقاد السيارة .

« هل ترى هذه البناية القديمة . بناية عريقة وجميلة . كانت دارًا لقائمقام المدينة . جاء من عكا إلى هنا في زمن الانتداب » .

والتفت إليّ وقال : « ما رأيك بفنجان قهوة على الريحة في هذا المقهى الهادئ ؟ » .

أوقف السيارة وترجّلنا وهو يقول « هذا مقهى هادئ ونظيف يرتاده كبار القوم يملكه رجل عكاوي . إنسان بسيط ومحبوب » .

سلّمنا على صاحب المقهى وجلسنا حول طاولة صغيرة لنشرب القهوة .

سألني : هل أعجبتك عمان ؟

أجبت : عكا حلوة .

قال : طبعًا .

قلت : ولكن الفلاحين يقولون « عكا حلوة . بس ريحتها مخمّه ! » .

قال : وهذا سرّ جمالها .

وضحك .

وضحكت مجاملاً .

133
نصوص

قاص فلسطيني من ميعار مقيم في كابول / الجليل

محمود شقير

خريف غامض

خلال شهور الصيف كلها لم يبادلها الحديث، بل إنه تحاشى في كثير من الأحيان الاقتراب منها، كي ينجو من ثرثرتها المملة، ومن حكاياتها الكثيرة التي لا تنتهي.

كان يأتي إلى المسبح في وقت متأخر من الصباح، يغمر جسمه في الجانب الضحل من الماء، ثم ينزوي في ركن بعيد يتصفح مجلة أو يقرأ كتابًا، وحينما يشتد لفح الشمس ينتقل إلى أقرب مظلة شاغرة، يتمدد تحتها، يجيل نظره لحظة في أجساد النساء المتناثرات هنا وهناك، وينهمك في تدوين بعض الملاحظات التي قد تنفعه ذات يوم في كتابة رواية ظل ينتظر ولادتها أعوامًا، فلم تغادر أعماقه حتى الآن.

لا يدري لماذا قرر في هذا الصباح الخريفي أن يأتي إلى المسبح، فالطقس لم يعد ملائمًا للسباحة، والمسبح بدا خاليًا من رواده تقريبًا. أحسّ بالكآبة وهو يرى الكراسي الفارغة والطاولات الجاثمة في صمت، وتساءل: لماذا تبدو الأمكنة باعثة على الأسى حينما يهجرها الناس؟ حدق مليًا في ماء البركة، كانت هبات خفيفة من الهواء تترك تموّجات رقيقة على وجه الماء.

أعاد على نفسه السؤال: لماذا قرر في هذا الصباح الخريفي أن يأتي إلى المسبح؟

ربما كانت تلك الفتاة التي جلست بالقرب منه قبيل أيام هي السبب، جاءت بصحبة امرأة أخرى، عرف خلال الحديث العفوي الذي جرى بينه وبين المرأتين، أنها زوجة أخيها، وقد جاءتا للمرة الأولى إلى المسبح، وهي، كما يبدو، لم تجئ للجلوس بالقرب منه عن قصد مسبق، كل ما في الأمر أن كرسيًا من تلك الكراسي التي يمكن فتحها إلى أقصى حد ممكن لكي تتحول إلى سرير مريح، كان شاغرًا، لذلك جاءت وتمددت هناك. لحقت بها زوجة أخيها وجلست على حافة السرير، فظهر نصف نهديها تقريبًا دون أن يبدو عليها أي ارتباك. راحت المرأتان تثرثران حول مسائل كثيرة كما لو أنهما في البيت، ولم تتوقفا عن توجيه الحديث إليه كما لو أنه أحد أفراد الأسرة. كان منظره يوحي بشيء من الألفة

التي جعلت المرأتين غير منتبهتين إلى أنهما تتحادثان مع رجل غريب، بل إن زوجة الأخ قالت للفتاة دون تردد: حينما يرزقك الله بابن الحلال الذي سينال إعجابك، ستأتين معه إلى المسبح طوال أشهر الصيف. ردت بهدوء وثقة: لست مستعجلة على الزواج. كانت فتاة جميلة في السابعة والعشرين. قال لها دون مقدّمات: أنت في سن مناسب للزواج. قالت: أعرف، لكنني أحب أن اختار عريسي بدقة وانتباه. قال لها: أنت جديرة بعريس ممتاز. ابتسمت، وزوجة الأخ قالت: فعلاً إنها جديرة بزوج ممتاز. حلّت لحظة صمت، تشاغلت زوجة الأخ بالنظر إلى البركة حيث يسبح بعض الشبان وهم يتصايحون. مرت الفتاة بباطن كفها على بطنها العاري، قبضت بكلتا يديها على أطراف سروال السباحة الزهري الذي ترتديه، وأنزلته إلى ما تحت سرّتها، ظهر شيء من شعر عانتها، بعد لحظة أعادت السروال إلى موقعه. كان كل قصدها أن تعدله على جسدها، لم تشعر بأي حرج وهي تفعل ذلك أمام الرجل الذي بدا وكأنه أحد أفراد الأسرة. بعد استراحة قصيرة نهضت الفتاة وزوجة أخيها وانطلقتا إلى الماء، لم تخرجا من هناك إلا قبيل الغروب، خرجتا، لملمتا أشياءهما بسرعة وغادرتا البركة، والرجل غير قادر على استجماع أفكاره المشتتة، لكي يقول للفتاة شيئًا، أو لكي يسألها إن كانت ستأتي في اليوم التالي إلى المسبح، أو في اليوم الذي يليه، بل إنه لم يعرف اسمها، لم يجد وقتًا لكي يسألها عن اسمها، على الأصح، لم يجد مناسبة لطرح مثل هذا السؤال عليها، لكنها في حقيقة الحال مسّت قلبه، ولم يشعر بأنه هو الزوج المناسب لها، فلماذا أصابه كل هذا الانجذاب نحوها؟ وما جدوى ذلك، ما دامت معنية بالتدقيق في عريسها المنتظر، الذي سيكون بكل تأكيد، أصغر منه بعشرين سنة على أقل تقدير! قال لنفسه: كل شيء ممكن في هذه الحياة، لماذا لا يكون هو عريسها المنتظر؟ (خذ بيكاسو مثلاً، الذي أقام علاقة استمرت عشر سنوات، مع فتاة في الثانية والعشرين من عمرها وهو في الثانية والستين! لكنك لست مشهورًا مثل بيكاسو! ومع ذلك، من يدري؟) قرر أن يأتي في اليوم التالي إلى المسبح لعلّها تأتي. جاء في اليوم التالي، وجاء في الأيام العشرة التي تلت ذلك، ولم تأت الفتاة، كأنها لم تكن ذات مساء تتمشّى هنا فوق بلاط المسبح بكل خيلاء. اغتمّ باله وتحسر على تلك اللحظة العابرة، التي لم يستطع استثمارها على نحو معقول. فكّر أن يجوب أحياء المدينة وشوارعها لعله يعثر عليها أو يلتقيها صدفة، لم يفعل ذلك، اكتفى بالمجيء إلى المسبح لعلّها تعود إليه ذات يوم.

دقّق النظر في الجهة البعيدة التي يقع عندها كشك البوظة المغلق، رأى امرأة تجلس هناك. لم يعرف أنها هي دون غيرها، لأن حشدًا من أرجل الكراسي والطاولات وقف حائلاً بينه وبينها. كانت كعادتها كلما خرجت من الماء، تمشّط شعرها، أو تضع على خديها أصباغًا

مختلفة، أو – وهذا قليل الحدوث عمومًا – تبكي بصمت، فيحتشد من حولها الأولاد والبنات، يسالونها عن سبب البكاء، فلا تكف عنه ولا تجيب السائلين.

جلس في الجهة المحاذية للمسبح، تأمل نوافذ الفندق القريب: إنها مغلقة بإحكام، فثمّة ريح خفيفة وغبار، ولا أحد من زبائن الفندق معني بالسباحة كما في الأيام الخوالي، غير أنه في اللحظة ذاتها رأى صبيًا يخرج من صالة الفندق وهو بملابس السباحة، ألقى الصبي بجسده في الماء دون احتراس، تابعه مراقب المسبح بانتباه، إلى أن وصل الجهة الضحلة من الماء، ثم عاد إلى الاسترخاء في كرسيه وكأنه على وشك أن ينام.

انتبه الرجل فجأة، فإذا بالمرأة تقف على مقربة منه، وفي يدها كرة مطاطية. بدا مصعوقًا للحظة حيث لم يتوقعها بتاتًا. قالت بعفوية زائدة ودون مقدّمات:

– هيّا، سنلعب أنا وأنت في الماء.

جذبته من ذراعه، مضت تتقلقل مثل حافلة وهو يسير خلفها دون رغبة منه، حاولت تمازحه بدفعه إلى جوف الماء، وهي تمسك بالسياج الحديدي:

– اتركيني، سأنزل في الماء وحدي.

قفزت، هوت في قلب الماء، فأثارت من حولها دائرة واسعة من الرذاذ. مدّ قدميه بحذر، هبط في الجهة الضحلة، خوّض في الماء وهو يرتجف من شدة البرودة. رمت الكرة في اتجاهه، قالت له إن ذلك ضروري لمقاومة البرد. استمرت اللعبة، أحسّ بالسأم بعد وقت، همّ بمغادرة الماء، تشبثت به:

– ساعلّمك لعبة أخرى.

جعلته يقف على أرضيّة المسبح فاتحًا ساقيه على وسعهما، سبحت تحت الماء ودخلت من بين ساقيه، حينما ابتعدت عنه توقّفت عن السباحة:

– الآن جاء دورك، هيا ادخل بين ساقي.

أحسّ بالحرج، كان فخذاها في غاية الامتلاء، حدّق في عينيها ليتأكد من نواياها، لم يستطع أن يرصد شيئًا محددًا، تشاغل بالنظر إلى الصبي الذي اقترب منهما، وهو يسبح بمهارة، وعيناه تلتمعان مثل عيني سمكة. حدجه الرجل بنظرة زاجرة، فانثنى مبتعدًا وهو يغمر وجهه تحت الماء.

نادته من جديد، خجل أن يخبرها بأنه لا يجيد السباحة، قال:

– لا أجيد الغطس.

اقتربت منه، حاولت أن تجره إلى الجهة العميقة من الماء، تملّص منها في خوف، ضحكت ثم انهمكت لحظة ترنو إلى المراقب وهو يقفز في الماء ويسبح مثل دلفين:

- هل أناديه لالعب معه؟
- إفعلي ما تشائين، أنا لا دخل لي.
- لا، لن أناديه، سابقى إلى جوارك.

استدار الرجل ومشى بصعوبة في الماء ثم خرج، تبعته فوراً، ركضتُ إلى حيث حقيبتها وملابسها، حملت كل شيء واتجهت نحوه، وقفت قربه وهو ينشف جسده المرتجف:

- من ينظر إلى الشيب في رأسك يعتقد أنك تجاوزت الخمسين.

قال في مناكفة مقصودة:

- تجاوزت الخمسين فعلاً.
- مع ذلك، ما زلت في غاية الصحة والشباب.

تجاهل كلماتها، لام نفسه لانه جاء إلى المسبح هذا اليوم. تمدد على البلاط بحثاً عن شيء من الدفء، استمر هواء الخريف يلسع جسده. أدركت أنه يتجنب الحديث معها، صمتت وراحت تمشّط شعرها كالعادة. حدّق في السماء، راى غيمة قادمة من بعيد، استعرض حياته: وجدها سلسلة متلاحقة من الخيبات والأحزان. أخرج دفتراً وقلماً، ودوّن بعض الملاحظات التي قد تساعده على كتابة الرواية المنتظرة.

ألقى نظرة سريعة على المرأة، لم تكن تعيره اهتماماً، ويبدو أنها نسيته تماماً. تأمّلها خلسة، ولاول مرة وجد فيها كائناً يملك ان يقول شيئاً له دلالة ما. قال وهو يرنو نحو الغيمة التي أخذت تقترب:

- هل تحبّين التأمّل في السماء؟

لم ترفع رأسها نحوه، قالت دون اهتمام:

- ليس دائماً، أنا مشغولة في أغلب الأوقات.
- هل تعيشين وحدك؟

توقفت فجاة عن صبغ خديها، حدّقت فيه وفي عينيها شك ما:

- كيف عرفت؟
- أنا لا اعرف شيئاً، إنه مجرد سؤال.
- رايتك قبل أيام وأنت تتجول في حيّنا، عرفتك وأنا أتابعك من الشبّاك.
- لا أذكر انني تجولت في أي مكان منذ اسابيع، ربما رأيت شخصاً يشبهني.
- أنا متأكدة من كلامي، وأعرف لماذا كنت هناك، كنت تبحث عنها.
- من هي؟ من هي التي كنت ابحث عنها؟ (هل ثمة من يقرأ أفكاري ويقوم بتجسيدها في مكان ما!)

– تعتقد أنني بلهاء، لا أعرف شيئًا؟ رأيتها وهي تكشف لك عن أسفل بطنها.
– ما الذي تقولينه يا امرأة؟ الأفضل لك أن تكفّي عن مثل هذا الكلام.
عادت إلى الانهماك في أخذ زينتها بحيث بدت وكأنها لا تشعر بوجوده مجددًا. ادرك أنه أمام امرأة مثيرة للفضول، مرّت في أعماقه لحظة ندم لأنه ظل يتجاهلها طوال الوقت. فكر ان يسألها إن كانت تعرف ابن تسكن الفتاة، أيقن أنها لن تدلّه على بيتها حتى لو كانت تعرف أين يقع، عليه تأجيل السؤال حول ذلك، سيطرح عليها السؤال في الوقت المناسب. والآن، ثمة فرصة ملائمة لجمع معلومات قد تفيده في كتابة الرواية، اقترب منها:
– أحب أن أسمع منك كل شيء عنك أنت بالذات، قد أكتب عنك شيئًا ذا بال.
– هل أنت كاتب؟ لا يبدو عليك أنك كاتب.
– إنني كاتب، وأنا لستُ من الذين ينتحلون صفات ليست لهم.
غامت عيناها لحظة:
– وأنا طفلة، كان يسكن في قبو مجاور لبيتنا كاتب، حذّرتني أمي منه، قالت إياك ان تقتربي من غرفته، فهو يقتل الأطفال ثم يصفّي دمهم في زجاجات ويبيعها لتجار مجهولين.
– هل تصدقين هذا الهراء؟ الكتّاب أناس مسالمون. إنهم الاكثر مسالمة في هذا الكون.
– كلامك صحيح، لكنني آنذاك خفت وصدقت. عن أيش بدك تكتب بالضبط؟
– عنك وعني وعن أوضاعنا المفجعة. هل هناك شيء آخر؟
– وما علاقتي أنا بالامر؟
– انت، وانا، والآخرون جزء من هذه الأوضاع.
– ألا تخاف؟
ابتسم محاولاً إخفاء غروره:
– إذا كنت لا تمانعين فسوف أسالك عددًا من الاسئلة، ولا داعي للتفاصيل المحرجة، هل توافقين؟
أخذت تجمع ملابسها المتناثرة:
– لماذا لا أوافق؟ طبعًا أوافق، بس مش اليوم.
– متى إذًا؟ هل ستذهبين الآن؟
– أنا آسفة. فطنت إلى ان لدي موعدًا مع الطبيب، هل يمكن تأجيل ذلك إلى وقت آخر؟
– ما دامت هذه رغبتك فليكن. هل يناسبك الغد؟
– طبعًا. لماذا لا يناسبني؟ هنا، في هذا المكان؟

- معقول جداً. وإذا كان الطقس بارداً، نجلس في صالة الفندق ونشرب شيئًا ساخنًا.

في الصباح التالي، وصل إلى المسبح مبكراً بعض الشيء.

كان الطقس أميل إلى البرودة، وثمّة احتمالات لسقوط المطر، لم يجد في المسبح أحداً. اتجه إلى صالة الفندق، احتسى فنجان قهوة، انتظر طويلاً، غير أن المرأة لم تأت، ظل يقلب الأمر في ذهنه ويفكر في الأسباب التي حالت بينها وبين المجيء، حتى بلغت به الحيرة منتهاها. قرر أن ينتظر حلول الصيف القادم، لعله يراها من جديد، ولعلها تدله على مكان تلك الفتاة التي ما زال يبحث عنها، منذ أن حكمت عليه حكمًا قاسيًا بذاك الغياب.

قاصّ فلسطيني مقيم في جبل المكبّر / القدس

حسونة المصباحي

صورة تقريبيّة للعالم الآخر

قبل أن أقصّ عليكم رؤياه التي سبقت رحيله بشهرين بالضبط، يبدو لي أنه من الأفضل أن أتوقف عند بعض اللحظات من حياته التي قاربت السبعين عامًا، وبالخصوص، عند بعض تفاصيل العلاقة التي جمعتني به وأنا على عتبات الشباب، وظلّت قوية متينة إلى أن وافاه الأجل المحتوم.

ثمة أعوام تكثر فيها المفاجآت السارة، وأيضًا الخير والبركة. كذلك كان العام ١٩٥٥. فقد حصلت بلادنا على الاستقلال الداخلي الذي سوف يفضي بعد ذلك بعام واحد إلى الاستقلال التام. ومن الجبال الجرداء المحيطة بنا، نزل عشرات من رجال قريتنا والقرى المجاورة ليسلّموا أسلحتهم للسلطات الجديدة عقب سنوات من القتال المرير مع جيش الاحتلال الفرنسي. وعلى شرفهم أُقيمت احتفالات بهيجة استمرت أيامًا ولياليَ. وعنّا انزاح ذلك الخوف الأسود الذي لازمنا فترة مديدة بسبب انعدام الأمن في الطرقات ودوي الحرب البعيدة أحيانًا، القريبة أحيانًا أخرى حتى لكأنها تدور في قلب قريتنا الصغيرة لتزيد بذلك في روع الأطفال والنساء بالخصوص. وشاعت أخبار جاءت ساخنة من العاصمة البعيدة تقول إن زعيم البلاد عاد من منفاه الطويل وإن الناس الذين استقبلوه بمئات الألوف رفعوه على الأكتاف مسافة عشرة كيلومترات. ثم إن الأمطار تهاطلت بغزارة في جميع الفصول تقريبًا منهية بذلك جفافًا مريعًا أيبس الشجر، وشقّق الأرض، وقتل أعدادًا وفيرة من الدوابّ والشياه والدجاج، وبات يهدد الناس بالموت جوعًا. وشفيت جدتي خديجة من مرض خطير ألمّ بها فسكتت عن الكلام، وتوقفت عن الحركة ولم تعد تفتح عينيها إلاّ لمامًا حتى إن أغلب الناس ظنّ أن نهايتها باتت وشيكة. وكنّا نطعمها حساء ساخنًا كل ليلة فتتقيأ أكثر من نصفه. ولكن ذات يوم نهضت ومشت فكان شيئًا لم يكن. وإذا هي بعد أيام قليلة تستعيد عافيتها وبشاشتها، وإشراقة وجهها رغم سن الثمانين. وها هي تسير في مسارب القرية ضاربة الأرض بعصاها الغليظة، مستوقفة الشيوخ لتستعيد معهم ذكريات

الماضي البعيد، راوية كعادتها طرائف وحكايات يضحك لها الكبار والصغار، وتعيد إلى القلوب بهجة قديمة كنّا نظن أنها سترحل برحيلها.

وعرفت قصة حب الجازية ابنة خالي المختار لسعيدان ولد الصافي، وهو من أقربائنا البعيدين، نهاية سعيدة في عيد الأضحى لذلك العام. وقد بدأت قصة الحب هذه في الخفاء، وظلّت كذلك أشهرًا مديدة، إذ إن عائلتيّ العاشقين كانتا على تنابذ وخلاف دائمين. وأكثر من مرة، وقعت مصادمات عنيفة بينهما لأسباب تافهة غالب الأحيان، فلا تنتهي إلاّ بتدخل أعيان القرية، وشيوخها الأفاضل. غير أن الجازية الجميلة والجريئة استهانت بكل هذه المخاطر، وأحبّت سعيدان ولد الصافي الذي كان له صوت من أجمل الأصوات، لا في قريتنا وحدها، بل في جميع القرى المجاورة. وكانت له قامة هيفاء، ووجه صبوح، وشعر أسود غزير وعينان ساحرتان تلهبان قلوب العذراوات والمتزوجات على حدّ السواء. وحسب البعض، فإن العاشقين كانا يلتقيان ليلاً في وَهْد خلف بيت خالي المختار، ويظلان يتناجيان حتى مطلع الفجر. وأما البعض الآخر فيقول إن الخوف من انكشاف أمرهما، جعل لقاءاتهما قصيرة ومتباعدة. وهي عادة ما تتم قرب العين، في وادي «الحياس» قبل الغروب بقليل، أي في ذلك الوقت الذي يكون فيه الناس منشغلين بما تبقى من أعمال النهار. وما لبث خبر قصة الحب هذه أن انتشر في القرية، ومتلهفات لمعرفة ما سوف ينجرّ عن ذلك، راحت النساء يتحرّكن هنا وهناك ناشرات عنها تفاصيل عادة ما تكون من نسج خيالهنّ. فلما بُلّغ خالي المختار بالأمر ارعد وازبد، وهجم على الجازية يريد الفتك بها. لكن جدتي خديجة التي كان يخشاها أكثر مما يخشى الله ورسوله كما يقول البعض، أوقفته عند الباب وصاحت فيه شاهرة عصاها الغليظة في وجهه: «إذا لمستها فلن تكون ابني بعد اليوم!». ولم يلمسها غير أنه ظلّ يتهدد ويتوعد وفي عينيه الشر. وخشية أن يناله سوء، اختفى سعيدان، فقيل إنه ذهب إلى العاصمة ولن يعود منها أبدًا، وقيل إنه ذهب عند أخواله في القيروان، وقيل إنه يتخفى في النهار، ويخرج في الليل.. وظلّت أخباره تأتينا مشوّشة مضطربة إلى أن جاء عيد الأضحى. وفي صباح ذلك اليوم المشرق البهيج، كان الناس منشغلين بذبح خِرفانهم أو بسلخها، لما رأوا مشهدًا أذهلهم ذهولاً شديدًا حتى لكأن باب العرش انفتح أمامهم بغتة. وقف الصافي الذي كان مرتديًا جبّة بيضاء من الصنف الرفيع أمام بيت خالي المختار وناداه بصوت عالٍ بحيث تسمعه القرية كلها تقريبًا. فلما خرج خالي المختار ارتمى عليه الصافي وراح يعانقه وهو يبكي بكاءً مرًّا. وبكى خالي المختار، أيضًا. وسمع الناس الصافي يقول بصوت متهدج: «لماذا كل هذا التباغض بيننا والدنيا فيها الموت ونحن على عتبات السنين؟!». قبل منتصف النهار ذاته،

ظهر سعيدان فكأنما انشقت عنه الأرض فزقت إليه الجازية قبل هبوط الليل. فكان عيدنا عيدين. وهكذا انجلى عنّا غمّ كنا نحسب أنه سوف يفسد علينا بهجة ذلك العام المجيد.

وسوف تثبت الأيام أن قدوم تلك العائلة الصغيرة التي أصبحنا نسميها «العائلة السودانية» إلى قريتنا، كان هو، أيضاً، من الأحداث المباركة لذلك العام. أذكر جيداً ما حدث. لكأنني رأيته البارحة. ظهيرة خريفية دافئة، مفعمة برائحة الأرض المبللة بأمطار الليلة السابقة. من هنا وهناك، تتعالى أصوات الرجال والأطفال عالية، مطاردة جحافل الزرازير التي أخذت تُدهم أشجار الزيتون المثقلة بثمارها. آنذاك كنت في سن العاشرة، وكنت عائداً من مدرسة العلا التي كنت أتردد عليها في ذلك الوقت والتي تفصلها عن قريتنا مسافة تقدّر بستة كيلومترات. وأنا أقترب من بيتنا، سمعت حركة غريبة ورائي. التفتّ فإذا ببغلين أسودين يتجهان نحوي وعليهما حمولة حدست أنها قد تكون ثقيلة ذلك أنهما كانا يسيران كما لو أنهما في طريق موحلة. والعرق الذي بلّل قوائمهما الأمامية دلّ على أنهما قطعا مسافة مديدة وسط الفيافي الموحشة. ظللت واقفًا إلى أن تجاوزاني. بعدها رأيت رجلاً أسود كالقطران، فارع الطول، قوي البنية، غائر الخدّين والعينين، بشعرات بيضاء في مفرقه. وكان يلفّ رأسه بعمامة بيضاء وسخة، ويرتدي جلابيّة طويلة، باللون نفسه. وكانت ملطّخة بغبار الطريق. في يده اليمنى، عصاً غليظة. وكان واضحًا من خلال أسنانه المصفرّة، وشفتيه الغليظتين اليابستين اللتين يعلوهما شارب رمادي خفيف، أنه مدمن التدخين. إلى جانبه امرأة بلونه نفسه، ترتدي ملاءة سوداء، وتغطي رأسها بمنديل بهت لونه حتى لم يعد بالإمكان تمييزه. أما عيناها الواسعتان فقد احمرّتا من تعب الطريق. وعلى وجهها الذي كان لا يزال محتفظًا ببقايا جمال قديم، انتشرت سحابة من الحزن ذكرتني بحزن النساء في قريتنا في أوقات المآتم والفواجع والقحط. خلفها فتىً في حوالي العشرين من عمره، طويل، شديد النحافة، جعد الشعر، أسود العينين، بأسنان قوية ناصعة البياض، انعكس لونها على بشرته الضاربة إلى السواد، فمنحها بهاءً خاصًا. وكان له أنف ضخم إلى حد ما، وأذنان كبيرتان، منتصبتان مثل أذني أرنب برّي. وثمة في ملامحه ما يدلّ على الباس والحزم، وأيضًا، على النبل وخفة الروح وصفاء السريرة. إلى جانبه فتاة تصغره بعامين تقريبًا. ورغم ملابسها الرثّة قليلاً، وإجهاد السفر الواضح في ملامحها، فإنها بدت فاتنة وجميلة كما لو أنها جوهرة سوداء. خلف الجميع، كلب أبيض يهرول مادًا لسانه القرمزيّ. رُعت منه؛ ذلك أنني أعلم جيدًا أن كلاب البدو الرحّل شريرة ومؤذية. وكنت أنوي أن أستجير بأصحابه غير أنه مرّ أمامي بهدوء وكأنه لم يرني ألبتة. ظللت مسمّرًا في مكاني. ولا بد أن أعترف بأن ما أبهرني بالخصوص هو لون أولئك الغرباء

الذي لم أرَ له مثيلاً من قبل قطّ. صحيح أن هناك في قريتنا، وفي القرى المجاورة، أناسًا شديدي السّمرة غير أنني ظللت أعتقد – حتى ذلك الحين – أن الأقوام ذوي البشرة السوداء كالقطران أو كالفحم كما تقول أمي، يسكنون بلادًا بعيدة جدًا بحيث لا يمكنهم أبدًا الوصول إلى قريتنا. ولكن ها هم الآن قريبون منّي، بحيث بإمكاني أن ألمسهم وأتحدّث إليهم. وها هم يسيرون صامتين، مسربلين بالأسرار والألغاز كما لو أنهم قد خرجوا توًّا من خرافة من الخرافات القديمة.

رميت بمحفظتي في باحة البيت. ثم مستعينًا بالسلم، صعدت إلى السطح لأراقب منه مسيرة القافلة الصغيرة. عند وصولها إلى أطراف وادي «الجباس»، الذي يفصل بيننا وبين أولاد البرعي الشقر الوجوه كما لو أنهم من الروم، حطّت رحالها. وشرع الأب والابن في نصب خيمة بالقرب من زيتونة «منصور» العجوز. أمّا الأم وابنتها، فقد أوقدتا نارًا سرعان ما تصاعد لهيبها عاليًا إلى السماء. ظللت أراقب ذلك من فوق السطح إلى أن هبط الليل. ثم نزلت وبي إحساس أن لتلك القافلة الصغيرة قصة غريبة، قد تكون أغرب من القصص التي ترويها لنا جدتي خديجة في ليالي السّمر الملاح..

مرّت أيام ثلاثة ولا خبر عن القافلة الصغيرة. ويبدو أن أهل قريتنا الذين كانوا آنذاك مشغولين بمحصول الزيتون انشغالاً يكاد يكون كليًا، اعتقدوا أن إقامتها لن تطول، شأنها شأن العديد من القوافل التي مرّت بنا وهي في طريقها إلى الشمال، لذا لم يعيروها اهتمامًا ما يذكر، ولم يتحدثوا في شأنها البتّة. ولعلّي كنت الوحيد الذي ظلّ مشغولاً بها، محاولاً كل مساء، عند صعودي إلى السطح، إثر عودتي إلى المدرسة، أن أمسك بخيط حتى ولو كان رفيعًا يساعدني على استجلاء سرها. لكن لا شيء حدث. ظلّت الخيمة في مكانها نفسه. وعند اقتراب الغروب، توقدُ نار فيتحلق حولها الرجل الأسود وعائلته الصغيرة ويظلون هكذا إلى أن يخفيهم الظلام عنّي.

لكن في اليوم الرابع بعد العشاء، سمعت أبي يقول لأمي ولجدتي خديجة إن الرجل الأسود، صاحب الخيمة المنتصبة قرب زيتونة «منصور» العجوز، جاءهم إثر صلاة العصر بقليل، وهم في مجلسهم يشربون الشاي كالعادة، ويتحدثون في أمور شتى، وسلّم عليهم بأدب ولطف، ثم طلب منهم إن كان بالإمكان أن يعمل هو وابنه في معصرة الزيتون، فاستجابوا لطلبه في الحين، ذلك أنه أوحى لهم جميعًا ومن أول كلمة نطق بها بأنه من صنف أولئك الرجال الأمناء الصادقين الذين لا يخونون ولا يغدرون ولا يأتيهم الشر لا من الخلف ولا من الأمام. وأضاف أبي أن الرجل الأسود ذكر أنه يدعى إبراهيم وأنه قادم من برّ بعيد غير أنه لم يذكر اسمه. ولم يشاؤوا هم الإلحاح عليه في ذلك لكن الإمام قال إن لكنته

تدلّ على أنه قد يكون من السودان، ذلك البلد البعيد الذي لا نعرف عنه شيئًا سوى أن أهله سود البشرة مثله. وسكت أبي لحين ثم واصل حديثه عن الرجل الأسود قائلاً وطيف ابتسامة على شفتيه: «أما الشيء الذي قرّبه أكثر إلى قلوبنا فهو تلك القصة الطريفة التي رواها لنا. فقد ذكر أنه وعائلته مرّوا بقرًى كثيرة هاجمتهم كلابها بشدّة لا مثيل لها، لذا هم أبوا المكوث فيها حتى ولو ساعة واحدة مفضّلين النوم والاستراحة في البرية الموحشة. فلما وصلوا إلى قريتنا عاملتهم كلابها كما لو أنهم من أهلها. فلم تنبح في وجوههم ولم تهاجم كلبهم مثلما فعلت كلاب القرى الأخرى. وقد اعتبر هو هذا فال خير لذا قال لأفراد عائلته: «في هذه القرية يعيش أناس طيبون يكرمون الغرباء لذا بإمكاننا أن نحطّ رحالنا فيها!»». واعتقد أن ما رواه أبي أثار فضول جدّتي خديجة إذ إني سمعتها تقول قبل أن اغرق في النوم: «غدًا سأزور الرجل الأسود وعائلته وسآتيكم بالخبر اليقين!».

في الليلة التالية، أتتنا جدّتي بحزمة هائلة من الأخبار والمعلومات عن العائلة الصغيرة وراحت تسردها علينا بصوتها الرصين الهادئ، فلم ننم إلاّ في ساعة متاخرة من الليل. وفي البداية قدمت لنا جدتي بعض الأدلة حاولت من خلالها إثبات أن تلك العائلة لا بدّ أن تكون بالفعل من السودان. ففي طفولتها، وكانت آنذاك في سن العاشرة أو الحادية عشرة على ما تظن، جاء رجال سود، هم، أيضًا، إلى قريتنا، وقالوا إنهم من بلاد السودان البعيدة. ولسبب انعدام الأمن في الطرق المؤدية إلى الشمال والذي كان وجهتهم، أقاموا بين أهلنا أشهرًا طويلة، وكانوا طيبين ودودين وأصحاب كرم ووفاء وعقيدة قوية لا تتزعزع أبدًا. فلما انصرفوا بكاهم الناس بحرقة إذ إنهم لم يطيقوا فراقهم. وذكرت جدتي أن الرجل الأسود وأفراد عائلته يتكلمون تمامًا مثل أولئك القوم. فمثلهم، هم يأخذون وقتهم في الكلام، ممططين الحروف والكلمات بذلك الكسل المحبّب للنفس فلا يسرعون ولا يلتهمون الحروف والكلمات مثلما نحن نفعل، ولا يكونون دائمًا في عجلة من أمرهم مثلما هي حالنا. وأضافت جدتي قائلة: «لقد أمضيت معهم وقتًا رائعًا. فلم أضجر البتّة ولم أسمع ولم أرَ منهم جميعًا إلاّ ما أسرّني وأثلج فؤادي. فربّ العائلة رصين هادئ يزن كلامه، فلا ينطق إلاّ عندما يكون على يقين بأن للكلام معنًى. وثمة في ملامحه ما يدلّ على عزة في النفس، وعلى قدرة على الصّبر أمام المحن والمصائب. وأما ربّة البيت فخبيرة بأعمال كثيرة مثل حياكة البسط والبرانيس والعباءات الصوفية وأظن أنها ستكون لنا نافعة في مثل هذه الأمور.. ثم إن لها طريقة في الكلام تجعل الإنسان ينجذب إليها انجذابًا كليًا، ويشرب كل كلمة تنطق بها كما لو أنها من عسل مصفّى. والولد ذكي، شاطر، سريع الحركة، قوي البديهة، له صوت عذب أعذب من صوت سعيدان ولد الصافي. وأظن أنه بارع في الغناء،

وفي الضرب على البندير، وفي العزف على القيثارة، وفي أشياء من هذا القبيل. ومثل والديه هو حلو الحديث. وقد روى لي طرائف عن رحلتهم الطويلة أضحكتني حتى دمعت عيناي. وما أعتقد أن البنت ينقصها شيء. فهي جميلة كليلة صيف. ولسانها من عسل، هي، أيضًا. وأنا على يقين بأن الذي سوف تكون حلاله، سيعيش سعيدًا، هانئًا. فما سمعت منها – خلال حديثي معها – أكد لي أنها ستكون زوجة صالحة.. بل من أصلح الزوجات.. فهنيئًا لمن يظفر بها!

انتشر كلام جدتي خديجة بشأن العائلة السودانية الصغيرة انتشارًا واسعًا فسمعه الكبير والصغير وباتوا جميعًا متعطشين لسماع المزيد من الأخبار والمعلومات بشأنها. وفي ظرف أيام قليلة، عرفنا أسماء بقية أفرادها. فالأم تدعى عائشة. والبنت أمينة. والولد عبد الحفيظ. وأعتقد أن وجهاء القرية أخذوا كلام جدتي بعين الاعتبار إذ إنهم ذبحوا خروفين، وأقاموا ضيافة كبيرة على شرف العائلة السودانية الصغيرة، فجلس الأب والابن مع الرجال، والأم والبنت مع النساء. فكانت ليلة من أجمل الليالي، تُليَت فيها آيات من الذكر الحكيم، وأُنشدت البردة. وكانت المفاجأة التي أسعدت الجميع هي أن إبراهيم وابنه عبد الحفيظ غنّيا مدائح للرسول على ضربات البندير، فطرب الناس وأخذوا يتمايلون يمينًا ويسارًا مغمضي العيون، والبعض منهم أجهش بالبكاء تأثرًا. وكان والدي من بين هؤلاء. فلما انتهيا من ذلك، صاح فيهما الإمام ووجهه يشعّ إعجابًا وخشوعًا: «أنتم من الآن منّا وإلينا!».

وكان الأمر كذلك. إذ أصبحت العائلة السودانية الصغيرة – منذ تلك الليلة، التي اختلط فيها الخشوع بالطرب – جزءًا منّا، تقاسمنا أفراحنا وأتراحنا. وما مضى عام واحد على ذلك حتى كان إبراهيم قد اشترى قطعة أرض وبنى بيتًا لائقًا بغرفتين، وملك شياها وبضع أشجار زيتون. واكتمل انتساب عائلته إلينا بعد أن تزوجت ابنته أمينة بمصطفى، نجل الأمين، وهو أحد وجهاء قريتنا. فكان زواجهما من أسعد الأحداث التي عشناها في صيف عام ١٩٥٧ حتى إن الناس ظلّوا يتحدّثون عنه سنوات طويلة. وأما عبد الحفيظ فقد أصبح في ذلك العام نفسه حارسًا لمستوصف العلا، وشرع يعدّ العدّة للزواج بفاطمة، أخت مصطفى، التي قيل إنها هامت به لما رقص وغنّى في زواج أخته فبزّ الجميع، بما في ذلك سعيدان ولد الصافي.

ولكن قبل أن أسرد بقية القصة يجدر بي أن أتوقف قليلاً عند بعض تفاصيل حياتي الشخصية. فقد تقدّمت لامتحان الشهادة الابتدائية مرتين، غير أنني لم أنلها، فخاب أمل عائلتي فيّ وبات والدي يصفني بـ«الولد العاق». ولم يكن ذلك بالأمر المثير للعجب. ففي

ذلك الوقت، كانت تلك الشهادة التي لم تعد تسوى الآن شيئًا يُذكر، مفتاحًا للمستقبل، وللنجاح في الحياة. من دونها تظلّ الأبواب مغلقة أمام الإنسان، خصوصًا إذا ما كان من أبناء القرى الفقيرة النائية مثلي أنا. والحقيقة أنني لم أكن فالحًا في الدراسة. وكان ترتيبي دائمًا سيئًا. وقد رسبت مرتين. وما وصلت إلى السنة السادسة، سنة التقدم لنيل الشهادة الابتدائية، إلاّ بشق الأنفس. لذا لم أتفاجأ لما سقطت في الامتحان مرتين. بل لا بدّ أن أعترف بأنني لم أعبأ بالأمر كثيرًا حتى وإن كنت قد حاولت أن أُظهر عكس ذلك. ففي ما بيني وبين نفسي، كنت أقول بأنني يمكن أن أفلح في مجال آخر، خصوصًا في الأعمال اليدوية التي برعت في البعض منها في سن مبكرة. وهذا ما حصل. فبعد أن تعلمت الحلاقة عند واحد من أمهر الحلاقين في العلا، ركبت الحافلة وتوجهت إلى القيروان. وهناك عملت في محلّ مشهور للحلاقة وسط المدينة، يأتيه أبناء العائلات الكبيرة. بعد سنتين فقط، فتحت محلاً خاصًا بي فترفهت أحوالي وأحوال عائلتي وظفرت برضى والدي، خصوصًا، بعد أن رمّمت بيتنا القديم، وأضفت له غرفتين، وأحطته بسور مثلما يفعل الأعيان بمنازلهم. حدث ذلك وأنا في سنّ العشرين، أي في تلك الفترة التي توطدت فيها علاقتي بعبد الحفيظ، فأصبح يزورني في القيروان بين وقت وآخر فنقضي أوقاتًا ممتعة في المطاعم وفي بار وسخ اسمه بار «السعادة» أغلق قبل خمسة أعوام بسبب معركة بالسكاكين حدثت داخله وكادت تفضي إلى أكثر من قتيل لولا تدخل الشرطة. وفي الصيف كنا نذهب إلى سوسة فنقضي هناك يومين أو ثلاثة لا نكاد نصحو فيها من السكر. ونادرًا ما كنا نذهب إلى العاصمة لأن عبد الحفيظ لم يكن يتحمل لا هواءها ولا ضجيجها ولا ناسها، فإذا ما دخلناها تعكّر مزاجه، وتوترت أعصابه، واربدّت سحنته فيبيت شخصًا لا يُطاق التحدث إليه أو الجلوس معه. وكان دائمًا يقول: «عندما أدخل العاصمة يدخلني الشيطان فيفسد نفسي». وفي زياراتي إلى قريتنا، كنت أُلازمه في الليل والنهار فلا نفترق إلاّ في ساعة النوم. وهي عادة ما تكون عند الفجر. وكان يرتاد مجالسه، التي يقيمها في بطن وادي «الجباس» ووادي «مرق الليل» في الربيع والصيف، أُناس ظرفاء من مناطق مختلفة. أما في الشتاء فكان يقيمها في العلا عند واحد من أعزّ أصدقائه اسمه محمود، مات قبل نحو ثلاث سنوات على ما أظن. وكان بشعًا، شديد النحافة، أعمش، بقامة ضئيلة لا تتجاوز المتر والستين. غير أنه كان لاذع اللسان حلو النكتة، ماكرًا مثل ثعلب. وكان قد طلّق مرتين، لذا لم يعد يعبأ بالنساء. فإذا ما سأله أحد عنهن حرك يده كما لو أنه يَستمني، وأجاب: «يدي هذه تكفيني حتى الممات!» فيستلقي الناس على ظهورهم من الضحك. وكان عبد الحفيظ يقول له دائمًا بصوته الكسلان الذي يزداد كسلاً عند

الشراب : « لو لم يخلقك الله يا محمود لخلقتك انا، ذلك ان مجالسي من دونك لن يكون لها لا معنى ولا رائحة ولا طعم! ». فيرد عليه محمود : « وأنا أشكر بلاد السودان التي بعثت بك إلينا! ». فيضحك عبد الحفيظ ويسأله : « ومن قال لك إنني من السودان؟ ». فيجيبه محمود : « لون بشرتك! ». فيغمض عبد الحفيظ عينيه نصف إغماضة ويهمس وكأنه يخاطب نفسه : « لوني لون الليل . . والليل في كل مكان! ». غير ان الشيء الذي أذهل الجميع هو ان عبد الحفيظ صاحب اللسان الذي « يغزل الحرير » كما أصبح الناس يقولون، استطاع ان يروّض احمد ولد الظاهر. اقول : « روّض » لان هذا الاخير كان شبيهًا بحيوان بريّ في الجبال والغابات فبات صعب المراس، لا يطيق الاقتراب من بني آدم، ولا الخوض معهم في الحديث. فهو دائم التوحّد بنفسه، يجلس في بار العلا عند الساعة الواحدة ظهرًا، ويظلّ يشرب ويدخّن ساهمًا إلى ان ينتصف الليل. عندئذٍ يتحرك باتجاه بيته. لكن في الطريق يدركه التعب ويثقله الشراب، فيتوسّد ذراعه وينام تحت زيتونة فلا ينهض إلاّ قبل منتصف النهار وبعده بقليل. ولانه لا يرى جدوى في مواصلة الطريق، فإنه يعود إلى بار العلا ليجلس في ركنه المعتاد فلا يفتح فمه إلاّ لطلب شراب او اكل من النادل خليفة الاعور الذي يحرص حرصًا شديدًا على إبعاد كل من تسوّل له نفسه الاقتراب منه. وكان احمد ولد الظاهر قد أمضى أربعة أعوام في العاصمة طالبًا في الجامعة الزيتونية. ويقال إن عائلته التي كان هو ذكرها الوحيد (له ست أخوات ما زلن على قيد الحياة حتى هذه الساعة) كانت على يقين بانه سوف يكون صاحب شان في يوم من الايام . . محاميًا او قاضيًا او فقيهًا مهابًا. إذ إنه ابدى منذ الطفولة المبكرة نبوغًا وفطنة لا مثيل لهما عند انداده، وحتى عند مَن يفوقونه سنًا. وكانت له ذاكرة قوية حتى إنه حفظ القرآن في وقت قياسي، الشيء الذي شجع والده، وكان من اغنياء منطقتنا، على إرساله إلى القيروان ثم إلى العاصمة. وعندما توفي جاء هو لحضور جنازته. وانتظر الناس أن يعود لمواصلة دراسته، غير انه لم يفعل ذلك. فلما طالت إقامته في القرية، جاءه البعض من اعيانها لاستفساره عن السبب غير انه صدّهم بحدّة، قائلاً : « هذا أمر لا يعني أحدًا غيري! ». فتركوه وهم في حيرة من أمره. وشيئًا فشيئًا انغمس عبد الحفيظ في الشراب فلم يعد يصحو منه إلاّ نادرًا. عندئذٍ شرع الناس يروّجون حكايات غريبة عنه . . فالبعض يقول إنه عاشر في العاصمة فتيان سوء الهوه عن دراسته فانصرف عنها ليغرق في حياة اللهو والمجون إلى ان طُرد من الجامعة بسبب ذلك. والبعض الآخر يؤكد ان وراء المسالة غانية جميلة لعبت بعقله وجيبه ثم تخلّت عنه لتنصرف إلى رجل آخر اكثر منه مالاً وجاهًا ووسامة. فكانت النتيجة ان عمت بصيرته، واختلّ توازنه، واسود مزاجه، فبات على هذه الصورة المرعبة، صورة الرجل

الذي يدمّر نفسه يوميًا تدميرًا منهجيًا كما لو أنه يرغب في أن يرحل عن الحياة الدنيا في أقرب فرصة ممكنة. وكان الإمام أشدّ الناس اغتياظًا واستياءً من سلوكه، فكان يهاجمه ويندد به في مجالسه الخاصة والعامة. فلمّا أمعن في ذلك، جاءه أحمد ولد الطاهر وهو خارج من صلاة الجمعة وقال له والناس كلهم يسمعون: «أيها الإمام.. أنا أعلم منك بأمور الدنيا والدين، لذا يمكنني أن أقول لك إن ما تفعله أنت من خير هو لي أنا، وما أنا أفعله من شر هو لك أنت!». فاسودّ وجه الإمام وبدا عليه الارتباك. ومن ذلك اليوم لم يعد يذكر سيرته لا بخير ولا بشرّ!

ويومًا ما أفقنا فإذا بأحمد ولد الطاهر صديق حميم لعبد الحفيظ يلازمه غالب الأوقات، ويضحك عاليًا لطرائفه. فإذا ما زَها مجلسهما، احتضنه بحرارة قائلاً: «أنت والله يا عبد الحفيظ شيطان جميل!». فيردّ عليه عبد الحفيظ: «وأنت أيضًا يا أحمد!». ثم ينفجران ضاحكين، ضاربين الأرض بأقدامهما. وحين يغيب عبد الحفيظ عن بار العلا يومين أو أكثر يتعكّر مزاج أحمد ولد الطاهر وينفد صبره فينادي حميد، الصبي القابع طول الوقت أمام البار في انتظار زبون يلمّع له حذاءه ويضع في كفه أزيد مما يكسبه في النهار بطوله ثم يقول له: «إذهب وائتني بذلك الشيطان الجميل ولا تعد إلى هنا إلاّ به!». فيكون الأمر كذلك. ومع مرور الأيام، أخذ أحمد ولد الطاهر الذي كان قبل ذلك ينفر منّا نفوراً شديداً يغشى مجالسنا في بطن وادي «الجباس» ووادي «مرق الليل». وكان يبهج ليالينا وفساقها. فإذا ما انتشى قرأ علينا أشعارًا في الغزل والخمر، وبالرغم من أننا لم نكن نفهم منها إلاّ القليل، فإنها كانت تطربنا كثيراً. وكان هو يقول لنا: «لقد وجدت في الخمر ما أغناني عن مواصلة دراسة الفقه!». فيقول له عبد الحفيظ: «ونحن نحمد الله ونشكره لأنه قربك منا وأبعدك عن الفقهاء!». فينهمر ضحك الرجال على بطن الوادي مثلما ينهمر المطر الغزير.

ولم يكن عبد الحفيظ زينة المجالس، فقط، بل زينة الأعراس، أيضًا. ولأنه كان يتقن الغناء والرقص والضرب على الطبل وعلى البندير والعزف على القيثارة، فإنه أصبح يُشرف على فرقة موسيقية ذاع صيتها لا في منطقتنا وحدها بل في جميع المناطق الأخرى بما فيها البعيدة عنّا. وأصبحت العائلات تفاخر بحضور هذه الفرقة وصاحبها في الأعراس التي تقيمها لأبنائها أو بناتها. ولأن ندماء عبد الحفيظ كانوا يتبعونه حيثما كان، فإن الشراب بات أمرًا عاديًا في سهرات الأعراس. بل من دونه لا يحلو ذلك. وهكذا دخل قريتنا أمر لم نكن مُتعوّدينه من قبل، إذ إن الشراب كان محرّمًا في حفلات الأعراس. والذي يتجرأ ويأتيها سكران، كان ينبذ من قبل الجميع، ويسبّب لنفسه ولعائلته فضيحة يظلّ يعاني تبعاتها وقتًا طويلاً. ولكن ها هو عبد الحفيظ وأصحابه يطوون صفحة الماضي بسهولة ويسر

من دون ان يخدشوا مشاعر الناس، مقنعين إياهم – بلا أي جدال حول الموضوع – بأن الشراب ليس بغيضاً ولا كريهًا ولا خطيرًا لا على الاخلاق ولا على الدين، بل يمكن أن يجعل حفلة العرس أكثر حرارة وانسيابًا وخفة والمدعوين أشدّ طربًا وغبطة وزهوًا. والعائلة التي ترفض هذا الامر الجديد وتعارضه، تصبح مهددة بالمقاطعة، بل يمكن ان تتحول حفلة العرس التي تقيمها إلى شيء شبيه بمأتم. وهذا ما كاد يحدث لعرس البرني، وهو من أندادي، وكان ولا يزال من أقرب الناس إلى نفسي. فقد رفض والده، الحاج مبروك المعروف بتزمته وانغلاقه وتجهّمه الدائم، حضور عبد الحفيظ وفرقته عرس ابنه قائلاً: «لقد طفت حول الكعبة، وقبلت قبر الرسول، وشربت من ماء زمزم، لذا لن أسمح للفاسقين بتدنيس بيتي!». ثم دعا فرقة من قرية أخرى يقودها رجل يابس، ذابل الصوت، قبيح السحنة، فلم يأتِ حفلة العرس في ليلتها الأولى غير بعض الفتيان الفضوليين. مرت ساعة، وتلك الفرقة تغني أغانيَ سمجة، وتعزف ألحانًا قبيحة لم يتجاوب معها أحد من الحاضرين. فلم يلبث الفتيان الفضوليون ان غادروا الحفلة غير آسفين ولم يتبق غير أهل البيت وبعض الأقارب كان جلّهم يتثاءب ضجرًا. وكانت ام الزين، والدة البرني، تراقب المشهد بعينين دامعتين. فلما لم تعد تحتمل ما كانت ترى وما كانت تسمع، وقفت في باحة البيت وصاحت في زوجها الجالس أمام عتبة الغرفة الخاصة به: «أيرضيكَ أن تحوّل زواج ابنك إلى مأتم؟!». فلم يتكلم. فصاحت فيه ثانية: «إذا أنت لم تسمح لعبد الحفيظ وفرقته بالقدوم فسوف أترك هذا البيت ولن ترى وجهي بعد اليوم!». عندئذٍ نهض الحاج مبروك. أسرج فرسه، ثم ركبها وقال بنبرة المهزوم: «إفعلوا ما تشاؤون.. اما انا فلن أعود إلى هذا البيت إلاّ بعد انتهاء العرس!». في الليلة نفسها جاء عبد الحفيظ وفرقته واستمرت السهرة حتى مطلع الفجر. فكان عرسًا من أبهى الأعراس التي شهدتها قريتنا في ذلك الصيف البعيد. صيف ١٩٧٠.

غير ان الزمن عوّدنا أنه لا شيء يبقى ولا شيء يدوم وأن ما يعطيه لنا بهذه اليد، لن يلبث ان يفتكه منّا باليد الأخرى. وصدق الأقدمون الذين كانوا يرددون دائمًا أن الزمن أكبر الخائنين وأمكرهم وأشدهم قسوة على العباد. وقد ظلّ عبد الحفيظ حتى سن الخامسة والستين بروح الشاب نفسه، الذي كان محافظًا على مجالسه الجميلة، وعلى مرحه، وحبه للحياة ومباهجها وملذاتها. لكن فجأة تكالبت عليه الأمراض فأخذ يسعل طول الوقت، وينام سيئًا، ولا يأكل إلاّ القليل. ولم يعد يتحمّل الشراب، فإذا ما بالغ فيه لزم الفراش أيامًا بل أسابيع. وقد ازدادت صحته تدهورًا بعد موت صديقه الحميم أحمد ولد الطاهر الذي بكاه كما لم يبكِ أحدًا من قبل قطّ. وكان يومًا خريفيًا أغبر حزينًا، لما جاءني إلى محل الحلاقة الذي فتحته في العلا العام الماضي، وكان ذلك قبل وفاته بشهرين بالتمام والكمال.

جاءني ذابل الوجه، منطفئ العينين، خامل الحركة. طلبت له قهوة، أشعلت له سيجارة. ظلّ هو صامتًا يتمعّن فيّ كما لو انه يراني أوّل مرة ثم قال بصوت متعب:

– إسمع يا عمارة (هذا هو اسمي). . أنا ساموت!

ارتعش جسدي، وملأت الغصّة حلقي. . غير أنني تداركت أمري وقلت له:

– إلعن الشيطان يا عبد الحفيظ. . وابعد عنك هذه الوساوس المخيفة فأنت لا زلت. .

قاطعني بحركة من يده:

– قلت لك ساموت. . لقد رأيت هذا في المنام البارحة بعينيّ هاتين. . نعم رأيت كل ما سيحدث لي!

أردت أن أقول شيئًا آخر غير أنه قاطعني مرة ثانية:

– هات إكسبريس واشعل سيجارة واجلس أمامي، وسوف أحدثك عمّا رأيت في منامي البارحة. .

فعلت ما أمرني به.

– نعم يا عمارة. . يا صديقي. . أنا ساموت قريبًا. . هذا شيء مؤكد. . لقد رأيت ذلك البارحة تمامًا مثلما أراك أنت الآن. . كنت خارجًا من بيتي. . وكان هناك عجاج وغبار ووحشة. فما أن اجتزت عتبة بيتي حتى شعرت وكأن نارًا اندلعت في صدري. . تهاويت على الأرض. . ولولت زوجتي وراحت تطلب النجدة. . جاء أناس كثيرون. . أحاطوا بي وراحوا يرشّون وجهي بماء الزهر. . ثم جئت أنت وصحت فيهم: «أطلبوا سيارة الإسعاف حينًا!». فركب أحدهم دراجة نارية وقصد العلا ليطلبها. وأنا كنت أرى كل هذا واسمع كل ما كان يُقال من حولي وكنت أُريد أن أقول لك وللناس إنه لا فائدة تُرجى من ذلك فقد قضي الأمر وقطعت الجسر إلى العالم الآخر في رمشة عين. . غير أنني لم أستطع. . راحت زوجتي تولول ضاربة صدرها بيديها. . وكانت هناك نسوة أخريات يبكين هنّ أيضًا. . وأما الرجال فقد كانوا في حيرة واضطراب شديدين. . وأنا مرميّ على الأرض والدنيا عجاج وغبار ووحشة. . ثم جاءت سيارة الإسعاف وأخذتني إلى مستشفى القيروان. . وبعد أن فحصني الطبيب، قال لمن رافقني، وكنت أنت من بينهم: «أعيدوه إلى بيته فقد مات منذ أزيد من ساعتين!». أعدتموني إلى بيتي. . حالما أنزلتموني من سيارة الإسعاف ارتمى عليّ أبنائي الثلاثة الذين كانوا في العلا لما سقطت، وابنتاي المتزوجتان، بِحَفز، فلم يخلصني الناس منهم إلا بجهد جهيد. . وأنت، أيضًا، كنت تنوح مثل النساء. . وأنا كنت أرغب في أن أقول لك إنه لا فائدة من ذلك، فالموت باب للجميع وليس بوسع أحد الإفلات منه. . غير أنني لم أقدر على فتح فمي، ذلك أنني لم أعد منكم ولم تعودوا مني. . ثم هبط الليل

فتحلّق الشيوخ في غرفتي وراحوا يرتلون سوراً من القرآن وأنا أراهم وأسمعهم.. وظلّوا كذلك إلى أن انتصف الليل.. في اليوم التالي غسّلوني وكفّنوني ثم حملوا نعشي على أكتافهم وساروا به إلى المقبرة منشدين في خشوع: «رحمان يا رحمان هذا عبدك واليوم يا رحمان قاصد فضلك!». وأنا كنت أسمع كل ذلك وأرى كل تلك الجموع الغفيرة التي جاءت لحضور جنازتي. وكان هناك عدد كبير من أصدقائي وندمائي القدامى يبكون هم، أيضاً، مثل النساء. وفي مؤخرة الجنازة كان هناك بعض من الرجال في جباب بيض يعددون فضائلي ويقولون: «الموت لا يختار إلاّ خيرة الناس دائمًا وأبدًا!». وكنت أريد أن أقول لهم إنه يختار أسوأهم أيضًا.. غير أن لساني كان حجرًا. وبعد أن صلوًا عليّ صلاة الغائب أنزلوني إلى قبري ثم حثّوا عليّ التراب، فإذا بي في ظلام دامس لا أسمع ولا أرى شيئاً. جلت أنتظر الملاكين اللذين قيل إنهما يطرحان على الميّت أسئلة وعلى ضوء أجوبته عنها يؤخذ إما إلى الجنة أو إلى النار. لم أنتظر طويلاً. جاء الملاكان وكانا شابين، لهما وجهان كأنهما من نور. سلّما عليّ بحرارة فرددت السلام عليهما بالحرارة نفسها وأنا مطمئن القلب والبال، فلا رعشة ولا خوف كما كنت أظن من قبل. بعدها قالا لي بلطف: «اتبعنا يا عبد الحفيظ!»، «إلى أين؟» سألتهما، «اتبعنا وسوف تعرف بعد قليل!»، ردّا عليّ باللطف نفسه. فعلت ما طلباه منّي. سرنا في نفق مظلم لم يكن يضيئه غير وجهيهما. فلما بلغنا آخره ودّعاني بالحرارة واللطف نفسيهما، وقالا لي: «أنت الآن حرّ.. فافعل ما أنت تشتهي وما أنت تريد!». فرحت كثيراً. فما أن خطوت الخطوة الأولى خارج النفق حتى وجدت نفسي في حديقة غنّاء فيها أنواع مختلفة من الأشجار والزهور والطيور. وكانت الأرض مكسوّة بالعشب الأخضر، تشقها جداول صغيرة. وفوقي كانت السماء زرقاء كما هي حالها في الربيع عندنا. على بعد مسافة قصيرة مني، رأيت أحمد ولد الطاهر جالسًا على بساط قيرواني وأمامه نار كان يشوي عليها لحمًا، وزجاجة «كوديا»، شرابه المفضّل في الحياة الدنيا. استغربت الأمر، وظننت أنني عدت وإياه إلى عالم الأحياء. سرت باتجاهه. فلما لم يعد يفصلني عنه غير بضع خطوات، رفع رأسه وقال لي: «لقد هيأت كل هذا الاحتفاء بقدومك!» – «وهل كنت تعلم به» صحت فيه مذهولاً، فردّ قائلاً: «إنهم يوزّعون علينا لوائح بأسماء من يلتحقون بنا ثلاثة أشهر قبل وفاتهم!» ثم نهض وعانقني بحرارة. جلست إلى جانبه. مدّ لي قطعة لحم فأكلتها فإذا بها ألذّ مذاقًا من اللحم الذي كنت آكله في الحياة الدنيا. ناولني كأس «كوديا» فأعرضت عن ذلك. فابتسم هو وقال لي: «إشرب ولا تخف يا عبد الحفيظ.. فبإمكانك أن تفعل هنا ما كنت تفعله في الحياة الدنيا!» شربت الكأس بجرعة واحدة فناولني أخرى ومعها قطعة لحم. قلت له:

«ولكن يا احمد.. الا أحاسَب على المعاصي التي ارتكبتها في الحياة الدنيا؟»

– أية معاصٍ؟

– لقد كذبت على الناس واحتلتُ عليهم أحيانًا..

– هذا لا شيء!

– لم أصلِّ البتة..

– هذا لا شيء، أيضًا..

– فطرت في رمضان أكثر من مرة.. ومرة شربت الخمر معك في وادي «الجياس» والناس صيام..

– هذا ليس بالجرم الذي يعاقب عليه.. وبعد؟

– زنيت!

– مَع من؟

– مع جارتي حليمة.. أنت تعرف أنها كانت جميلة جداً.. وأن كل الرجال في القرية كانوا يشتهونها.. وكانت هي تكره زوجها مسعود كرهًا شديدًا لانها تزوجته غصبًا عنها.. ومرة ذهبت زوجتي عند أهلها وأخذت الاولاد معها.. كان الحر شديدًا إذ إننا كنا في قلب الصيف.. دخّنت سيجارة حشيش ثم تمددت على الفراش أبتغي النوم وإذا بها تدخل عليّ طالبةً شيئًا ما.. ملحًا أو سكرًا أو أعواد كبريت.. نسيت.. قلت لها: «إبحثي بنفسك عمّا تريدينه فانت أدرى بخفايا البيت منّي..». فلما عثرت على ما كانت تبتغيه جاءت وجلست على حافة السرير.. وكانت قد اغتسلت توًا ولبست ملاءة خفيفة كشفت عن مفاتنها، وعن جزء كبير من صدرها العارم.. راحت تمجد خصالي في الرقص وفي الغناء فقلت لها وقد هيّجني صوتها: «ولي خصال أخرى أنت لا تعرفينها!».

غمزت لي بعينها اليسرى وقالت باسمة:

– وما هي؟

– لو اقتربت منّي لعرفتها!

فما هي إلاّ لحظات حتى كنت فوقها. فما ذقت في حياتي كلّها لذّة كمثل تلك اللّذة.

أطرق أحمد ولد الطاهر حينًا من الزمن ثم قال:

– ليس بوسعي أن أجنّبك العقاب الذي ينتظرك!

في هذه اللحظة بالذات، أحسست بحركة غريبة ورائي. التفتّ فإذا بي وجهًا لوجه مع مسعود زوج حليمة الذي توفي العام الماضي. وكان عابس السحنة وفي عينيه ضغينة كأنها النار. صاح فيّ بحدة:

– أتعرف العقاب الذي ينتظرك؟!

– لا.. قلت.

– سأفعل بك ما أنت فعلته بزوجتي! قال ذلك ثم ثنى الثوب الأبيض الذي كان يغطي جسده وصاح بي ثانية:

– هيّا إنزع عنك الثوب وتمدّد على بطنك!

فعلت ما أمرني به، فأولج فيّ شيئًا كأنه عصًا من حديد وضعت في النار وقتًا طويلاً. فلما استيقظت كان أستي مبللاً!.

عقب مرور شهرين على ذلك، توفي عبد الحفيظ. وكانت وفاته متطابقة تمام التطابق مع القسم الأول من رؤياه العجيبة تلك. والله وحده يعلم إن كان ما حدث له في العالم الآخر متطابقًا هو، أيضًا، مع القسم الأخير منها..!

ميونيخ

(٢٠٠٢/٢/٥)

روائي تونسي مقيم في ميونيخ/ ألمانيا

علاء حليحل

السجّادة

حبيبتي؛

هذه هي الرسالة الأولى التي أبعث بها إليك بعد أكثر من نصف سنة. ولا تحسبي أنني أخرق بذلك الاتفاق الذي وضعناه أو وضعته أنا وفرضته عليك – وهو قطع كل صلة بيننا، ليبدأ كلٌّ منّا مشواره الجديد لوحده. لا زلت أومن بأن هذا الاتفاق هو أفضل ما يمكن فعله أمام التلكؤ والميوعة اللذيْن رافقا انفصالنا عن بعضنا البعض، وما سبّبه ذلك من ألمٍ كبيرٍ لي.

وأنا أبعث إليك بهذه الرسالة، لا لأطلعك على أموري، من باب الطمأنة والاطمئنان، وإنما لأقول لك فقط إنني بعتُ السجادة الملوّنة التي اشتريتِها لي قبل أكثر من أربع سنوات. شعرتُ بحاجةٍ كبيرةٍ لأشركك بهذا الأمر، لأنني رأيتُ أنه من حقك أن تكوني على درايةٍ بما فعلته بالسجادة التي أهديتِني إياها قبل زمن. والآن، أنا أتذكر أن هذه السجادة هي الهدية الأولى التي تلقيتُها منك. أنت تذكرين ذلك بالطبع – فأنت كنتِ دائمًا أفضل مني في كل ما يخص التذكر..

وأنا أعتقد أن من حقك أن تعلمي لماذا أقدمت على بيع السجادة. لا من باب رفع العتب، ولكن من منطلق أنك شريكة فيها بالقدر الذي يجعلك جديرةً بأن تكوني على بيّنةٍ من مآلها. فأنا بعتها عن ضائقةٍ وعن عوز. قبل يومين اكتشفتُ أنني جائعٌ وليس لديّ النقود لأشتري شيئًا آكله. أي شيء. فركتُ أسناني وطبختُ آخر ملعقتين من البن في الغلاية الآيلة للصدأ وجلستُ على الشرفة أرقب البحر الصافي. دخنتُ من سجائري الرخيصة وشربتُ قهوتي. قرصتني معدتي التي لم يدخلها داخل من ظهيرة الأمس، فقمتُ إلى الثلاجة. عندما فتحتها تذكرتُ أنني أتيتُ على آخر ما فيها صباح الأمس. في فضاء الثلاجة كانت حبة بصل واحدة ترتكن إلى هدوء البرد. رفضتُ مبدئيًا فكرة أن أفطر على بصلة. فإذا سمحت لي كرامتي بذلك، فإن معدتي لن تسمح.

وقفتُ في الشقة ونظرتُ حولي. تجولتْ بعينيّ ببطءٍ وتؤدة. كان الهدف أن أتذكر أين أكون ربما وضعتُ بعض الدراهم ونسيتُها. كنتُ متأكدًا من أنني لم أنسَ أي درهمٍ – فأنا نظفتُ الشقة بداية الأسبوع، هربًا من البطالة. خرجتُ إلى الشرفة، وكنتُ على وشك أن أجمع أمتعتي وأعود إلى بيت والديّ لبعض الوقت. سآكل هناك وأنام وأدخن وأشاهد التلفاز. وعلى الفور تذكرتُ أنني بحاجة إلى شراء تذكرة للباص فانثنيتُ. عدتُ إلى الداخل. كانت سجادتك الملونة تلتحف أرضية الغرفة وهي تبتسم لي. كانت تقول لي: بِعْني وكُل بثمني. في كل مرةٍ أدخل فيها الشقة شبه الخالية من الأثاث، تبتسم لي سجادتك. في تلك اللحظة اقنعت نفسي بأن سجادتك لا تزال تذكّرني بك، وهي تدعوني لبيعها، فقلتُ أبيعها فأصيب عصفورين بحجر: آكل وأدخن، وأتخلص من آخر ما يمكن أن يعيد طيفك إليّ.

لففتُ السجادة وربطتُها ثم غيرت ملابسي وحملتها على كتفي ونزلتُ الدرج. عند مدخل البناية رأتني الجارة المطلقة التي تسكن تحتي، والتي أشتهيها عندما أخلد للنوم فقط، فسألتني عن السجادة، فقلت: سأبيعها، فهي لم تعد تنفعني. «بكم»، سألتْ مهتمةً. لم أود بيعها لها، فتبقى السجادة في نطاق سكني، فلا يتركني طيفها. قلتُ: «سأبيعها إلى صديق اتفقت معه». هزّتْ رأسها متفهمةً وهرولتُ لئلا تسأل سؤالًا آخر، فترنّحتُ على الدرج الضيق، فضربتُ بالحائط من الجهة الأخرى، ثم في الجهة الأخرى، ثم بالباب في الطابق الأرضي. هدأتُ وركزتُ نفسي وهممتُ بالمضي، وإذا بالجارة الثانية المسنّة تخرج على صوت الضربة وتنظر غاضبةً. صارت تبرطم بالروسية وتدفع سبابتها بلغة أممية، فادركتُ مقاصدها فيممتُ شطر المخرج واندفعت.

نزلتُ إلى سوق الخردوات مشيًا. والمسافة بين شقتي وتلك السوق بعيدة كما تعرفين. فكيف مع سجادة على الكتف؟ استرحتُ مرتين، وغمرني العرق فغدوتُ رطبًا حارًا وقد أقول شهيًا، لولا جدية الموقف. وصلتُ إلى السوق وركنتُ السجادة إلى حائطٍ في بدايته وأخذتُ أستطلع المنطقة وألتقط أنفاسي بسيجارةٍ ومعدةٍ فارغةٍ. حوانيت كثيرة: للثلاجات المستعملة، للأثاث القديم، للغسالات، للكتب، للمعدات الكهربائية. لكل ما يمكن إدراجه تحت باب حطام الحياة أو أطلالها الشاهدة. ليست هناك حانوتًا للسجاجيد. حملتُ سجادتي وتقدمتُ على مهلٍ. الباعة كانوا مشغولين في مجادلة الزبائن القليلين ولم أكن على يقينٍ من أنني قصدتُ المكان الملائم. بمحاذاة حانوت للبرادات القديمة، لمحتُ كومةً من السجاجيد في عُمق الحانوت فقلت: فُرجت! دخلتُ الحانوت وانتظرت برهةً، فلم أرَ أحدًا. تنحنحتُ ثم نظرتُ حولي ثم تقدمتُ قليلًا أكثر. توقفتُ وانتظرتُ. «مئة»،

جاء الصوت من جانبي. كان التاجر الكهل يتناول إفطاره بهدوء ويقلّب إبرة المذياع ببطء، ذهابًا فإيابًا، فيصدر المذياع أصواتًا متداخلةً تلائم بشكل كبير أجواء الحانوت، فاستبشرتُ بهذه اللوحة السوريالية خيرًا. «مئة»، أعاد وهو يمضغ لقمةً من الخبز المغمسة بالتونا. «ماذا مئة»، قلتُ مبتسمًا. «مئة، هذا ما سأدفعه لقاء السجادة». إبتسمتُ أكثر: «ولكنني اشتريتها بخمسمئة، وذلك قبل سنوات، قيمتها اليوم تفوق الألف. إنها أصلية». عاد إلى الطعام ولم يرفع رأسه. أوقفتُ السجادة إلى الحائط وتقدمتُ نحوه. «أنظر إليها أولاً». كنتُ أجتهد لئلا أبدو متلهفًا على بيعها، ولكنني كنتُ أعلم أنه فرصتي الأخيرة، كما أنني كنتُ أخوض معركةً خاسرةً. فأي شخص يدخل مع سجادة للبيع فهو متلهف لبيعها. هذا بالضبط ما كان يعرفه هذا الكهل جيدًا. والعودة بالسجادة صعودًا وأنا جائع إلى الشقة لم يكن بالخيار المطروح أبدًا. «مئة»، أعاد مرةً أخرى، وعاد لتقليب إبرة المذياع.

نظرتُ حولي متأملاً: ثلاجات من كل جهة. عدتُ إليه. كان يتحايل على حبة زيتون خضراء في علبة زجاجية طويلة، فتهرب منه مستغلةً لزوجة السائل الذي يملأ الزجاجة. استحوذتْ حبة الزيتون على جلّ اهتمامه، فقررتُ استراتيجيًا ألا أُخرجه عن تركيزه لئلا تنشأ بيننا عداوة خفية. «ماذا قلت؟»، قال وهو ما يزال يناور حبة الزيتون. «هذا قليل جدًا، لماذا لا تنظر إليها؟». «أنا لا أنظر إلا عند الحاجة. مئة تكفي. هذه سجادة قديمة». «كيف عرفت أن الحاجة لا تقتضي النظر الآن؟». «لأنك فضحتَ نفسك بتلهفك».

عليّ أن أقول لك بكل تأكيد أنني اهتممتُ طيلة الوقت بألا أظهر له بأي شكل أنني متلهفٌ على بيع السجادة، وهذا صحيح مئة بالمئة. ولكن يبدو أن خبرتهم في التجارة أكسبتهم خبرةً في دواخل النفوس أيضًا. قلتُ له: «إسمع، أنا بحاجة إلى النقود فعلاً، ولكن مئة قليل جدًا». «هذا ما عندي»، قال مبتسمًا وهو يلتقط حبّة الزيتون ويُلقي بها إلى فمه بفرحٍ سخيف. «مئتان»، قلتُ مناورًا.

لا تغضبي على السعر المنخفض، فأنا كنتُ خططتُ لأن أطلب خمسمئة، فأحصل على اربعمئة، فأسترد رأس المال على الأقل. ولكنني في تلك اللحظة تيقّنتُ من موقفي المتدني أمامه، فرضختُ مكرهًا مرتين: مرةً لأنه يستغلني ومرةً لأنني أبيع سجادتك الملونة بثمن بخس!

«لا أحد سيدفع لك مئتين، لا أحد». «سأحاول»، قلتُ مكابرًا. حملتُ السجادة وهممتُ بالخروج، ولكن صوته أنقذني: «من أين اشتريتها؟». «من سوق القدس القديمة»، قلتُ مفاخرًا بمدينة الصلاة. ويبدو أن سوق القدس القديمة الآنت من بلاده

بعض الشيء، فقام وأشار إليّ بأن أتبعه. خرجتُ في أثره إلى المدخل ثم قال: «إفتح». أنزلتُ السجادة عن كتفي فأمسك بطرفها وفتحناها سويةً. كنّا نقف متواجهين، على الرصيف في سوق الخردوات، وكان يمسح يده الملطخة بـ«التونا» بطرف السجادة وينظر إليها بشبه ازدراء. في تلك اللحظة شعرتُ بحقارتي التي دفعتني إلى الوصول إلى ما وصلته في تلك اللحظة، فعزمتُ على وضع حد لهذه المهزلة. «حسنًا»، قال، «مئتان». خوزقني إبن العاهرة. سيدفع المئتين. نلتُ ما طلبته. ولسببٍ ما لم أشعر بالسعادة. لو قال بمئة وخمسين للففتُها في الساعة وعدتُ متأبطًا الجوع وإياها إلى شقتي وأكلتُ عند الجارة محتملاً سخافتها وخُلُو أفقها. ولكنه قال «مئتين» وشعرتُ بالخجل من أن أقلب عليه ظهر المجن، فرضختُ مرغمًا مرةً أخرى.

دخل إلى الدكان وتركني ألفّ السجادة لوحدي. عاد وفمه مملوء بـ«التونا» المنقرة وهو يعد المئتين بيدين ملطختين بالزيت الملطخ. «هاك»، قال وسحب مني السجادة. تناولتُ الورقات الأربع وعددتُها بسرعة. «ماذا ستفعل بها؟»، سألت وَجِمًا. نظر إليّ مستغربًا. «ماذا؟»، قال. «ماذا ستفعل بها؟»، أعدتُ بإصرار. «لماذا؟»، سأل باستهتار وهو يلفها حتى النهاية. «إنها من حبيبتي، الهدية الأولى من حبيبتي.. السابقة».. هزّ رأسه وعاد إلى الداخل ورمى بالسجادة على الكومة التي نحتُها قبل دقائق. في لحظةٍ عابرةٍ خلتُ كومة السجاد تلك كومةً لا نهائية من المحبوبات السابقات، فامتنعتُ عن البكاء بصعوبة بالغة. شعرتُ بحاجةٍ ماسةٍ للجري إلى الداخل وسحب السجادة وإلقاء الورقات الأربع الملطخة بزيت «التونا» القذر في وجهه.. أردتُ أن أفعل ذلك، عندما رأيته يقف أمامي، حبيبك الذي تركتِني من أجله. كان يقف أمامي ويبتسم. يبتسم مثل القحبة. مثل القحبة يبتسم، حبيبك!

حاولتُ أن أبتسم له. كنتُ أشدّ على الورقات الأربع في جيبي وأحاول ألا أنظر إليه. «رأيتُك وأنت تفاصله، إنهم أبناء قحبة هؤلاء الباعة. بكم بعتها؟». رأيتُ نفسي أتعاون معه دون مقاومة. شعوري بالهزيمة أمامه لم يبرحني منذ أن احتل مكاني. صرتُ من وقتها أشعر بالمهانة أمامه وبالذل وبالهزيمة. أجبته: «مئتان». «لا بأس، هذا سعرٌ جيدٌ قياسًا لهذه السوق». ابتسم نحوي فنظرتُ إلى الشارع وحاولتُ أن أتابع الحمال الهزيل وهو يناور ثلاجةً ثقيلةً يود رفعها إلى التندر. «هذه السجادة منها، أليس كذلك؟»، قال حبيبك. نظرتُ إليه بعينين زجاجيتين. لم أعد أرى كما كنت حتى قبل ثوانٍ. صار بالنسبة لي شفافًا ورأيتُ من خلاله وجهك الحزين وهو يشرح لك عني وعن وقفتي المهينة هذه، وكيف أنني بعتُ هديتك في سوق الخردوات، وكيف أنك تتذكرين السجادة وما فعلناه

فوقها لثلاث سنوات، ثم تشتمينني وتدمعين، فيضمك إليه ويهمس في أذنك: «إبن قحبة، إنه إبن قحبة، فلا تغضبي من امور تافهة..». كان ينتظر مني الجواب وللتاكيد اعاد: «هذه السجادة الملوّنة منها، أليس كذلك، اذكر انها حدثتني عن سجادة ملونة أهدتها لك وكانت تفكر قبل مدة بأن تطلبها منك لأنها تحبها بشكل خاص».. «أجل، هي منها، أهدتني إياها، وأنا أفعل بها ما أشاء». «بالطبع، بالطبع، وددتُ أن أتأكد فقط. هل تريد توصيلةً؟.. أنت لم تشترِ سيارةً بعد أليس كذلك؟». عدتُ إلى مراقبة العتّال الهزيل. كان قد نجح في رفع الثلاجة إلى السيارة الكبيرة وكان يربطها بحزامٍ ثخينٍ إلى السياج الحديدي. قال: «إلى اللقاء»، ومشى. تسمّرتُ في مكاني، وعدتُ أتحسس الورقات الأربع الملطخة بزيت «التونا»، وكانت قبالتي امرأتان عربيتان تبيعان الصبّار لأبناء عمنا. أردت التوجه إليهما ولكنني انكفأتُ وعدتُ إلى الشارع الذي سيحملني إلى شقتي في أعلى السفح الكرملي.

لم أكن لأروي لك كل ذلك، لولا أنني التقيت بحبيبك في السوق ولولا أنني متأكد من أنه سيخبرك او انه أخبرك في ساعتها بما فعلته. يمكنك أن تفكري ما تودين عني. أنني نسيتك وأنني ابيع هداياك وأنني نذل كما كنت تفكرين عني دائمًا. أردتُ في النهاية أن أروي لك ما حدث ببساطةٍ ودون تعقيد. انني كنت جائعًا ولم أجد ما آكله. وأنني لم أعمل منذ سنة وأن حياتي عاطلة عن الحياة منذ أن تركتِني، وأن كل هذا لا يهمني الآن. لا يهمّني أبدًا، لأن لا شيء يهمني منذ وقت طويل. أنا بخير وصحتي إلى جانبي وبصيرتي تسبقني دائمًا.

أنت لست ملزمةً بالرد على هذه الرسالة، بل أقول إنني أرجو ألا تردي عليها. مزقيها واعتبريها وقفةً إعلانيةً في المسلسل الذي نكتبه معًا، كلٌّ على حدة. لا تقولي شيئًا وأنا لن اقول شيئًا بعد الآن. كل ما أردتُ أن تعرفيه أنني بعتُ سجادتك الملونة بمئتين، وهذا يُعتبر إنجازاً في سوق الخردوات. إسالي حبيبك..

(من مجموعة «قصص لاوقات الحاجة» الفائزة بجائزة القصة القصيرة، للعام ٢٠٠٢، من مؤسسة «القطان» الفلسطينية)

كاتب فلسطيني مقيم في حيفا

ماجد خمرة

مارغاروش

هل هنالك تراث حيفاوي خاص باهالي حيفا؟ الجواب: نعم. إلا أنه غير مقطوع أو معزول عن مجمل التراثيات الفلسطينية وحتى العالمية. فتطوّر اللغة، مثلاً، أية لغة، هو عملية تاريخية معقدة مرّت بها كل الشعوب، حتى أن هناك تشابهًا في منطق ونهج إنتاج الحروف لدى العديد من الشعوب. وفي السياق نفسه والمسار تطورت التراثيات على أنواعها وتعدّديتها لدى معظم الأمم. فحيفا لم تكن بمعزل عن الحركة التراثية الفلسطينية والعربية والعالمية. فهي جمعت في داخلها تلك المكنونات والمكنوزات وجبلتها في أحشائها لتخرج إلى النور فولكلوراً مميّزًا لاهلها. لكن النكبة ووحيها ومن وقف ويقف من ورائها لم يمكنّوه من التطور أو حتى من الإنتشار داخل المجتمع العربي الحيفاوي بعد النكبة. فالبقية الباقية من عرب حيفا، الضائعة، الممزّقة والمنكوبة، لم تستطع نشر هذا التراث، ليس لسبب سوى لإقرانه بالصدمة (تراوما). فالصدمة كانت قاتلة لدرجة لا يقدر المصدوم – المنكوب بها على البوح بالكلمة على الرغم من أنه «في البدء كانت الكلمة». وكان لهذه الكلمة – التراث أن يُنشر ويتطور بانسياب طبيعي. وبينما يتخبط بالإنسياب وغير الإنسياب فقد سبقنا أخوتنا لابينا الخليل في البحث عن هذا التراث ليجعلوا منه أداة لحصولهم على هذه الرتبة العلمية الجامعية أو تلك. فذلك الاخ يبحث عن لهجة عرب حيفا الأصليين (وإنتو خلّيتوا أصليين؟!)، وتلك الأخت تبحث في اندماج العرب في بيئة جبل الكرمل قبل العام ١٩٤٨! وذاك الأستاذ الجامعي يتخصّص في نوع ماكولات عرب حيفا قبل النكبة! لا ضير! فنحن المقصّرون.

وما دمنا مقصّرين فلا بدّ من بداية ما، تلك البداية التي افتتحها ومهّد طريقها الأدباء أمثال اميل حبيبي وحنا أبو حنا والعديد ممن كتبوا سيرتهم الذاتية من خلال تطرّقهم إلى حيفا المدينة وعائلاتها وشوارعها، وإلى أسماء رجالات صنعت تاريخ هذه المدينة أمثال جميل البحري، أبو سلمى، عز الدين القسّام، سامي طه، سليم الخوري، راجي صهيون،

رشيد الحاج ابراهيم، حنّا نقارة، حبيب صنبر، حنّا عصفور، عبد الرحمن الحاج، المطران حجار، نمر الخطيب، مصطفى باشا الخليل، محمود الماضي، نجيب نصار، وغيرهم الكثير ممن لا تستطيع الذاكرة تحمّل وزن أعمالهم وعطائهم للمجتمع الحيفاوي بشكل خاص، وللمجتمع العربي الفلسطيني بشكل عام.

ففي كل رقعة من أحياء حيفا ستجد تلك المؤثرات من الحجارة والشبابيك والاقواس والشرفات التي ستروي لك قصة ذلك المكان وذلك الزمان. إذن، فنحن بصدد بقع ورقع زمكانية متناثرة في تلك الرقعة الممتدة من ساحة الحمرة (الحناطير/ باريس) غرباً إلى عمود الملك فيصل شرقاً. ففي هذه المساحة المنكوبة ما زال بعض من الحجارة القديمة تقاوم مخطط الهدم ومحق المعالم العربية. فجامع «الجرينة» الذي كان أطول عمارة في «البلد» أصبح قزماً أمام «عمارة الحكومة» يكاد يدخل قمقم سليمان الحكيم مع جانه أشمداي. أما «كنيسة السيّدة» التي أحياها ونفخ روح «ستنا مريم» فيها، من جديد، طيب الذكر، كميل شحادة، فقد اختفت عن الأنظار ليحجبها بنك «إيجود» ومكاتبه المكيّفة. وفي «حارة الكنائس» تبخّرت مدرستان للروم الأرثوذكس، واحدة للبنين وأخرى للبنات. ومؤخراً هدم بيت رشيد الحاج ابراهيم في شارع البرج (٩) وكذلك المدرسة الإسلامية للبنات قرب «مقبرة الاستقلال».

وكأنّ مخطط «شيكمونا» لم ينته منذ العام ١٩٤٨، حيث أتت الخطة على مساحة ٢٥٠ دونماً كان بن غوريون طلب من رئيس البلدية في حينه، شبتاي ليفي، تنفيذ أمر الهدم، إلا أنّ الأخير ادعى أن الأمر منوط بأمر عسكري وليس بقرار بلدي، وبالتالي فعلى الحكومة فعل ذلك. وفعلاً قام الجيش بتنفيذ الهدم. فما الفرق بين ذلك الهدم وهذا الهدم؟! وما الفرق فيما إذا كان عسكرياً أم مدنياً؟! على ما يبدو الفرق هو نحن ومجتمعنا المدني الحيفاوي الذي كان له أن يتطوّر كباقي المجتمعات وخاصة كونه مجتمع لمدينة بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط. نعم، كان سيتطور ويرتقي حتى بدون «تطوير» دولة إسرائيل له وحتى بدون نكبة. دعك من ذلك واقلب الصفحة في سفر النكبة!

ولنعد إلى رقعتنا الزمكانية ذات الأزقة الملتوية وغير الملتوية التي كانت تفوح منها رائحة البخور والعطور وصابون الحمّامات والقصص والخرافات. فالفسحة المكانية كانت ضيّقة والبيوت متلاصقة والعتمة مخيّمة ومخيفة والإيمان غيبي والناس بسطاء، والأديان الثلاثة برجالها منتشرة بين الجوامع والكنائس والكُنُس. أضف إلى ذلك عساكر الأتراك من اليوزباشي إلى الزابطية (ضابط في العربية) بكلابكهم («الكلبك»، قبعة الجندي التركي) وسيوفهم وطبنجاتهم المسلطة فوق رؤوس العامة. كل هذه الموجودات أدّت

بالسكان إلى إطلاق عنان أفكارهم للخيال وللإبداع، الموروث والمكتسب، ليحاكوا الجان والشياطين على أنواعها، وليؤلفوا قصصًا شيّقة تخرج معهم من الحمّام. فمن هو مارغاروش؟ إنّه إسم من أسماء الجان. وجرت العادة أن نبسمل (أي قول بسم الله الرحمن الرحيم) قبل ذكر إسمه تمامًا كما نذكر «الخضر أبو العباس» حيث نرفق ذكره بجملة «الدستور من خاطره». وعند كتابة هذه السطور بسملت كثيرًا كي لا أُصاب بأذى منه. وعلى ما يبدو فمارغاروش، حسب إحدى الروايات، هو أحد أبناء ملك الجان أشمداي الذي تحدّى سليمان الحكيم. وفي رواية أُخرى هو صهره لإبنته الجنية حشتماروش. ومهما يكن من أمر أصله وفصله. فمارغاروش أصبح بطلاً من أبطال جداتنا في بيوتهن وفي حماماتهن – «حمام الباشا»، الذي ما زال قائمًا في البلد مختفيًا وراء عمارة «شركة الكهرباء»، التي بنيت على قطعة من أراضي «الوقف الإسلامي»، وكذلك «حمّام دار كُزبَرْ» الذي لا يبعد كثيرًا عنه. وما دام مارغاروش هذا بطلاً فلا بد من تفصيل القصص من حوله على الرغم من قصر حجمه الذي كان يوصف عادة بطول العضو التناسلي الذكري حيث تقول الجدة «طوله طول الـ..». وبما أنه لم يكن إنسًا فقد أضفوا عليه صفات لا تليق بالأبطال، فعدا عن قصر حجمه كان وجهه طويلاً وعيناه طويلتان غير مستديرتين يعتمر قبعة جنيّة مزركشة بأحرف غير معروفة وإشارات غريبة لكنها تحوي شارة خاتم سليمان! أما يداه ورجلاه فكانت ممتلئة بالعضلات تبرز منها شرايين منتفخة يسير فيها الدم الأزرق!! وقد عُرف مارغاروش لدى العامة والخاصة برشاقته وعدم «قلة خواصه» (أي أنه كان نشيطًا ولم يكن منزوحًا حسب لهجتنا)، إلا أنه كان مخيفًا وخاصة عندما كان يحرّك راسه بسرعة يمنة ويسارًا تاركًا شفتيه الغليظتين للحركة بحرية فيخرج لسانه الطويل و«المرْوّص» ليُحدث صوتًا مرعبًا مرفقًا هذه الحركة بحركة رهيبة بكلتا يديه المفتوحتين مع أصابعه الثلاثة من كل يد. وللغرابة فقد أجمعت العامة على أنه كانت له لحية طويلة بطول جسمه، أما الخاصة فقد نفت ذلك.

هذا هو مارغاروش. لكن ليست هذه هي القصة فهو بطل من أبطال قصة «أُم ضريطة» التي جرت أحداثها في البيت الفخم الواقع بين «جامع الجرينة» وبيت نايف الحاج ابن عبدالله محمد فرج. وللأسف لا نستطيع تبيانه حسب الخرائط الحالية لأنه لم يعد قائمًا. ولكن على الرغم من ذلك نستطيع القول إن البيت الفخم يقع بين عمارة «بنك هپوعليم» (العمال) الشاهقة وعمارة «تسيم» (شركة الملاحة الإسرائيلية) الشاهقة أيضًا، وبالتالي ففخامة ذلك البيت ستختفي أمام هذه الشواهق. ومهما يكن من أمر فيحكى أن امرأة من تلك المنطقة كانت ملحاحة على زوجها و«تنقّ عليه» ليل نهار بأن يشتري لها حلقًا لأذنيها

فوعدها بذلك فأخبرت الجيران وهيّأتهم. لكنه رجع بدون حلق. فزجرته، ويا لشماتة الجيران! فقال لها: «شو حلق ما حلق.. أنت أحسن لك الخلخال، حتى تضعيه في رجلك اليمنى العامرة» (أي التي لا عورة فيها). اقتنعت الزوجة و«فزّعت» الجيران ووعدت بأنها ستدخل الحمام استعدادًا للخلخال. وفي ساعات الصباح المبكرة لفّت «بقجتها» الحمّامية دامّة في داخلها كل ما يتعلق بالنساء من ملبس و«ميزر» وصابون وطيب وليفة. وشرّقت من بيتها نحو «حمام دار كُرْيَر»، إلا أن الأمر كان في غاية الخطورة – الرجال يستحمون في ساعات الصباح والنساء بعد الظهر. كيف ستخرج بطلتنا من هذا المأزق وهي في نشوة من «كيفها» بالخلخال الموعود. فما كان عليها إلا أن تأخذ سلة من القش وتضع فيها سكينة المطبخ ذات النصل الحاد، التي اقتنتها مؤخرًا من دكان نعيم العسل (دكانجي، يقع حانوته قرب جامع «الجرينة» يبيع كل شيء من الملابس حتى المسامير)، فوصلت إلى باب الحمّام وهتفت «بريمو» (أي تريد الإستحمام بمكان خاص) فقيل لها ان لا مكان للنساء في ساعات الصباح، فأخرجت السكين وهددت: «ساقطع له إياه.. كل من سيعترضني». فدخلت الحمّام واستحمت بمياهه الساخنة وبخاره المنعش. رجعت المرأة إلى بيتها ولم يكن أي خلخال في انتظارها. وعلى ما يبدو فقد أراد الرجل التخلّص منها لانه ضاق ذرعًا بها وبطلباتها. قال لها: «بدناش لا حلق ولا خلخال، بدي أوديك على قصر، فبقرب بيتنا يوجد بيت فخم وهو لك». أما البيت إياه فهو مسكون بالعفاريت والجان ولا سيّما مارغاروش. فقد كان الرجل مدركًا أن البيت مسكونًا، حيث قال لنفسه لأرسلنها ها هناك وليأكلها مارغاروش. لم يستغرق إقناع المرأة سوى بضع دقائق حتى كانت على باب البيت المسكون فأدخلها زوجها وأغلق الباب بإحكام مستخدمًا «الشنجل». دخلت المرأة إلى البيت و«انبهرت» من فخامته ومن «عفشه»، فالرخام رخام وخشب المرينا مرينا والزان زان و«الثريات» «إشي إشي» ودورة المياه افرنجية «آخر السطة» و.. و.. إلا أن انبهارها لم يدم طويلاً.. دخل عليها مارغاروش بقبعته ولحيته ولسانه المدفوع إلى الأمام، وبدأ في حركته اللاإرادية وهمهم: «هم.. م.. هم.. م.. م.. يا بتشغليني يا باكلك.. هم.. م.. هم.. م..». تمالكت المرأة أعصابها بعدما «تمسمرت» في مكانها وزمانها وبعدما «دسترت» و«تفتفت» على اليمين والشمال. كيف لها أن تخاف وهي التي هدّدت الرجال في الحمام بقطع أعضائهم التناسلية. فعملت بحكمة عنزة «كليلة ودمنة» مع الأسد التي نذرت للإله «شيفا» أن تفترس عشرة أسود، وافترست تسعة منها وبقي لها أسد واحد. لكن امرأتنا لا تستطيع الإفتراس فعملت بنصيحة مارغاروش وشغلته، فأمرته: غسّل الصوف، فغسّل، كنّس، أشطف، مسّح، غسّل البرادي، رتّب الكومودينا (خزانة صغيرة تستعمل

إما للتحف أو للتخزين) قرِّب، أحفر.. فحفر (أحفر يا فرفور !!) وعندما انتهى مارغاروش من كل هذه الأعمال التي أنجزها بدقة متناهية، يعجز الإنس عن صنعها، توجّه إليها مرة أخرى بهمهمة أكثر شراسة من المرة الأولى: « يا بتشغليني.. يا باكلك »! فاحتارت امرأتنا من أمر هذا الجان، خاصة أنه لم يبق لديها من أوامر تامره بها لينفذها، فشمرّت عن فستانها النيلي وخلعت سروالها الداخلي وأدارت مؤخرتها له وأمرته بـ النش ». فبدأ ينش بسرعته الجنية حتى انتفخت ثم ضرطت فصًّا مرينًا ناشفًا وحاد الصوت « فتزعفل مارغاروش باربعته » ومات.

في أثناء كل هذه الأحداث من الأوامر وتنفيذها وكذلك النش والإنتفاخ كان الزوج قد جهز لزوجته تابوتًا ظانًا بأنه عندما يُفتح الباب بعد الثانية عشرة من منتصف الليل، وهذه هي ساعات عمل الجان في حارة شارع أمية في البلد، سيرى زوجته ميتة و« مرمية » أمام البيت الفخم، لكنه عندما فتح باب البيت رأى زوجته وإلى جانبها مارغاروش إبن أشمداي مطروحًا على الأرض ميتًا من « النش » ورائحته الكريهة. فبدلاً من أن يضع زوجته في التابوت، وضع مارغاروش فيه ودفنوه رميًا في مياه بحر دار الصيقلي خوفًا من رجوعه. إلا انه عاد وسيعود، لانه جان ولانه مارغاروش ولانه بطل من أبطال حارة الكنائس والبلد وشخصية من شخصياتنا الإنسانية. نعم هذا هو مارغاروش. أما « حمّام الباشا » فقد استمر في قصصه وخرافياته المعهودة والتي قد تضاهي قصص حمامات عكا ودياميسها التي تنقلها لنا بمشاهدها المسرحية المثلة، ابنة زواريب عكا، سامية قزموز – بكري. فلا عجب في تلاؤم وتوافق الروايات بين عكا وحيفا. فحيفا هي نسخة تاريخية عن عكا وبالتالي فسأعفي نفسي من رواية قصة الولد في الحمام والعروس ذات البدلة المحروقة من طرفها الأيسر أو الأيمن. فرواية حيفا يسرًا ورواية عكا يمنًا.

قصص تلك الرقعة الزمكانية لا تنتهي ولا تنتهي أيضًا روايات حماماتها حيث ظهر الجان في الحمام لأحد العرسان من دار السهلي و« لوى نيعه » لان أبا العريس لم « يعبّرهم » ولو بقطعة شوكولاطة واحدة، حسبما طلبوا، وذلك عبدالله كيّلو الذي عاد إلى زوجته « مشطبًا » في كل أنحاء جسده العلوي وقليلاً بجزئه السفلي مضافًا إلى « نيعه » الملتوي ولسانه الذي « بلتّ »، حيث قال لزوجته زينب إنّ الجان اعترضوه وهو راجع إلى بيته وبنوا حيطًا مانعًا حال دون عبوره للزقاق فعاركهم وكانوا سبعة أقزام ذوي لحاء حمراء يتوسطهم مارغاروش. هذه هي الرواية بينما الحقيقة التي جمعناها شفهيًا وكانت هناك صعوبة جمة في ربط أطرافها تقول بان عبداللة كيّلو كان سكرانًا « طيخة » خرج لتوه من « العوالم » في « قهوة السنترال » – معقل دار فاطمة الزعرة الباطرونة ليعود إلى بيته فعلق بـ طوشة »

عمومية ليس إلا.

إن ما يميّز تراثيات تلك الرقعة هو عمق الخيال ومزجه في الواقع وتأثيره على الحياة اليومية وكان همّ أهالي حيفا من تلك الفترة هو تفادي أذى الجان ومارغاروش والإستعاذة منهم ومن شرورهم، فغطوا المرايا في الليل خوفًا من الإنعكاسات وظهور العفاريت، وتفادوا القطط السوداء ليلاً ولم يتركوا المقصّات مفتوحة الأذرع تحسّبًا من أن يستخدمها مارغاروش وعائلته، وأكثروا من استعمال الحجب والفتح بـ« المندل » ووضع الحجارة المقدسة من الحج على الصدور كي « لا يكبسوا » فلانًا بإصابة العين. فلم يعد مارغاروش مجرد عفريت مخيف بل أصبح شخصية قرينة وملازمة للمجتمع العربي الحيفاوي وبطلاً من أبطالها نستطيع إضافته إلى « سعيد المتشائل » وفاطمة الزعرة، وغيرهما، من الخيال والواقع، بل أصبح أكثر من ذلك إذ تحوّل إلى مثلٍ يُتداول فقط في حلقات خاصة من أهالي حيفا الأصليين حين يقول الزوج لزوجته: « رايح أعملك مارغاروش ». للدلالة على استعداد الرجل للقيام بالأعمال المنزلية عوضًا عن زوجته، وليس للإخافة ودبّ الذعر والرعب.

هل شاءت الأقدار أن يموت مارغاروش وتتبخّر هذه الشخصية مع ما سحق وهدم من بنايات وحكايات « البلد » التي تدعى بلغة اليوم « البلد السفلى » أو « التحتا ». كلا. فحتى أفلام الرعب والخيال لا يموت أبطالها. حتمًا سيخرج مارغاروش المكبّل بالسلاسل والجنازير من بحر دار الصيقلي أو أبي نصّور أو من بحر العزيزية ليستقر في مكانه وغير زمانه في عمارات الحكومة في تلك الرقعة ليظهر لهم ويخيفهم ويذكرهم بأرضه، مرتع صباه وبيئته، من أهالي حيفا، كالزعبلاوي والخطيب والكنفاني والخمرة وحبايب وعابدي والماضي ومنصور ونفاع ونقارة وكيّلو والشيتي والبوتاجي وغيرهم. وسيبقى بطلنا راسخًا في رقعته شاهدًا على نكبتنا ولربما كرّمناه بنصب تذكاري نكتب عليه: « رحمك أشمداي يا مارغاروش ورحم الله أمواتنا ». ومهما يكن من أمر فنم أو قم يا مارغاروش قرير العين، فما أنت سوى منكوب إبن منكوب، ومع كل ذلك فليلعنك الله إلى يوم الدين لأنك جن وليس بإنس، ولأنك وحيٌ وهي نكبة.

كاتب وباحث فلسطيني مقيم في حيفا

هشام نفاع

ملخّصات كسولة لأكتوبر الأخير

حلم

أحلم بطائر الشتاء. يأتي صباحًا وينفخ في جمرة تركتها تذوي في جسد لهفتي.
يتصاعد دخان أزرق، يملأ غرفتي ويتسرّب إلى نومي فيكبر حلمي كالسماء.
وفي أفقها البعيد تتراءى لي غيمة تشبه كثيرًا شخصًا في مثل اغترابي.
.. ما أصعب النوم.

دمعة

لديّ دمعة جاهزة للاستعمال. لكنّي لا أدري أأنا من يذرفها، وقت الحاجة،
أم أنها تستعمل عيني
لتقول شيئًا عن قلبي
رغمًا عني؟

قول غير مأثور

السماء بلا لون.
فهي زرقاء فقط حين لا تغطّيها الغيوم،
أو النجوم.

جديّة

قبلتنا كانت باردة.
أهي شفاهك أم شفاهي أم هذا الطقس الشتوي؟
تعالي نتّهمه، وكفى.

قراءة

ها انا أحاول ان اكتب قصيدة:
اكتب اني اكتبها،
فتكون.

تفاؤل

كعود ثقاب تمامًا يحتكّ حزني بحضورك.
اتوهج قليلاً او اكثر،
ثم أعود كما كنت:
أسود كالحزن.

أغنية الغريب

كالغريب عن صوتك تكتب أغنيتك.
تخرج الكلمات من داخلِ خشنٍ فيك،
ومخارجها تتحشرج كبدايات ألم.
تفتّش عما كتبت،
تستعيد ما غنّيت،
وترى..
...
ترى أنك كمن كتب مرثاة
ذاتيّة.

موعد

عيونك الشقيّة
اصطدمت برزانتي الاضطرارية، ساعتها.
فتاجّل كل شيء.
(تأجل فقط).

خفّة

حين تعب راسي من المعرفة
امتلأ .
ولكن رشاقته انطلقت كسيقان ظبية صحراوية .

وجهة نظر

الموت نكتة،
شرط ألاّ يرووها لك – أنت شخصيًا .

مسرحية

– الحزن هو ألاّ يعود ما يبكيك .
– الفرح هو أن تموت من الخوف على فقدان فرحك .
– الموت هو الموت . فهذا الشخص لا يتقن التخفّي .
– السعادة هي أن تعي أنك ستموت يومًا، لا تتجاهل الأمر، لا تتناساه، ولا تغطيه بأي رب . . ومع ذلك تواصل العيش . .

رأس يابسة

الحقيقة هي كل شيء معًا دون فصل أو تمييز . إنها ضرب من الاستحالة، كما يبدو .
الوهم هو كل شيء معًا، بفضل الفصل والتمييز . وربما بفعل البحث الدائم عن الحقيقة .
وبينهما، الموقف :
أن تواصل مداعبة طفل حتى يتوقف عن البكاء،
أن تصرّ على منع الشرطي من انتاج عنفه القانوني،
وأن تظل تسخر من قوة الأقوياء .
رغم الحقيقة ورغم الوهم .

فرح ناقص

قمّة اللحظة كمفترق طرق . وحياتنا وقفة دائمة عند شارته الضوئية المعطّلة .

كاتب فلسطيني مقيم في حيفا

زكريا محمد

عصا الراعي

حلّ الخريف فجأة.

برد الجو وسرحت غيمات بيض في السماء.

مضيت إلى بيت أهلي من جديد. أخذت الطريق الإلتفافي الذي أقيم من أجل المستوطنات حول رام الله. طريق عريض، أوتوستراد يأخذك من رام الله مباشرة، من دون المرور بمخيّم الجلزون وعين سينيا والتلال والزيتون، إلى عيون الحرامية مباشرة. لكن عليك ان تمرّ من أمام مستوطنة «عوفره» إذا أردت الذهاب فيه. لم يعد هناك من ماء في عيون الحرامية، طبعًا. انتهى زمن العيون. انتهى زمن الينابيع. ابتلعت المستوطنات ماءَها.

ومن عيون الحرامية إلى «اللبّن الشرقي» فـ«الساوية» فـ«يتمه» فمفترق زعترة. ومن هناك غربًا، عبر المستوطنات، باتجاه القرية.

وصلت إلى البيت. وجدت أبي في الطريق عائداً من رحلته إلى وسط القرية. رحلته لا تتوقف. فما إن يصل ويشرب جرعة ماء حتى يبدأ في التفكير بالعودة ثانية، إلا إذا أخذ غفوة ما بعد الظهر. لكنه يصحو من النوم فيحمل عصاه ويهبط من جديد إلى البلد ليطوف من دون هدف طويلاً قبل ان يعود. وهكذا ينزل ليصعد ويصعد لينزل.

أركبته معي وعدنا. أكل ونام، وأنا أتحدث مع أختي.

قالت: ماذا حصل بشأن الموضوع؟

قلت: أي موضوع؟

ردت: موضوع أخيك. وهل هناك غيره؟

كانت عجوز «راس التل» قد عادت وقالت إن أبو أيمن قد غادر إلى ليبيا من عدة سنوات. وكان عليّ أن أتابع موضوع ليبيا. قلت لها: إتصلت بقيادة القوات في الخارج وقد وعدوا ان يتابعوا الأمر. ولم تصلني أية أشياء منهم حتى الآن.

قالت: لماذا لا تسافر إلى هناك؟

أختي تطلب ذلك لأنها تعرف أن وقتي ملكي على عكس وضع أخي.

رددت بغضب وتوتر: إلاّ ليبيا. لن أذهب إلى هناك أبدًا. لن أذهب حتى لو أطلقتم النار على رأسي.

غضبت أختي. وجاء أخي وكان هو غير راضٍ أيضًا. قلت لهما: إذا كان في ليبيا فلماذا لا يتكرّم ويرسل رسالة؟ ليست ليبيا في المريخ. وإن كان لا يريد الاتصال فمعنى هذا أنه كيّف حياته مع فكرة أنه بلا أهل. ولو كنت مكانه وانقطعت عن أهلي كل هذا الوقت لما اتصلت بهم. فهل من المعقول أن أزلزلهم، أزلزل حياتي وحياتهم بعد غياب ثلاثين عامًا، أو أقل قليلاً. هذا غير معقول. إنه يفعل الأمر الأكثر حكمة حين لا يتصل. لا بدّ أنه فكر في الإتصال مئة مرة ثم تراجع. معه حق في ذلك. لو اتصل سيخرب حياتنا. سيدفعنا إلى هوة بيديه ويقتلنا. إنه مثل أن تدفن ميتًا بيديك ثم يخرج من قبره في الليل ويأتي إليك وأنت غارق في النوم ويهزك صائحًا: لقد عدت؟

وزاد غضب أختي. ذهبت باكية وهي تقول: سأذهب أنا. والله إن لم تذهب سأذهب أنا.

نمت قليلاً، ثم صحوت. وكان أبي قد صحا ثائرًا. يريد أن يذهب إلى أحد معارفه في نابلس. وأخي وأختي يعرفان أن هذا الوقت غير ملائم للذهاب. فالوقت متأخر، كما أن الرجل ليس صديقًا لكي يستقبله في مثل هذا الوقت. رفضا أن يرسلاه فأصرّ وهدد بأن يذهب ولو مشيًا على أقدامه. ضرب بعصاه الأرض. ضرب شجرة الصبّار فأسال نسغها. حاولت أن أهدئه. قلت له: خلّنا نذهب إلى الزيتونات يا أبي. رد بقوله: الآن أريد أن أذهب إلى نابلس. رجوته، تحايلت عليه حتى وافق على الذهاب معي إلى كرم الزيتون.

أعلم أنه لم يعد يحب أن يذهب إلى هناك. فمنذ أن لم يعد قادرًا على العناية بالأرض تحوّل كل شيء إلى خراب: السلاسل الحجرية انهارت، الشوك باض وعشش تحت الأشجار، الأغصان اليابسة تُركت معلّقة ولم تزل، وتناقص المحصول السنوي إلى الثلث. الزيتون يغفر كل شيء إلا عدم التقليم وعدم الحراثة وإزالة الأشواك من تحته.

حمل أبي عصاه ومشى معي. وحين وصلنا إلى الأرض دخلنا من «المفتحة»، وهي ثغرة في السلسلة الحجرية وضعت للدخول والخروج. ولم يكن هناك شوك لسدّها بعد استخدامها، لذا فالدواب تستطيع أن تدخل متى شاءت. دخلنا وتأملنا الزيتون بخضرته الفضية. ظهر الورقة أخضر وبطنها فضي. ومن الأخضر والفضي ينشأ لون الزيتون المحيّر: أخضر، رمادي، فضي. أمسكت ورقة زيتون ومسحتها بكمّي ثم وضعتها في فمي وعلكتها. ورق الزيتون لا يعلك، لكنني أحبّ مرارته في فمي.

أعادني الطعم إلى الماضي.

بيدي هاتين كسرت أغصان الزيتون الخضر وأشعلتها عندما فوجئت بمطر الشتاء. يقولون: أخضر الزيتون ولا يابس الحطب. فالزيت الذي تحويه الأغصان يجعلها تحترق بشدة حتى وهي خضراء. وهي تحترق مطلقة أزّات وصرخات بسبب الماء الذي في داخلها. وبيديّ هاتين أيضاً هجّنت زيتونًا بريًا بزيتون جوي. أذهب إلى زيتونة جوية، وأبحث عن غصن بسمك إصبع. وحين أجده أبحث فيه عن برعم صغير. وحول البرعم أرسم مربعًا بالسكين، ثم أقلع البرعم مع القشرة وآخذه هونًا بيدي. بعد ذلك أذهب إلى الزيتونة البرّية التي زرعناها العام الماضي وأجرح ساقها الرفيعة جرحًا طوليًا، ثم جرحين عرضيين على طرفي الجرح الأول، ثم أفتح اللحاء الأخضر على الجانبين كما أفتح صفحتي كتاب. وفي الفتحة أضع البرعم وأغلق عليه اللحاء، وأربطه بشريط قماش حتى لا ينفتح. وبعد أُسبوعين أو ثلاثة أعود لأزيل القماش فأجد أن البرعم قد نما وصار على وشك أن يخرج من تحت القماش. أتركه لأسابيع أُخرى حتى يشتد عوده ثم أرجع مرة أخرى لأقص كل أغصان الشجرة الصغيرة ليكوّن هو وحده الشجرة المقبلة.

التهجين جرح. جرح ينتج مولوداً جديداً. وقد جرحت بيدي أشجاراً كثيرة. وكان أبي يذكرني بهذا كلما جئت وإياه إلى هنا. يقول لي: أتذكر؟ لقد ركّبناه معًا، وسقيته أنت على الحمار وزبّلته.

أنا أتذكر الجرح والماء والزبل والحمار. أتذكر التلم الذي كانت سكة المحراث تفتحه وأبي يحرث وينهر الحمار في الخريف بعد المطر. الحراثة أيضاً جرح. الحمل جرح، الولادة جرح. الأبوة جرح. البنوّة جرح. الحياة جرح.

لكن أبي لم يعد يذكّرني بأيّام التهجين. لم يعد يهتم رغم أنه جاء معي إلى الكرم.

قال أبي: ربما لن أعيش لأرى موسم السنة المقبلة. قلت له: ستعيش يا أبي، ستعيش. أنت ما زلت قويًا. لا تشغل نفسك بالموت. ألست تمشي كل يوم ساعتين أو أكثر؟ قال: بلى. قلت ستعيش عشر سنوات أُخرى. وكان يحب هذا التأكيد. ما دمتَ حيًا يا أبي فأنت حي. إنسَ الموت. وكان يصادق على كلامي، لكن عقله المشتت، عقله الذي أخذ يفلت منه، ينسيه كلامي بعد ساعة أو أقل.

وكنت ألعب معه دور الإبن الأكبر. فإبنه الأكبر مضى منذ زمن بعيد. وهو لم يعد يتكلّم عنه. لم يعد يتذكره ربما، أو قل لم يعد يهمه أن يتذكره. فالموت يحوم فوق رأسه. وهو مشغول به لا بشيء آخر.

عدنا. تركنا كرم الزيتون، ومررنا على ما تبقى من تين. بضع تينات عليها ثمرات قليلة

لم تنضج. أخذ أبي يقطف الثمرات ويرميها على الأرض. سألته: لِمَ تفعل هذا يا به؟. رد علي: خلاص، خلاص. فقلت في نفسي: أبي الذي كان يطعم الطير في راحتيه يفعل هذا؟

وحين عُدنا إلى البيت جلسنا على الأرض، وكانت الشمس على وشك السقوط. أبي صامت، صامت تمامًا. سألته: لِمَ لا تحكي يا به؟ إحكِ عن الأيام الماضية.

رد علي: لم أعد أستطيع أن أحكي بعد أن خطف الطائر عقلي.

قلت: الطائر يا به؟

قال: كنت بين النائم والصاحي عندما جاء. نظر في عيني ورف بجناحه عند جبيني – وجعل يده مثل طائر منطلق من الأسفل إلى الأعلى – وأخذ عقلي ومضى. أبي في ما يبدو يتحدث عن شيء يشبه الحلم. فلأنه كان يشعر أن عقله يفلت منه، فقد حلم بطائر يخطف عقله. إنه مقتنع بأن هذا قد حدث حقًا. جاء الطائر. حوّم فوق البيت وأبي نائم أو شبه نائم على الكرسي فوق المصطبة المرتفعة. حوّم مثلما تحوم الحدآت فوق الصيصان لتخطفها. سمع أبي بزعقته وهو بين النوم واليقظة، لكنه لم يكن قادرًا على فعل شيء. كان مروبصًا: يداه موثوقتان بنوم غريب، نوم واعٍ.

أدرك أبي أن الطائر يحوم حوله، وأنه يتحين الفرصة لكي يخطف منه شيئًا. أدرك ذلك. لكن يده كانت نائمة وهو شبه صاح. لذا لم يتمكن من أن يهش الطائر. نزل الطائر، نزل من دون أن يصل إلى الأرض، ثم علا بسرعة مارًا بالقرب من عينه اليسرى، وخفق بجناحه خفقانًا عظيمًا، ثم خطف عقله ومضى.

ومنذ أن خطف الطائر عقل أبي وهو يطوف في الأرض بلا توقف. يحمل عصاه وجسده النحيل ويطوف، ليعود إلى البيت بساقين مجروحتين.

برفة جناح واحدة خسر أبي عقله وهدوءه.

وخسرتُ أنا يقيني. صارت الأبوة والبنوّة عندي مخليان للحرب والقتال. صارتا كذبة. صارتا حجرًا تعثر به إصبع القدم الحافية.

أنام على وجهي في الليل، وأصيح يائسًا في قطن المخدة: أيها الطائر أعد عقل أبي. أيها الطائر أعده.

أبي يطوف الآن بعصاه، لا يقر ولا يهدأ. غاضب على نسله. غاضب على بذرته التي بذرها. وأنا أقول لنفسي ولقطن المخدة: إنه الطائر يا به، إنه الطائر. ويعلّق قطن المخدة على طرف فمي.

الا تذكر ابنك الضائع يا به؟

الا تذكره؟

إنه يتذكّر ثلاثة أشياء بلا كلل: الموت، عصاه التي تقود خطاه، ثم شجرة الصبار التي يكرهها ويريد ان يحطمها بالمنشار او الفأس.

وحين قلت له مودعًا: بخاطرك يا به، قال: ألا تقطع هذه الصبرة التي تحجب عنا الشمس؟

عدتُ إلى البيت مشيًا.

كنتُ راغبًا في ان أخلخل عظامي التي تكلّست من كثرة الجلوس وراء الطاولة. وكان هواء الخريف ينذر بالمطر. وعلى درج البيت وجدت مغلفًا صغيرًا. حملته. ومن دون ان أفتحه ادركت أنها رسالة جديدة منه. سألت زوجتي وأولادي إن كانوا قد رأوا احدًا يضع رسالة على الدرج، فقالوا: لا.

عاد إليّ الغضب القديم، الغضب الذي لم أنفّس عنه. لقد بحثت عن الرجل فترة ثم نسيته. وظننت انه هو الآخر نسيني. توقفت عن البحث، رغم انني اقسمت أن أصطاده، وأخنقه بيدي. هكذا انا دائمًا، لا أتابع ما ابدأه، ولا أصل بشيء إلى نهايته.

وضعت الرسالة أمامي على الطاولة، وقلت: ما الذي يخبئه لي هذه المرة، وأين ستصل تدخلاته؟ فتحت المغلف فوجدت جملة واحدة، كما في المرة السابقة:

«أخوك تحت نظرك، وأنت لا تراه؟!»

ثم التوقيع إياه.

قرأت الجملة مرة أخرى، ثم ثالثة لكي استوعبها: اخوك تحت نظرك وانت لا تراه. ما الذي يعنيه؟ أيعني أنه يعرف عن أخي شيئًا؟ طيّب، لماذا لا يقول لي ما يعرفه؟ ما الذي يمنعه من ذلك؟ إن امتناعه عن تقديم ما يملك يعني انه لا يملك شيئًا، وأنه يلعب على موضوع أخي من أجل هدف ما. من هذا الرجل؟ من يكون؟ لعبته تكبر لحظة بعد لحظة وانا لا أستطيع ان احدس بعد الآن بهدفه. يبدو ان فكرتي الاولى عن التشويق وإثارة الإهتمام لم تعد مقنعة.

حاولت ان أستحضر ملامحه في دماغي: رأسه الاشيب، عيناه الحزينتان، لحيته النابتة، أنفه العريض، سنّه المخلوعة، وحبة «الملبّس» الحلو في فمه. من يكون هذا الرجل؟ أيعرف حقًا شيئًا عن أخي؟

أغمضتُ عينيّ لكي افكر بشكل أكثر تركيزًا. الاشياء امام عيني تشتت فكري. اغمضتُ لاحاول ان امسك بفكرة ما، فكرة تحوم، تقترب وتبتعد. لكنني لا اتمكن من ان أصل إليها، او انني لا ارغب حقًا في الإمساك بها، فيطحن الصداع رأسي.

أيمكن لهذا الرجل ان يعرف شيئًا عن أخي؟ إنه يشير بشكل ما إلى ان أخي موجود هنا

قريبًا مني . وهذا جنون كامل . لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا . كما أنه لم يبد عليه أنه يعرف شيئًا جديًا عني وعن عائلتي في المرتين اللتين رأيته فيهما . إذن، فهو يتدرّج بموضوع أخي الذي لا يعرف عنه شيئًا من أجل أمر ما . ولكن لماذا كان يصر على أن يحتك بي في المقهى؟ لماذا كان يلاحقني بعينيه؟ أكان يعرف شيئًا عن أخي حتى قبل أن أجالسه، أم أن كل ما يعرفه عن عائلتي جاء بعد أن عرفني؟

دار رأسي من الإرهاق والتوتر . لم أعد أدري أين أنا . هذا الرجل يريد أن يدفع بي إلى الجنون .

ولكني أتغلّب على أفكاري بشأنه قمت إلى أوراقي القديمة المخبّأة في الكراتين لكي أعثر على الصورة الوحيدة التي أملكها لأخي . لم يكن عندنا صور له . الفلاحون لا يتصورون كثيرًا ولا يحتفظون بالصور . وإن احتفظوا بصورة فستكون صورة هوية شخصية أو جواز سفر . وحتى هذه الصور لم تكن موجودة عندنا . كانت لدي هذه الصورة فقط . أعطاني إياها واحد من أصدقاء أخي . أوقفني في الشارع في عمان وقال لي :

– أنت أخو إبراهيم؟

– نعم، كيف عرفت ذلك؟

– بالدم، الدم دليل لا يخيب .

– أين هو الآن؟

– مفقود .

– منذ متى؟

– منذ عام ١٩٧٣ .

– أين اختفى ؟

– آخر مرة شوهد فيها كانت في جنوب لبنان، حسب بعض الشهود .

– لقد كنت معه في الاغوار .

ثم قال لي : تعال، تعال معي لاريك بعض الصور .

ذهبت معه وأراني مجموعة من الصور، بعضها باللباس العسكري، جمعت بينه وبين أخي . امسكتُ بواحدة منها ورجوته أن يعطيني إياها . أخذ الصورة وكتب على ظهرها : « الغائب سيعود بإذن الله . فالدم سيعثر على الدم إن تبعه » . كان من الجنوب، من « الطفيلة » . وقد آمنت بكلمته وتبعت الدم . تبعته كما اتبع الذهب الآن . لا . كما يتبع الدم رائحة الدم . كما يتبع نداءه الصارخ العميق . بحثت عن الحافر لكي أضعه فوق الحافر، لكنني اضعتُ طريقي .

أخرجت الصورة. تأملتها. لونها كالح يميل إلى الترابي رغم ان أصلها أبيض أسود. أرى ملامحه الآن مثل ملامح أخي الأصغر: شعر كستنائي مرجل، أنف أفطس قليلاً، عينان كبيرتان، وجبين عريض.

تعبت من النظر إلى الصورة فتركتها، وعدت بأفكاري إلى الرجل الذي يطاردني.

ثم خطرت لي فكرة مخيفة: أيمكن أن يكون ثمة علاقة بين الرجل والمرأة من «راس التل»؟ لماذا تصادف خبرها مع اهتمام الرجل وإشاراته الغامضة عن أخي؟ هل أتعرّض لمؤامرة أوسع مما أظن؟ هل لهذا علاقة بالبحث عن الذهب؟

تشابكت الأسئلة في رأسي؟ خفت على عائلتي، فقلت: يجب ان لا أغرق في الأوهام، أوهام المؤامرات الكبرى. يجب أن لا أصاب بالهوس. لست بهذا القدر من الأهمية حتى يتحالف العالم ضدي. يجب أن أتوقف هنا وإلا صارت هذه الأفكار مرضاً. ليس ثمة علاقة للمرأة من «راس التل» بكل هذا. لقد جاءتنا بخبر وذهبت. هذا كل شيء. ليس هناك علاقة للأمر بالبحث عن الذهب، فنحن لم نعثر على الكنز لكي يطاردنا الناس من أجله. ثم إنني لا أكاد أذهب مع عادل وأبو مروان في جولاتهم. لقد شغلتني أموري العائلية تمامًا.

مع ذلك فقد ظل لديّ الإحساس بأنني أسير وسط شبكة من الأكاذيب التي لا أعرف هدفها، ولا أدري أين تريد أن تقودني.

وصممتُ أن أعرف. صممت أن أزيح شبكة الأكاذيب.

قلت: سوف أمسك بهذا الرجل. أُقسم بالله أن أمسك به، وأن أعرف من هو، ومن الذي يحرّكه، ولم يفعل ذلك. سوف أبحث عنه وأجده. لا وقت لدي للبحث عن أشياء أُخرى. لا وقت للبحث عن الذهب هنا ولا النحاس.

خرجتُ من البيت. لم أعد قادرًا على البقاء هناك. مشيت على غير هدى في الشوارع. تلفتُّ في وجوه الناس. كل من اقترب من الخمسين يشبهني. وكل من فاق الخامسة والستين يشبه أبي. دخلت الوجوه في بعضها وأنا أحدّق فيها. بدا الناس متشابهين إلى حد مُهلك. وتذكرت حين ذهبت إلى بيروت قبل عشرين عامًا للبحث عن أخي. لم أكن أعرف أحدًا هناك. مشيتُ في محيط الجامعة العربية، وتلفتُّ في الوجوه كما أتلفت اليوم. تلفتُّ وضِعت. الوجوه كلها مثل بعضها. وكلما رأيتُ واحدًا في عمر يقترب من عمره قلت: ها هو. ثم يمر واحد آخر فأقول: لا، ها هو. حتى دختُ تمامًا. الآن أرى أن كل الناس متشابهين كما في تلك اللحظة. كل واحد في الشارع يشبهني أو يشبه أخي كما أتصوره، أو يشبه أبي. الناس هنا نسخ عن بعضهم. أنظر في الوجوه، أحدّق فيها. أحاول أن أقدّر الشبه بينهم وبين أخي.

مشيتُ. نسيتُ البحث عن الرجل وأخذت أبحث عن أخي. إنني أقارن الوجوه بوجهه المفترض بعد ربع قرن من الصورة. هكذا سيكون وجهه الآن، مثل وجه هذا الرجل. وانتبهت إلى نفسي. قلتُ: لقد نجح صاحب الحرذون، فقد غرس في رأسي فكرة أن أخي هنا وأنني لا أراه.

مشيتُ غاضبًا أفكر كيف يقضي الإنسان حياته وهو يبحث عن شيء ما. إنه يحفر في التراب مثل دجاجة. يحفر ويعقر على راسه مثلها. افكر كيف حنيت رأسي وجذعي لابحث طوال عمري عن شيء ما. كلمة واحدة تجعلني أدور وراء أي شيء. وراء أخي. وراء الذباب. وراء رجل الحرذون. وراء الضابط العثماني. كلمة من واحد أبله في مقهى. كلمة من عجوز نستاءة. كلمة من باحث عن الذهب. من باحث عن الوهم. ها أنا ذا بعد أن بحثت لسنوات عن الوهم، ابحث عن الصمت، ثم يأخذني الصمت إلى الذهب، فيسلّمني الذهب إلى العدو، ويسلّمني العدو إلى الماضي، لكي أدور وراء الخطى التي اختفت. ها أنا أعود إلى البدء. أبحث عن أخي، أو عن قاتله.

سوف أمسك به. سوف أنال منه. سوف أخرجه ولو من رحم أمه.

مشيتُ حتى تقرّحت قدماي.

مشيتُ وتلفتُّ حتى لم أعد أرى.

ثم عدتُ إلى البيت.

نمت. حلمت بأخي.

كان جالسًا مثل تمثال بوذي، وكنت أدور حوله وأصرخ فيه لعلّه يتكلم. لكنه ظل صامتًا. غضبتُ، غضبتُ جدًا عليه، على التمثال البوذي، فدفعته بيدي. سقط وتكسّر. أصبت بالذعر وبكيت. كيف سألمّ حطام التمثال وأعيده إلى وضعه؟ ثم صحوت. صحوت وجسدي يرجف كأنني قتلت أخي. لم أستطع أن ألمّ حطام أخي كما لم يستطع قابيل أن يلم جثة أخيه ويدفنها « يا ويلتي! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي؟ ».

لم أستطع أن أغفو بعد هذا الحلم. نهضت. الساعة هي الثالثة بعد منتصف الليل. صورة أخي كتمثال بوذي تملأ رأسي. أنا أذكر من أين أتت هذه الصورة. أذكر أصلها الواقعي. لقد كتبتُ عنها عندما كنت أحاول أن أكتب مذكراتي. أحضرت أوراق المذكرات، وقرأت:

« عندما عاد أخي براتبه الأول لم نعش الفرحة المأمولة. كان الراتب المفترض ستة عشر

ديناراً. لكن أخي صرف منه أربعة دنانير كاملة، أي ربعه بالضبط. وجد لأول مرّة نقودًا في يديه فأراد أن يجرب حرّيته في صرف جزء منها. لكن أبي لم يكن مرتاحًا من ذلك. لم يخطر في باله أن يحدث ذلك، خاصة أنه كان يريد أن يعيد الدين الذي أخذه لكي يدفع لمن دبّر الوظيفة لأخي. كان الأمر هكذا في أيامها: إدفع تتوظّف، ولعلّه ما زال هكذا حتى الآن. لقد توقّع أبي أن يأتي الراتب شبه كامل. وحين علم أن ربعه قد طار كان غاضبًا. لا، لقد كان يائسًا. يأسه كان أعلى من غضبه. وأنا لا ألومه على ذلك. أنا لا ألوم أخي أيضاً.

• كنا في أوائل الستينيات. لم نكن خرجنا من الجحيم بعد، جحيم الفقر والبؤس. كان الخروج أملنا. والراتب هو مفتاح هذا الأمل. لكنه لم يأت كاملاً. ضاع ربعه. وأبي يخشى من دون شك أن نصفه سيضيع في المرة القادمة. وبذا سيقفل طريق الخروج من الجحيم.

• جلس أخي متربعًا على الأرض، وجلس أبي أمامه ليقرّعه. كان تقريعًا مريرًا لا يوجه إلى أخي مباشرة، بل إلى وضعنا عمومًا. كان يشبه أن تقول: يا خسارة أملنا! كيف سنعيش إذا بدأنا هكذا؟ كيف سيأكل الصغار؟ كيف سيتعلّمون؟ لم يكن الكلام موجهًا إلى أخي، لكنه كان يصيبه في القلب. أما أنا الذي كنت أنتظر عودته بعد شهور طويلة من الغياب فقد أصابني الكلام في الأعماق. كنت متعاطفًا مع أخي، صامتًا مثله، غير قادر على الكلام. لم يطلب أحد مني أن أتكلم أصلاً. لكن من المفترض أن أكون حجّة بيد والدي ضد أخي. فأنا فم يريد أن يأكل. أخي متربع على الأرض مثل تمثال بوذي، يعبث بيديه. وأبي الذي لا ألومه يحول الأمر إلى ميلودراما، لأنه محبط، ولأنه لم يكن يريد لهذا أن يحدث مرة أخرى.

• رأيت منخري أخي ينتفخان من التوتر. رأيته يداري رغبته في البكاء بسحبات هواء من رئته بين الحين والحين. هذه السحبات كانت الحماية الوحيدة الممكنة في وجه التقريع، الحماية الوحيدة ضد البكاء. كان سيبكي لولاها.

• جالسًا كالكاتب الفرعوني كان أخي. لكن بصره للأسفل لا للأمام. وجالسًا مثل قاضٍ لا يرحم كان أبي. أخي على حق في أن يصرف دنانيره الأربعة، وأبي كان على حق لأنه يريد إخراجنا من الجحيم. وأنا لم أكن على حق في صمتي، لكن أحدًا لم يطلب كلامي.

• أتذكر المشهد الآن في الغرفة الإسمنتية الضيقة الحارة، فيبدو لي مشهدًا رمزيًا قاسيًا: مشهد الشقاق بين الإبن وأبيه، مشهد أن يكون الواحد إبنا أكبر لأبيه، وأن يكون جسرًا لعبور أهله وإخوته، أو أن يكون أخًا ثانيًا يشهد على أخيه ويدينه من دون أن يفتح فمه.

• أستدعي هذه الصورة الآن، وأنا أنظر إلى المشهد من فوق، من علٍ، فنبدو الثلاثة، بمن فيهم أنا، صغارًا تدخلهم جحيم التجربة أربعة دنانير أردنية. وفي المشهد أبدو مكلومًا مثل

ابي واخي، لكنني لا أقدر على الخروج من الدور الذي رسم لي: دور الإبن الثاني. دور شاهد الإثبات ضد أخي».

ذهبتُ إلى المكتب صباحًا خائفًا من أن اعثر على رسالة أخرى. بل لعلّني كنت راغبًا في أن أعثر على واحدة أخرى على طاولتي. كنت خائفًا منها، راغبًا فيها. فقد سيطر الوضع الذي أجدني فيه على عقلي. ما عدتُ قادرًا على العمل جديًا. ما عدتُ قادرًا على البقاء في البيت. أطوفُ المدينة صبحًا وظهرًا وعصرًا وليلاً. كلما سنحت لي الفرصة طفت، لكن من دون خطة. أدور هكذا وأحدّق في الوجوه. ليس ثمة خيط يقودني إلى هدفي، ليس ثمة حدس يدفع خطاي. ثمّة أمل بأنني ساعثر عليه، أمل يقوم على الصدفة لا غير.

إتصل بي عادل. سألني عن الجديد في موضوع أخي، وكنت قد حدّثته عن الخبر الجديد، وأنني لا استطيع ان اذهب معهم للبحث عن الذهب كل مرة. قلت له: لا، لم يحدث جديد. سألته إن كان يعرف شخصًا في الخامسة والخمسين من عمره إسمه «أبو يوسف» في رام الله وأوصافه كذا وكذا. قال إنه لا يعرفه. قلت: ألم تره مرة معي في المقهى؟ رد: لا اذكر. وأضاف: غدًا سنحفر في موقع مهم. الا تأتي؟ يبدو أنك تركتنا وحدنا. قلت: مستحيل يا عادل. لا أستطيع. إن وجدتُم الذهب فاتركوا لي حصة صغيرة. وضحكت.

اي ذهب بعد الآن يا عادل. لقد رمى أحدهم النار في بيدري. هبّت النار ودخلَت من النافذة، وعلِقت بقميصي. أريد الآن أن اطفىء النار أولاً، ثم بعد ذلك يأتي دور الأشياء الأُخرى: الذهب والصمت وصيد الذباب، وكل شيء.. كل شيء.

ذهبتُ إلى أحد الأصدقاء من العسكريين، وطلبت منه أن يتابع موضوع ليبيا. قلت له: إنهم لا يهتمّون بالمفقودين ولا بذويهم. قال: أنا اعرف واحدًا من عناصر بقايا القوة الفلسطينية في ليبيا وسأحاول أن آخذ عنوانه من أهله وأساله. شكرته ومضيت.

عرفتُ من هنا وهناك أن من ذهب من العساكر الفلسطينية إلى ليبيا إما أنه مات في تشاد، او انه محبوس في واحة جغبوب ولا أمل له في العودة. قلت في نفسي: أيمكن أن يكون اخي قد قضى في تشاد؟ يا له من مصير سيء لأي احد ان يموت هناك في الصحراء الكبرى على بعد آلاف الأميال ومن اجل هدف مجنون لا علاقة له به.

(فصل من رواية ستصدر قريبًا)

شاعر وكاتب فلسطيني مقيم في رام الله/ فلسطين

رۋى>>

مارسيل خليفة

الموسيقى ليست محايدة

الإبداع.. هو لذة المبدع قبل أن تصبح متعة السامع أو المشاهد. وهذه اللذة لا تتحقق بدون كامل الحريات التي يستدعيها العمل، خاصة عندما يكون الوطن محتلاً. فليست الموسيقى محايدة، إنها تقاوم الاحتلال. وموقع الموسيقى ليس إلاّ في قلب المواجهة المحرِّرة للوطن، المحرِّرة للإنسان.

عندما يتعرّض التطور الدمقراطي والتطور السلمي للوطن إلى أي شكل من أشكال الاحتلال، فالموسيقي لا يجد مكانًا آخر له إلاّ في موقع الدفاع عن التطور الدمقراطي والتطور السلمي لشعبه ولوطنه.

عندما أكتب الموسيقى أشعر بحصانتي ضد هذا العالم ونظامه الجديد. أصير قويًا وقادرًا على المجابهات. أمتلك أسلحتي التي لا تخذل ولا أعود أكترث بأحد أو بشيء. لن أسمح أن أتغيّر تحت طائلة أي هوى أو إغراء، أنا زاهد في كل شيء. لا تغريني سوى الحرية. لا أملك شيئًا ولا يمتلكني شيء.

وفي هذه اللحظات الحاسمة التي يعيشها أبناء شعبي في فلسطين أتوقع حسن تفهمكم الموضوعي للذي يجعل فنانًا مثلي يضع نصب عينيه القضية الإنسانية التي يعيشها شعبي حتى الآن، والتي ليست مسألة تاريخية فحسب، بل إنها واقع يومي لا أستطيع تجاوزه. وإن ما بيننا وبين القوة الإسرائيلية هو انعدام المسافة الإنسانية التي تتيح للمرء التفكير مع تجاوز التفاصيل. كما إنني لا أرى مع مشاريع السلام الراهنة مسألة تقلل من وطأة القتل التي يعيشها شعبي يوميًا وتحت بصر العالم، على أمل أنكم تشاهدون على شاشات التلفزة ما يحدث يوميًا مع فلسطين.

وإذا جاز لنا الكلام عن استعداد «الفن والموسيقى لأن يكونا سببًا لتوحيد الناس» فمن المتوقع أن تقدّروا أنني أحد أكثر الذين يسعون بفنهم الموسيقي لتحقيق هذه الحقيقة. غير أنه سيكون من باب الاستهانة القول بأن ثمة أشكال عديدة للتعبير عن الرفض الصارم لكل

أشكال القتل التي يتعرض لها شعبي منذ سنوات طويلة من قبل الجيش الإسرائيلي .

هذه الارض لأبنائها منذ الازل وإلى الأبد . شعب محتل يقاوم الاحتلال على أرضه . إن للفلسطينيين وطنًا ، واسم هذا الوطن فلسطين . وإن فلسطين هي الارض التي انشأ عليها الإسرائيليون دولتهم . إنها الارض نفسها وليست ارضًا أخرى .

التفريق بين المناضل والموسيقي في شخصية المبدع هو بالدرجة الأولى مقتل الإبداع نفسه لدى هذا الفنان . ولعلكم توافقون معي على اعتبار هذا المؤتمر الموسيقي وجهًا من وجوه التعبير عن مسؤوليتنا تجاه الثقافة الموسيقية نفسها وتجاه شعوبنا وأوطاننا في آن . نرفض فيه تهمة « التسييس » التي تُشهر بوجه الاقلام والافكار والأشعار والالحان والأغاني ، والتي لا تُشهر إلا لعرقلة نهوض المبدعين إلى اتخاذ موقف ثقافي وطني في مواجهة الاحتلال . إن المروجين لهذه « التهمة » هم الذين يمارسون ، في الحقيقة ، ابشع أنواع السياسة . سياسة تدمير الثقافة وإخضاع المثقفين لقوى القهر والظلامية المتعددة الاشكال . سياسة إخراج المثقفين من معركة شعبهم . سياسة « تهميشهم » كما يقال .

من هذا المنبر العالمي أحيي تلك الطفلة في بيت الصفيح ومع الخيمة النازحة تلعب بالقمامة . وذلك الاب الذي يسرد التاريخ . وتلك الأم التي تقشّر البصل والثوم وتغسل الثياب في وعاء ماء واحد .

في الموسيقى عدد غير قليل من المسائل الجدية تختلف حيالها وجهات النظر ، ومن اهمها قضية الترابط والتأثير المتبادل بين الثقافات الموسيقية في الشرق والغرب . وأشير هنا بحق إلى عدم صحة مقولة « النامية » بالنسبة للثقافات العريقة والعظيمة لدى دول آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية . فإذا كانت هذه البلدان متخلّفة في ميدان الصناعة فإن اعتبارها في مجال الموسيقى بلدانًا « نامية » امر غير صحيح .

إنني على اقتناع راسخ بصحة الفرضية القائلة بالمساواة المبدئية حيال ثقافة البشرية في جميع التقاليد الموسيقية الوطنية المتعددة الوجوه ، من جميع ما اختزن من ثروات في الالحان والإيقاعات والانغام ، وادقّ الأبيات الشعرية التي تنطلق من حناجر المغنّين الشعبيين أو التي تؤديها المجموعات الموسيقية . والقضية ليست قضية « تآلف » و« عدم تآلف » بين مختلف النظم الموسيقية ، بل كيف وبأية اساليب تحل مسالة الترابط والتأثير المتبادل بين ثقافات شعوب تختلف من ناحيتي المنشأ والموقع الجغرافي . والحل هنا في يد الأسلوب الموسيقي والعبقرية لدى رجال الموسيقى : المؤلف والعازف والمربي وواضع النظريات ، ومسؤوليتهم أمام الفن والإخلاص في الإبداع . ومن المؤكد ان تنتصب أمام الشخصية الموسيقية مصاعب كبيرة جدًا ، ولا يجوز السماح بالأسلوب التجاري ، أسلوب الحط من قيمة

التقليد الإنساني العظيم لدى كل شعب. فهذا قد يؤدي عمليًا إلى إبادة القيم الفنية العريقة. كما انه لا يجوز أيضاً عزل فن هذا الشعب أو ذاك عن التبادل الطبيعي بين الشعوب للمكتسبات الإبداعية. وإن احد الاشكال الطبيعية والقانونية لتطور التقليد الوطني ليس فقط ارتباطه المباشر ببيئته وبالظروف الاجتماعية الجديدة وبازدياد الوعي لدى الشعب، بل أيضاً بقدرته على الاغتناء من مجمل الفكر الصحيح من الناحية النظرية والتكنولوجية، الذي تخلقه تقاليد أخرى تكون احياناً مختلفة جداً.

من المؤكّد ان هذه العملية يجب ان تحمل طابع التبادل المشترك. وان لا تتحول في أي حال من الاحوال إلى عملية فرض من الخارج.

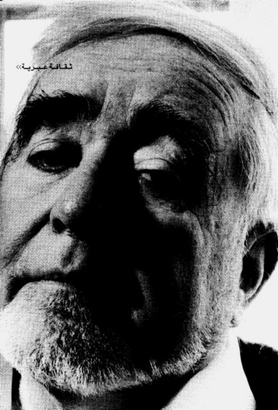
وبالطبع، لا نريد ان تسحق ثقافةٌ ثقافةً أخرى. وإذ نرفض ما يروّج في الغرب من مذاهب حول التمييز الثقافي، لا نستطيع من ناحية أخرى أن ننصاع للنداءات الداعية إلى العزل الغبي للنظم الموسيقية الواحد عن الآخر، إرضاءً لإبقاء هذه الثقافات كما كانت منذ نشأتها الأولى.

فلنطوّرْ شعوب هذه البلدان فنها، وهي التي خلقت ثقافة رفيعة محترفة وفولكلوراً عريقًا وغنيًا، ولتتقنْ اداءها الموسيقي. ولكن يجب عليها في اثناء ذلك ان لا تصم آذانها حيال المنجزات العظيمة لموسيقى الشعوب الأخرى.

ختامًا، يمكن استخلاص نتيجة واحدة وهي أن الموسيقى لا تعرف الحدود، وهي ليست بحاجة لاعمال صيانة نحو عزل ثقافة عن الأخرى، بل على العكس، ينبغي على الأمم التي تملك وسائل اكثر تطوراً لنشر الثقافة الموسيقية، واخصائيين وذوي كفاءة، ان تقدم المساعدة لتلك الشعوب التي رزحت طوال سنوات تحت وطأة المستعمرين والمحتلين، والتي ليس لديها إمكانية لتطوير ثقافتها الوطنية بحرية وبما يليق بها. أكيد ان هذه المساعدة يجب ان لا تتحول إلى «عدوان ثقافي» بل ان تكون محاولة لإيجاد لغة مشتركة وخلق أرضية جمالية من أجل التأكيد والحفاظ على القيم الثقافية العظيمة، تلك التي أبدعتها شعوبنا وتلك التي ستبدعها، لا محالة.

(كلمة أُلقيت في مؤتمر «الموسيقى والرقابة» الذي اقامه المنتدى العالمي «فريميوز» تحت شعار «لنحارب الرقابة على الموسيقى» – كوبنهاچن، أيلول ٢٠٠٢)

موسيقي لبناني مقيم في بيروت/ لبنان



نتان زاخ

فرض نتان زاخ (برلين ، ١٩٣٠) وجوده على الساحة الأدبية منذ منتصف الخمسينيات كحامل لواء الثورة في الشعر الإسرائيلي وكناقد بالغ التأثير على الذوق الأدبي الإسرائيلي . لقد أحدث زاخ – وتبعه شعراء آخرون من « جيل الدولة » – في سنوات الخمسين، انقلابًا في مكانة الشعر ووظيفته في الثقافة الإسرائيلية، إذ حوّل هؤلاء الشعر العبري من كونه تعبيرًا مركّزًا لمجموعة قومية نحو صيغة علمانية عصرية للوجود الشخصي / الفردي في إطار مجال فنيّ مستقل، الشاعر فيه هو من كان الشعر مهنته كفنان وليس كناطق بلسان جمهور معيّن أو فكرة معيّنة . إزاء الأصوات البلاغية التي سيطرت على الشعر في سنوات الأربعين والتي أخذت مصداقيتها من سياق جماهيري وقومي، فقد أسس زاخ صوتًا شخصيًا / ذاتيًا تصدى، مدافعًا عن نفسه، للصوت الجماهيري العام . « عندما يقول الشاعر المعاصر (أنا) – كتب زاخ – فإنه يحظر علينا أن نفترض تلقائيًا أنه يقصد كذلك (أنت) أو (نحن) » .

اقتصر شعر زاخ على الأشكال الشعرية القصيرة بينما منح المتحدث في أشعاره قناعًا ساخرًا حافظت بواسطته تعابيره الشعرية على القيود العاطفية وفي إطارها يعرض، على سبيل المثل، علاقات القربى بين الأب والابن بانضباط محسوب ومغترب :

« من فضلكم، رجاءً، لحظة هادئة واحدة، فأنا
أريد أن أقول شيئًا . لقد ذهب
مارًا من أمامي . كنتُ أستطيع أن ألمس أطراف
عباءته . لم ألمسها (. . .)
أحيانًا أحسّ به يمشي في نومه
سرنمي كالبحر، يمر بجانبي، ويقول لي

<< نتان زاخ – عدسة آمون يريف (بإذن من مجلة « حداريم »)

يا بنيّ.

يا بنيّ، لم أدرِ أنك، إلى هذا الحدّ، معي. »

(من قصيدة «لحظة واحدة» من ديوان «قصائد متنوعة»، ١٩٦٠)

ليس الشعر أداة للتعبير عن العواطف والأحاسيس بل جهازاً لغويًا يخلق الموازي المادي لهذه العواطف:

«عندما تذوي المشاعر تتحدث القصيدة المناسبة»

(من قصيدة «القصيدة المناسبة»، من ديوان «كل الحليب والعسل» ١٩٦٦)

يبتعد الإيقاع في القصائد عن الاحتفالية، والموسيقى تتطوّر فيها ككلام عادي يومي للغرابة والرتابة والقافية البسيطة والتي تبرز الروتيني والمنتظر:

«لا شيء يأتي

الباب الذي كان مغلقًا مفتوح

مغلق – مفتوح

لا شيء يأتي. »

(من قصيدة «لا شيء»، من ديوان «قصائد متنوعة»، ١٩٦٠)

تبتعد لغة زاخ التصويرية عن الألوان التي ميّزت أشعار الجيل الذي سبقه وخاصة أشعار نتان الترمان. إزاء المجازية الأسطورية للأموات –الأحياء التي رفعت في هذا الشعر من شأن ضحايا الحرب القومية. يقول زاخ في قصيدة «ندم» من الديوان نفسه:

«كل ما يحيا حي، قال الحي

ولكن يا إخوتي لا تخشوا الموت

فهو إلى الأبد إلى الأبد

لن يستطيع التراجع».

لهذه الدلالة الشعرية الانطباعية والعالمية لأشعار زاخ كانت قوة موحّدة دمجت هويات أخرى لم تكن قادرة على الانخراط ضمن الصيغة العلمانية الذكورية والغربية للهوية

الإسرائيلية كما بلورها في أشعاره. في أواخر السبعينيّات طرأ تحوّل على شعره: فمن حيث الشكل ابتعد شعره عن الأنماط التقشفية التي ميّزته حتى ذلك الحين منتقلاً إلى الأشكال المطولة كالقصيدة والأنشودة الرعوية (إيديليا)، كما تغيّرت حساسيتها العالمية والمجردة نحو الاتجاه الأكثر مباشرة ومادية، في حين تحوّل التهكم إلى سخرية لاذعة. بلغت هذه المرحلة أوجها في سنوات الثمانين في قصائده السياسية والتي نشرت إبان حرب لبنان وفي أعقابها والتي تحولت فيها المصداقية الأخلاقية إلى مركزية:

«وعندها كانت مبالغة كبيرة في إحصاء الجثث»

...

«ولولا الرائحة الفظيعة التي انبعثت من المكان
لتوصّلوا إلى الدقة المتناهية أو إلى التعارك بالأيدي
إذ أن الرغبة في التدقيق ليست أقل إنسانية
من الرغبة في أن تقتل وتغتصب وتسحق وتمحو عن وجه
الأرض عدوّك، خصمك، جارك المقابل أو الغريب المشبوه، أو هكذا بدون تحديد
كلُّ رجل وامرأة وولد في العالم».

(من قصيدة «حول الرغبة في التدقيق»)

باحث وناقد إسرائيلي، محاضر بدرجة بروفيسور، في موضوع الأدب العبري في الجامعة العبرية في القدس

نـــتـــان زاخ

أنثولوجيا

الوداع الأخير

عندما هجرتني فتاتي
لبست بدلتي الجديدة
ونزلت إلى المقهى .
كان هناك ثلاثة أشخاص :
طويل،
سمين
ونحيف .
على صدر السمين كانت
زهرتان حمراوان .
عندما دخلتُ وشاهدوني
وقف النحيف
وأعلن :
ها
هوذا .

(من « قصائد متنوعة » / إصدار « هكيبوتس همئوحاد » ، ١٩٧٤)

سُكْر

عندما يشعشع
المساء
خليطًا
عذبًا

عندما يبكي الليل
في المروج الفسيحة

عندما تتنسّم
النسائم
الروائح البعيدة

عندما يتنفّس
الصباح

(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

(...)

رأيتُ عصفورًا أبيض في الليل الأسود
فعلمت انه عمّا قليل سيخبو نورُ عينيّ
في الليل الأسود

رأيتُ سحابة صغيرة مثل راحة يد
فعلمت ان ما أشعره من مطر
لم أنجح في أن أقصّه على أحد

رأيتُ الورقة التي سقطت والتي تسقط
الوقت قصير. وأنا لا أتذكر.

(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

على شاطئ البحار

السفن التي أحضرتنا لنبني (يتوم
ورعمسيس) – قد غادرت من حيث أتت
وبقينا نحن على الشاطئ مع المباني العملاقة الخرساء
والتي لم تعرف ان تقول لنا لأجل أي حاكم شُيِّدت ولأي هدف.
عما قليل سيرخي ليل الصحراء الطويل سدوله
فساعات النور قليلة في هذه المناطق
وسنبقى مع الأشياء التي ظنناها جميلة
وليقاتل الحرّافون من اجلها – دون ان يعرفوا
إذا ما كانت الشمس المشرقة ستوافقنا الرأي.
لقد منحنا هذه المباني كل حياتنا:
خاطب القادة العمال،
والعمال بنوا ونظموا الإضرابات وتهاووا عن السقائل
وقد وهبوا – عن رضاً أو عن عدم رضا – حياتهم من أجل
الأفكار المعقدة التي وضعت تحت تصرفهم.
اشتغلنا بين النوافذ، ولم يكن الضوءُ القليل ضوءنا
بل ما تبقّى من ضوء جيل آخر.
نحن كذلك عشنا: كل مكان حطَّت فيه
أقدامنا أصبح ارضاً مقدسة، الارض الموعودة،
أرض الميعاد. انتظرت النساء الرجال على النوافذ
وخطا الرجال وحيدين في المجال الواسع بين الآفاق.
لم نعرف الإثم كما لم نعرف الثواب
لان الضوء كان ضعيفاً ولم يكن ضوءنا.
وعلى الرصيف تبادل الناس الحُب والتقط الحمام الحَبَّ
وتمشّت الكلاب هنا وهناك بينما صوّب المنجمون
نواظيرهم إلى السماء متسائلين.

لم تكن حياة الإنسان سهلة وقد انتهت
أحيانًا في المياه الباردة أو في دار السينما.
(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

لحظة واحدة

من فضلكم، رجاءً، لحظة هادئة واحدة. فأنا
أريد أن أقول شيئًا ما. لقد ذهب
مارًا من أمامي. كنت أستطيع أن ألمس أطراف
عباءته. لم ألمسها. من كان يستطيع
أن يعلم ما لم أعلم.

التصق الرمل بثيابه وتعلّقت
الطرابين بلحيته، يبدو أنه نام الليلة الفائتة
في التين. من كان يستطيع
أن يعلم أنه بعد ليلة سيكون
فارغًا مثل العصفور، وصلبًا مثل الحجر.

لم أستطع أن أعرف. لا أتّهمه.
أحيانًا أحسّ به يمشي في نومه
سرعي كالبحر، يمر بجانبي، ويقول لي
يا بنيّ.
يا بنيّ، لم أدرِ أنك، إلى هذا الحدّ، معي.
(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

من عام لآخر

من عام لآخر يصبح أكثر لطافةً.
سيصبح لطيفًا للغاية في النهاية، –

قالت ذلك وقد قصدت ما قالته.

لكنني أحسّ أحياناً أنني أغرق في الزمن
أحسّ أنني أغرق منذ زمن،
تردّد.

كلّ هذا لأنك تغرق، أجابت.
كل هذا لأنك، كما تعلم، تغرق.

لا أعلم. أشعر أحياناً أن قواي لم تَعُدْ معي.
لطيف - كما تعلمين - هذا وجه آخر للسلب.

أنا أعلم وأحبّيكِ على وضوحكِ،
أنا أحبيك على لونِ عينيكِ،
فأنت لا تترك شيئاً من ورائك.

حقّاً هذا بالضبط هو ما يقلقني،
حقّاً هذا هو الذي يؤنِّبني،
حقّاً هذا هو الذي أحسّ به.

أنت تخطئ مرة ثانية: تُحسّ بخير والخير محيط بك.
إنه من حولك، على كتفيه يحملك،
لو تسامحت، فسيحتضنك،
وفي النهاية سيكون ملزماً بأن يقبّلك.
أنت تعلم كيف تتمّ مثل هذه الأمور.

(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

ندم

عندما قالوا لي تراجعْ
لم أعد عندها قادرًا على أن أتراجع.
لقد ابتعدتُ كثيرًا، قلتُ لنفسي
ولهم – أكثر من أن أتراجع.

لا أستطيع العودة، قال الميت.
الديدان لا تدع لي مجالاً للتراجع
ورائحة الأرض تملأُ أنفي.

كل ما يحيا حيّ، قال الحيّ،
ولكن، يا إخوتي، لا تخشوا الميت.
فهو إلى الأبد، إلى الأبد
لن يستطيع التراجع.

(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

لا شيء

لا شيء يأتي.
الرياح التي تهب من الليل تعذّب
كما تعذّب الرياح التي تهب من الليل.
لا شيء يأتي.

لا شيء يأتي.
الباب الذي كان مغلقًا مفتوح
مغلقٌ – مفتوح.
لا شيء يأتي.
لا شيء يأتي.

ساق على ساق. الشمعدان على الطاولة،
ظلٌّ وفانيلا.
الرجل الذي دخل هو الرجل الذي خرج.
لا شيء يأتي.

(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

الرسام يرسم

الرسام يرسم، والقاصّ يقصّ، والنّحات ينحت
أما الشاعر فلا ينشد،
إنه جبل على قارعة الطريق،
أو شجرة، أو رائحة،
شيء ما يهرب،
أو أنه لم يعُد ما كان
ولن يعود، مثل فصول السنة،
الحرّ والقرّ والجليد وضحكة
القلب، عندما يحبّ،
أو الماء، شيء ما رحب، غير مفهوم
مثل الريح، أو السفينة، أو القصيدة،
شيءٌ يتركُ شيئًا.

(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

أجلسُ على قارعة الطريق

أجلسُ على قارعة الطريق
أتأمّل الناس.
وهم لا يعرفون
أنّني أنظر إليهم.
هل هكذا ينظر إلينا الرب،

دون أن نشعر، ودون أن نفهم،
ودون أن نُسأل؟

لا أدري
هناك أشياء كثيرة أسأل عنها.
حاليًا
أنا أجلس على قارعة الطريق
وأتأمل.

(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

لا تعتبر ذلك خطيئة

لا تعتبر ذلك خطيئة
تتبُعت أعمالك.
اثنان وثلاثون عامًا تحت سمائك
تكفي إنسانًا لبيبًا
لمعرفة سعة رحمتك.

ليست بي حاجة إلى الإحسان
إحفظني من إحسانك
وعندما تقطر ماء الورد
في ليلة صيف من بيت عطورك
إحفظني من روائحك
ولا توقظ بي الأشواق
ليست بي حاجة إلى الإحسان
تتبُعت أعمالك.
إثنان وثلاثون عامًا تحت سمائك.

(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

رومانسي

انا رومانسي مرّ جداً.
عندما أكون مع نفسي، أكون رومانسيًا دافئًا جدًا.
عندما أكون مع الآخرين، أكون رومانسيًا باردًا جدًا.
(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

القصيدة المناسبة

عندما تذوي المشاعر، تتحدث القصيدة المناسبة.
حتى ذلك الوقت تحدثت المشاعر، القصيدة الأخرى.
حان، الآن، الوقت لأن تتحدث القصيدة المناسبة.

عندما يتعب الإنسان يفكر بالغد.
في أفكاره قوّة، قوّة كبيرة.
هناك جرأة، جرأة كبيرة. مثير للاهتمام: ترسخ الجرأة
في أفكاره أكثر من ذكرى مخاوف الغد.
عندها يكون ودودًا ووده مملوء بالشجاعة أيضًا.

عندها لا يخاف. ولا يطلب شطب
الكلمات التي قالها. حتى وإن كانت هواء.
ولا يريد أن يحطّم العمل الذي حطّمه آلاف المرات
لأنه يعرف أنه هشّ. فيه رأفة محسوبة
ولكنه دقيق: فلا ينقل بسهولة صورًا
من أحزانه إلى ما ليس من أحزانه.

عنده إرادة قوية لأن يستمع. إذا كانت كلمة يصغي بالعبرية
تعني أكثر من أن يستمع إذن – لأن يصغي. كي

لا يمسّ بالشيء الوحيد الذي مُنح: القدرة على
أن يستمع. حتى أن دمه الآن لن يقدم على أن يمسّ
بالشيء الوحيد الذي مُنح – أحيانًا، يبدو وكأنه من الأعلى – أن يستمع.
(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

عصفور آخر

رأيت عصفورًا فائق الجمال.
رآني العصفور.
عصفور فائق الجمال كهذا لن أرى
حتى يوم يواريني الثرى.

عندها أحسستُ برجفة شمس.
فتفوّهت بكلمات سلام.
كلمات قلتها بالأمس
لن أقولها ثانية اليوم.
(من «قصائد متنوعة» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٤)

شاي تحت الشجر
(أنشودة رعوية)

شاي تحت الشجر
في الحديقة بجانب برج الماء
الآنسة روز محمرّة الخدين
وكأنها وردة رومانسية
تبتسم وتقدم الشاي
والكعك.

نسمة خفيفة تعبث
بفروة الكلب سمايلي
المتقوقع حالمًا
من يفهم أحلام الكلاب
زوجة الراهب النشيطة
تشبّك يديها ثمّ ترخيهما
اعتادت دور المضيفة
تشعر بشيء من عدم الراحة
وربما أنها تتعذّب
بسبب المعرض الذي لم ينجح
على أمل أن ينجح
المعرض القادم، إنما الصدقات للّه.

البروفيسور آرنولد إدوردز
الذي لم يحظَ كتابه الجديد عن
شكسبير بتقريظ النقاد
يحشو غليونه بهدوء
يغمغم وينفث الدخان
ويضحك بأدب بدون سبب
وكان شكسبير لم يكن على وجه الدنيا.
في حديقة بيته في القرية المجاورة
زهرات نادرة الجمال
وهو يفكر أن يستجيب
لنصيحة الأصدقاء وأن يشترك
هذه السنة في مسابقة الزهور
ومن هنا إلى حالة الطقس.

جاك وايلر الذي خرج إلى التقاعد
والذي يعيش قصة حب مع بيتْ كورمَك

التي يخدم زوجها في ايرلندا
يطرد تهمة خرساء
بحركة يد عصبية
كأنها ذبابة .
فهو من مصوّتي الليبور(*) بالذات
وهنا في الكنيسة التي تحولت إلى متحف
يرقد أجداد أجداده .
إنه يعرف جيّدًا اسم كل شجرة هنا
واسم كل زهرة وكل حشرة
ولكنه يجيد اكثر من كل أولئك اسمها
وانه زوج لامرأة بخيلة .

جيل جيريت بنت صاحب الفندق
التي ستنتحر في ديسمبر
تتنقل بخفّة بين المدعوّين
تحمل الاطباق والادوات الخزفية
عبر باب الحديقة الواسع
وها هي تُسقط من الصحن
على أرض الحديقة كعكةً .
بدأ شعور سيء بالذنب
لموت والدها المريض بالسرطان
يعشّش في داخلها
حاليًا ما زالت تعكف
على القراءة في كتب المورمونيين
التي تجذبها وتثير مشاعرها .

الميجر باترفيلد والذي يروّجون
(أي الارملة نايت وجيرانها)
انه تسرّح من الكتيبة برتبة عريف

(للكذب أرجل كثيرة)
يروي من ذكريات ديفون
ويحرص ألاّ يذكر اسم الهند
لئلا يتورّط في نقاش.
استعماريّ ويحنّ إلى الماضي
الآن هو ما يسمى هنا
جنتلمان – فلاّح يملك الأبقار
التي توفّر كل احتياجات نصف
اللواء من الحليب،
يربح، على حدّ أقوال الناس،
أموالاً كثيرة طائلة
ما شاء الله، شكراً.
نحيل وطويل، يشرب.

روت هوچارتْ وكين وودْ
ينويان مغادرة اسِكْسْ
ويبدو أنهما سيهاجران إلى أستراليا
حيث تدبّر أخو روت أموره جيّداً.
زوجان شابان ولكن علامات الحزن
قد أخذت ترتسم على وجهيهما
ربما بداية التسليم:
ماذا الذي يمكنهما أن يتوقعاه؟
جاء سيسيل كعادته مشرقًا
مع الـ«باريستر»(**) مزموم الشفاه:
من مثله يعرف أنه في الحقيقة
لطيف مع الناس
ويحبّهم على طريقته،
على طريقته، أي دون أن يُظهر ذلك.
يبدو أنهم قد احتسوا إبريقًا من الجعة

بصحبة صاحبة بيت سيسيل
الذي ينجح دائمًا في إفساد
الجدول الزمني لعمل المحامي.
زوجان غريبان. صديقان.

الربيع فصل لطيف.
وفي المدينة – القرية لطيف أضعافًا مضاعفة
ليس لأن السماء بدون غيوم
ولكن لأن السحابة ليست غيمة بعد.
ها هي الشمس قد غربت،
هنا تبدو الشمس دائمًا وكأنها تغرب،
ونفح برد المساء
لم يثر بعد ولكنه محسوس
وهكذا استرخت الجماعة،
كم مريحة هي هذه الأرائك،
وهناك وقت لمزيد من الكعك.

إجمالاً، ما الجديد في العالم
أوليس مقلقًا أن المجلس
فجأة على وشك أن يقطع
جادة الزيزفون على حافة النهر
ليقيم هناك بالذات
بناية البريد الجديدة:
لم يحدث مثل هذا
في زمن حكم العجوز سيمونس
لينم قرير العين بين الزهور.

ها هم أبناء العائلة يعودون،
فتاة مكتنزة وأخوها،

يُقدِّم الاثنان ثم يهربان
بعد ذلك سيساعدان في المطبخ.
الساعة بطيئة متثاقلة
عمّا قليل ستفتح الحانات
هل برد الطقس أم ليس بعد،
يدور نقاش فاتر.
ليس هناك ما يدعو إلى العجلة، كل دقيقة
ممتعة جداً، وثمّة متسع من الوقت.

يوم الأحد بعد شهر أو سنتين
ستعود الجماعة إلى الاجتماع
عدا بعض الحضور
ثمّ تتفرّق – كلٌّ لشأنه،
علينا ألاّ نستبق الأحداث،
كعادة الأجانب وراء البحار،
الآنسة روز محمرة الخدين
كلها تشعّ سعادةً
تنحني على حوض «الأسْطر» (***)
لتمدّني أيضاً بباقة صغيرة.

الصوت الصارخ من ورائي
من السياسة الآنية
التي أوقاتها أدوات الدمار.

ليتنا لن نعرف طعم المهانة العاقر
التي تُنجِّم إلى الوراء
مزيج البغضاء والخوف
واليدَ الواثقة جداً
وهي تنسخ الخطوط عن الحائط

والحائطُ القديم الذي به
يتأسّى من سقط على سيفه .

في ضائقة الأيام القريبة
في الكتلة المقتربة الوشيكة
في المدينة المثقلة بالجروح
احفظنا من أن نلعن ضوء النهار
احفظنا من البطولة
الخاملة وغير العاملة
احفظنا من العاملين
الذين بطولتهم اعمال
من القصيدة التي تتحوّل إلى أغنية
ومارش وجُناز
احفظنا من أن نحتفظ بالخير
لأنفسنا وحتى ليس لك
في ضائقة الأيام القريبة
في الكتلة المقتربة الوشيكة .

(أكتوبر ١٩٧٧)

(*) حزب العمال البريطاني – («مشارف»).

(**) محام في المحاكم العليا – («مشارف»).

(***) النجمية، أو زهرة النجمة – («مشارف»).

(من «شمال شرق» / أشعار ١٩٦٧–١٩٧٨ / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٧٩)

سبعة

أنا مَن تعيش كل الديدان أكثر مني
قد قرأت بريتر وذئب الصحراء وفوچل
ودرست الادب ولي محاولات في كتابة الشعر .
لم أرد أن أُقيِّد نفسي .
كانت لي برامجي المتنوعة – منها السَفر أيضاً .
مؤقتًا استعددتُ للامتحانات . أعانتني
الفتيات على قضاء الوقت، سمعت الموسيقى – والآن
تحت التراب .

كنتُ، والشكر لله، – صاحب كراج
وباختصار صاحب بيت وسيارة ورحلات إلى أوروبا .
وكما ينبغي : أولاد، الذهاب إلى البحر، أصدقاء،
ولعب الورق . فجأة استُدعيت . لم اعرف شيئًا .
إنّ أحدًا لم يعرف . لست رجل سياسة . لم أنّه بعد ترتيبات
التأمين . لا يمكنني بعد الوثوق
بأي شيء الآن تحت التراب .

لقد كنت بالتأكيد معارضاً . لا لانني
أقرّهم، فأنا كذلك لا أقرّ تمامًا جماعتنا .
في هذا العمل بشكل عام لا يوجد أبرياء . المذنبون
هم السياسيون والصحفيون . من الطرفين، كان يجب
القيام بشيء ما : تقديم برامج، رسم خرائط، الاقتراح
بإعادة أراضٍ ولكن بدون القدس . على كل حال أنا لا أحب
المتدينين، وحتى يمكن القول بأنني أكرههم كثيرًا،
الآن تحت التراب .

أنا جديد جداً، لست قديمًا، ترانسلڤانيا .

الجميع يتذمّرون أما أنا فلا . الدخل
متوفّر والعائلة من حولي، فعلام أتذمّر إذن .
ليس الوضع رائعًا بالتأكيد ولكن هل في أمريكا الوضع أفضل؟
ليذهبوا إلى امريكا أنا لا أريد الملايين – فقط ما يكفي
لمعيشتي . عندما أعود إلى البيت
ألعب قليلاً مع الأولاد، آكل جيدًا
اشاهد التلفاز . وفي يوم السبت أذهب إلى الشاطئ
لا أملك سيارة وماذا في ذلك فأنا أسكن قريبًا من البحر .
إذن ما الذي يجعلهم يتذمّرون،
الآن تحت التراب .

أنا من موت طبيعي، أنا امرأة .
شخصيًا لم يحدث لي شيء . مات زوجي
قبل عشرين عامًا وبقيت حيةً، لم يكن لي
أولاد، لم أتزوج . ليس من الضروري أن نتزوج من أجل
الزواج إذا لم نلتقِ بالإنسان المناسب .
أنا بالذات كنت حذرة . هنا يسوقون كالمجانين .
وبكل بساطة مررت والغريب انني أصلاً قد تطلعت .
ولكني لا ادري، فقد ارتبكت،
والآن تحت التراب .

ما زلت لا أفهم كيف حدث ذلك، في السادسة والأربعين من العمر .
كان يجب ان أنتقل إلى « الدفاع المدني »، كما وعدوني،
لا يمكن كل مرة شهر في السنة، كان من المفروض
أن تصل الأوراق . عندما سمعت صافرة الإنذار
لم أتخيّل اي شيء، من كان يستطيع
أن يتخيّل شيئًا كهذا، وبالذات في الوقت
الذي كان من المفروض فيه أن تصل الأوراق
في كل يوم . في الوحدة نقلوا إسمي

إلى وحدة أخرى،
والآن تحت التراب.

كنت أقول دائمًا: من يذهب إلى معركة واحدة –
وطني. ومن يذهب إلى معركتين – فهو غير محظوظ.
أمّا من يذهب إلى ثلاث فهو أحمق، يا حبيبي.
جميل، اليس كذلك؟ يجب الا نحمّل الأمور كل هذا
المحمل من الجد. فيمَ يفيدنا ذلك؟ الحياة لعبة
والعالم مسرح – هذا ما كنت اقوله دائمًا.
ولكن ذلك المقدّم استفزّني، فهو لا يتمتع بروح الدعابة.
والعقل في إصبعه الصغرى يفوق ما في كل رأسه.
جميل اليس كذلك؟ سينتهي هو الآخر، فقط لا تنفعلْ.
لا يستحق ذلك الانتحار من أجله
الآن تحت التراب.

نحن سبعة
مدفونون في التلة
بالقرب من المدينة
الاغنام لن تلوك الاعشاب من على قبورنا،
الاشواك لن تُغرَز في اللحم.
دورة الحياة، كما يقولون، تُفتح وتُغلق.
كنّا كما يقال مدخلاً
إلى عالم واسع، في الحقيقة واسع شاسع.
كان بإمكاننا أن نمشي ونتعب ونعاني
كنّا ممرات
لا توصل إلى أي مكان.
هذا ما ندركه الآن
سيذكرنا أولئك الذين لا يستطيعون النسيان.
صورتنا تمحي ساعة بعد ساعة.

نحن سبعة
مدفونون في التلة
بالقرب من المدينة .

(سبتمبر ١٩٧٥)

(من « شمال شرق » / أشعار ١٩٦٧–١٩٧٨ / إصدار « هكيبوتس همئوحاد »، ١٩٧٩)

وللموت حكومة

عندما يضيق كل شيء ويضغط يستحيل التمدُّد
أمّا الطبيعة فيحكمها المنطق ذاته :
الحق لمن سبق إليه، أمّا الآخر فيموت .
لا يقذف التمساح ما بلعه إلا
في مصنع الحقائب
حيث يمر هناك عملية تحوُّل (مسخ)
تعدّه للنساء :
النوم كذلك نوع من التخدير
وليس مقصورًا على التماسيح .
المدينة المشرفة على الانتحار
تتصرّف كإنسان عاقل :
تصطاد المشعوذات (من قبرص) تعلّق الميادين في الهواء،
تشعل النار في المقاهي، تقيم أيام الذكرى،
لتكون ذكرى جميلة .
المهندس المُنْكَبّ على المجاري
يعدّ ملجأً للجرذان،
مدّ الله في أعمارها .
« جوني »(*) العائد إلى مكانه
يجد دائرته كاملةً .
وكأنما التقى الصالح والطالح

لتبرير حكمة الكتاب :
التاريخ يعيد نفسه، لا الرماد .
الفرق بين الشعر والبلاد
هو في مدى قوة التجريد :
ففي سدوم كذلك تجرّدوا أمام السرير.
لا توجد في القاموس كلمة تستطيع ان تدل
على ألم عجوز معيّن،
لذلك من الضروري وجود الشعب
والشعب تلزمه دولة
كما الهواء للتنفس أو الاختناق –
الكل مرهون بكمّية الاكسجين.
فاكثر الخيالات تحليقًا
لا يستطيع باي حال ان يرتجل
في المكان الذي يتحكم فيه الحمقى .
هنا يسود قانون ثابت .
هذا هو عيب هذه الطريقة .
هذه هي الطريقة بكاملها .
وللموت توجد حكومة .
كفى بكاءً في هذه الدولة :
ها هما موشيه شمير وأوري تسفي غرينبرغ(**) قادمان
في الجيب الاول جزرة نارية تشعل نار الحماس
وفي الثاني – ساندويش مدهون بالزبدة .

(*) من قصة دينية بعنوان « حوني راسم الدوائر » – (« مشارف ») .

(**) كاتب وشاعر إسرائيليان محسوبان على تيار اليمين السياسي – (« مشارف ») .

(من « شمال شرق » / أشعار ١٩٦٧–١٩٧٨ / إصدار « هكيبوتس همئوحاد »، ١٩٧٩)

ضد الحزن

حين يكون التوجّه إلى الذاكرة
مشبوهًا أيضًا: حتى أن التجاعيد قد خيّبت الآمال:
أيّها جلد بحد ذاته

وأيّها عمليّة تطوير: تسفّع بيتي
وتعوّد على الشمس، وأيّ
من الأقنعة مرآة وما هي

اللعبة اليومية، عندما تكون كل الألعاب
قد سُئمت والقصيدة لم تكتمل بعد،
ولا تلعب بعد.

قبل كل شيء يجب أن ندقّق في الفرحة
ألاّ نفرح قبل الوقت
ولكن لنفرح في الوقت، وبدون خوف.

الأسى والخوف وباقي الإشارات المقلقة
تلحّ كثيرًا: عالم يكفي ذاته
لا يدع مجالاً.

للحديث مع الجار، للكيّ،
للشُحرور ولآهات العاشق،
وللورطات العادية.

الحزن هو وسيلة اتصال جماهيرية،
شاشة صغيرة تقزّم الأشكال الكبيرة،
مسرح كبير لا يحدث عليه شيء.

الطبيعة تلوّن كل شيء بألوان طبيعية :
قد تكون الفرحة بالأبيض والأسود
فرحةً حقيقية كذلك .

من هنا الحاجة إلى الحدث من أجل أن يبقى
على الأقل شيء حيٌّ ظاهريًا أكثر
من العادي : هذا ما كان ، في تلك الساعة

لم أدرِ . مثل المصور : أكانت
العدسة متّسخةً ، دخلتها شعرةٌ ،
ها هي الشعرة ، الوسخ .

إذ لو قدر لنا حقًا أن نعيش بين الألغام
تلك القديمة والحالية ، في حين أن كل الباقي ليس إلا
وسطًا أجوف ، استراحة في السينما —

يجب على الأقل أن نملأها بالأصوات ،
والحركات والضحك ، الكلام يسمع
حتى عندما لا تسمع الكلمات ، في الاستراحة ،

علينا أن نزهد في البدايات السهلة
جدًا التي لا يتلوها شيء
وفي المنتج النهائي

الذي يليه – بطريقة الشريط المتحرك – منتج آخر،
دون أن نجعل من الصعوبات طقوسًا .
ولكن القول «استطعت بصعوبة» – صحيح :

الصعوبة حقًا تكفي .

(من «غير قابل للمحو» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٨٤)

حول الرغبة في التدقيق

وعندها كانت مبالغة كبيرة في إحصاء الجثث :
كان هناك من أحصى مئة تقريبًا وكان من احصى المئات تقريبًا
وقال ذا عددت ٣٦ امرأةً محروقة
بينما قال زميله : اخطات، فهي إحدى عشرة فقط
والخطأ مقصود وسياسي، وليس صدفة
وما دمت قد بدات، فساقول كذلك
إنه قد ذُبحت ثماني نساء فقط، لأن اثنتين رميتا بالرصاص
وهناك واحدة تثير الشك وليس واضحًا
إذا كانت قد ذبحت، أو اغتصبت، أو بُقر بطنها .
كذلك بالنسبة للاولاد فلم تُقل الكلمة الاخيرة بعد
يعترف الجميع ان ستةً قد صلبوا وواحدًا عُذّب
قبل أن يُهشَّمَ رأسه ولكن من يضمن لنا ان
جميع أولئك الذين اختفوا ولا نجد لهم أثرًا
قد ألقوا حقا كلّهم او بعضهم إلى البحر،
وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسّر بقع الدماء؟
في مثل هذه الأمور يجب ألا نستسلم للمبالغات
وعلينا أن ندقق ونحذر : فالأمر متعلق بالمصائر
من المحتمل – لا سمح الله – أن نخطئ في التقارير
وقد حدث ذلك من قبل، يا عزيزي المتعلّم .

وقد كان انقسام كبير طيلة ذلك اليوم
ولولا الرائحة الفظيعة التي انبعثت في المكان
لتوصّلوا إلى الدقة المتناهية أو إلى التعارك بالأيدي
إذ أن الرغبة في التدقيق ليست أقل إنسانية
من الرغبة في أن تقتل وتغتصب وتسحق وتمحو عن وجه
الأرض عدوّك، خصمك، جارك المقابل أو الغريبَ المشبوه، أو هكذا بدون تحديد
كلَّ رجل وامرأة وولد في العالم.

(من «غير قابل للمحو» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٨٤)

قصيدة لجوني

(كانت قصيدة «ندم» للشاعر نتان زاخ هي الوحيدة التي وجدت
بين حاجيات جوني: العريف جوني هارنيك، قائد دورية «جولاني»
الذي قتل في البوفور)
«يديعوت احرونوت» ٨/٦/١٩٨٣

لا أدري ما الذي دفعك لتاخذ معك
بين حاجياتك بالذات القصيدة عن الميت
الذي لا تدعه الديدان يندم:
زوّادة مشبوهة لطريق لا رجعة منها
ربما كتعويذة، تميمة: لتكن كلماتي
حيث مت كفارة. وأنت في السادسة والعشرين، في مثل عمري
عندما كتبت قصيدتي (تلك).
طاب ليلك، قالت أمك في تأبينك. لا تستطيع
أي دودة بعد اليوم أن تفرق بينك وبين «طاب ليلك»
الذي قالته أمك، ولا حتى أحلك الليالي.
أتعلّم منك ومن زملائك الجرأة
التي افتقدتها وأنا في مثل عمركم:

اصبحت الآن تلميذكم،
أصبحت الآن تلميذك،
إذ أخذتَ معك إلى المعركة قصيدتي،
إنني أحتضن موتك،
سأحاول أن أكون جديرًا به.

(من «غير قابل للمحو» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٨٤)

أمل الخيط الأُرجواني

رجاء، احتفظ لي بطرف خيط أيضاً
حتى وان اختفى أحيانًا
لكي أتذكر – في هذا الضجيج العام
الذي يختلط فيه صوتي
وكأنه لم يكن لي
وكأنه كان صوتًا عامًا –
سأتذكر أن آخذ الامور بكل جدية
سأتذكر أنّ ذلك ما زال مؤلمًا.

(من «غير قابل للمحو» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٨٤)

القيام من الرماد

إنها لعملية معقدة، لا يقدر عليها إلا طائر واحد
وحتى هذا لم يره أحد.
الشرط المسبق لذلك هو، بالطبع، الرماد: المَلّة
او الرماد البارد، رماد السجائر، رماد كل شيء تقريبًا. في حالة عدم وجود الرماد، تصلح
الشظايا، الطين المتفتت، الانهيار العام،
الأطلال. كل شيء غير طبيعي، غير بيتي.

شرط آخر هو القدرة على القيام
والوقوف ثانية على رجليك بعد السقوط:
وهو كذلك عملية في حلبة المصارعة:
النقاط أصبحت في غير صالحك، احتمال النصر ضعيف، حتى
انّ مؤيديك قد تخلّوا عنك، وبدأوا يفكّرون بالبيت والوجبة المتأخرة.
في صباي تعرّفت على شخص قام من الرماد (نعم – كان قادرًا على ذلك!)
صباح كل يوم أحد (من رماد الجمعة – السبت) وكل يوم جمعة –
من رماد أيام الاسبوع. أمثال هذا قليلون: بمثابة فنان–القيام
على وزن فنان تعذيب النفس بالصيام عند كافكا. ولكن مقابل كل شخص
قام تعرّفت على الكثيرين ممن لم يستطيعوا ذلك.
منهم من احترق على نار هادئة، يومية، مثل فتيل الطباخ النفطي، أو البريموس،
ومنهم من احترق فجاة،
مثل اندلاع النار في الهشيم أو الموقد، تصحبه
صافرات الإنذار وسيارات الإسعاف.
وهنا لا فرق بين الرجال والنساء. الخنزير الذكر الشوفيني
يحترق مثله مثل أفضل الإناث من الجنس الضعيف.
كما وكانه لا فرق بين الأعمار.
هناك من يحترقون في سنّ مبكّرة وبعضهم في سن متأخرة.
لا يوجد من لا ساعة له.
كذلك لا توجد فروق مهنية: العمال يحترقون تمامًا مثل الموظفين
وأصحاب المهن الحرّة. وذلك على الرغم من الإشاعة
بأنهم مقاومون للنيران أكثر.
القليلون منهم يقومون
أو يقفون على أرجلهم. وهذا ليس سببًا لليأس. فكل
مربٍّ للطيور يعرف أن العنقاء ليست
طائرًا خرافيًا. بل هو موجود هنا معنا.
ولكنه نادر.

(من «غير قابل للمحو» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٨٤).

ثلاث قصائد لم تكتب

(1)
كتبت تهنئة بمناسبة زواج أصدقائي
نظرت فتاتي من فوق كتفي وقالت :
الحمد لله أنك عدت لكتابة الشعر الرومانسي .
التقيتُ صديقي بعد زواجه
فقال لي : حتى الأكلات التي أحبّها
لا تُحسن طهيها .
ادخلت ذلك إلى القصيدة أيضاً .
صاحت فتاتي قائلة : أنت مصرّ على كتابة
أشياء عادية مثل هذه، إنك تفعل ذلك
فقط من أجل إثارة غضبي .
ذهبت لعيادة يسرائيل الذي أُصيب بجراح
كان علينا أن نبذل الجهود كي لا يشعر
كم من الصعب علينا النظر في وجهه :
كان رائحة الاحتراق ما زالت تعبق في الغرفة وكذلك رائحة اللحم المحروق
والعين الوحيدة التي بقيت كأنما تحرّكت من مكانها،
إن كان مثل هذا الأمر ممكنًا، فأنا لست طبيبًا .
عندما عدنا إلى البيت قالت لي فتاتي :
الآن، بالتأكيد، ستكتب قصيدة سياسية .
قلت لها : لا إنها ما زالت القصيدة نفسها .
قالت لي : وما هو موضوعها؟
قلت لها : حول أن الزمن انحرف عن الخط،
وأننا نتعلّم كيف نعيش مع ذلك وهذه مأساة كبيرة،
وحول أن حياة الإنسان صعبة كما هي دائمًا، وقد كان الأمر كذلك
من قبل، ولكن يُحظر علينا أن نتفوّه بذلك، كي لا نزيد من الارتباك والفزع .
قالت لي : أوَهذه قصيدة؟
قلت لها : لا، إنها في الحقيقة ليست جيدة كما ينبغي،

إنكِ على حق، فقد قررت أن أرميها.
وسأنشر هذه الأشياء فقط
لكي يعرفوا، على الأقلّ، ما كان فيها.

(ب)
جاءتني القصيدة الثانية في المنام
قلتُ لها: أهلاً بك، أنت جميلة جداً،
منذ أمد لم تأتني قصيدة بمثل هذا الجمال.
ولكنني عندما استيقظت لم أنجح في تذكّر أي شيء منها
مما زادني إحباطًا.
ولكن ربما هذا هو الثمن الذي يجب أن أدفعه
من أجل أن أستيقظ.

(ج)
القصيدة الثالثة تُغنّى وتُعزف على ظهر سفينة فخمة.
سفينة فخمة، مضاءة كلّها، تُبحر من حيفا.
القصيدة لا تُسمع من المكان الذي أقف فيه.
ابْحري، ابْحري، يا سفينتي، يا رفيقة صباي، لكي تُذكّريني
بأنّ الأشياء لا تبدأ هنا. ولا تنتهي.
(من «غير قابل للمحو» / إصدار «هكيبوتس همئوحاد»، ١٩٨٤)

قارّة مفقودة

خرجنا من البحر كما من الضباب
قارّة مفقودة مزروعة بالعظام البشرية والبقايا
الأثرية: مسكن مؤقت، خمس طبقات من
القبور وهنا وهناك معبد ومكتب عمل. قرأنا
الكتابات بالخط المسماري: لقد تحدّثت عنّا

ولذلك لم نفهمها .

بين الحين والآخر كانت تمر سيارة، هيكل محروق،
بقرامي الأشجار . من بعيد صفرت صافرة
الضباب . والشجيرات كأنما انحنت تحت ثقل
الماء . هنا وقعت المعركة الأخيرة، سبقتها تحسّسات
عمياء واتصالات متوسّطة وعلوم دقيقة . المرشد
لم يعرف إلا بالتقريب، كان مزكومًا، صوته كصوت الصرصار .

نزلنا في خان على الطريق . لم يكن الطعام رديئًا
إلا أن الصبر كان نافدًا . من النافذة أطلّ نصب تذكاري
من الحجر أبْلت المياه خطوطه : هناك راكب وهناك مركوب .
كان النادل غريبًا في المكان، شزرُ العينين، يبدو أنه من الشرق الأقصى .
كان جميلاً الجلوس بالقرب من المدفأة، ومشاهدة التلفزيون مع جهاز تحكّم عن بعد في اليد، والشرقه قليلا كعادة السياح والإصغاء إلى صوت صادر من الصندوق المضيء، لا يتكلم ولا يؤلم .

قارّة مفقودة . الوعد الذي تحقق ولم يتحقق، مكان
تعالى من البحر، مكان سيعود إلى هناك، مكان خافت الضوء، مكان
يريدون العودة إليه . أنتم تعرفون كيف
تسجع هذه الكلمات . الجوقة كانت جيدة، ربما كانت
زنجية . أي ثقل من الشبع من الوجبة حتى أن
النادلة مكشوفة الصدر على النمط الحديث لم تحظَ
بأكثر من نظرة خاطفة .

يجب السفر دائمًا، لا الاستقرار، كما ظننا في صبانا .
السفر وحده هو الذي يضمن المنظور، وتخفيضات لمن يسارع إلى الدفع! أريد فقط
أن أخرج – يصرخ السجين وهو يطرق باب السجن يائسًا . الخروج
هو أيضاً ناموس الطبيعة : الصوص يخرج من البيضة، وإلا

مات . الخروج هو حق . ان تكون ليس هنا أو هناك فقط
بل من أجل الجميع ما دام هناك احتمال معقول :
لان تغني ولكن بدون كلمات ، بصمت العالم ، كصوت البحر
في يوم شتوي كما الليل على الشاطئ ،
ان تجلس بين الغرباء وتصمت جيّدًا .

عندما كل شيء ، من حولك ، يرسب في المكان الذي ارتفع منه :
في البداية النباتات ، يتلوها الناس أيضًا : الرجال
والنساء والأطفال في أيديهم كتب وساعات ، مثل اللاجئين ، وتذاكر
ومن حيث لا يُروا ينادون ومن حيث لا يُروا
يجيبون والمراقبون يتراكضون ، والجنود يحملون الشيوخ ووجباتهم
بين أيديهم ، وهنا وهناك تسقط حقيبة : حقيبة
جريحة مصابة لن تتابع السفر ، والسفن هنا ، قد وصلت ، السفن دائمًا
موجودة هنا ، قادمة أو مغادرة ، منذ الازل . وكما في الحلم
عالم خيالي ، مليء بشظايا الزجاج وأنبياء آخر الزمان
والصراخ بالإيديش والألمانية والعربية والمياه تغمر
الجميع ببطء ، والرمل ناعم كما كان قبل سنين ، ويعتادون .
جميل النوم هكذا على الشاطئ بلا استيقاظ .

(من « غير قابل للمحو » / إصدار « هكيبوتس همئوحاد » ، ١٩٨٤)

من العبرية : جميل غنايم

راجع الترجمة : سميح القاسم وسهام داوود

ولد نتان زاخ عام ١٩٣٠ في برلين. هاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٧ . درس الفلسفة والعلوم السياسية في الجامعة العبرية. بعد ان قضى (١١) عامًا في بريطانيا نال خلالها الدكتوراة، عاد إلى البلاد وعيّن استاذاً في كلية الأدب العبري والمقارن في جامعة حيفا .

بدأ بنشر نصوصه وكتاباته أوائل الخمسينيات واشتهر بدعوته، التي اعتبرت فيما بعد ثورية، إلى إعادة تقييم مجمل الادب العبري. وقد أسس مع يهودا عميحاي الإطار الأدبي «على مشارف». عمل محرراً لدار النشر «دفير» وحرّر عدداً من الملاحق والمجلات الأدبية الدورية، وترجم للعبرية العديد من الأعمال الشعرية العالمية .

عام (١٩٨٢) نال «جائزة بيالك»، و«جائزة إسرائيل» (١٩٩٥)، و«فيرونيا» (روما، ١٩٩٣ مع الشاعر أدونيس)، والجائزة الدولية Camaiore (توسكانا، ٢٠٠٠).

في التسعينيات شارك في نشاط «لجنة المبدعين الفلسطينيين والإسرائيليين ضد الإحتلال».

مؤلفاته الشعرية: «قصائد أولى» (١٩٥٥)، «قصائد متنوعة» (١٩٦٠)، «بدلاً من حلم» (١٩٦٦)، «كل الحليب والعسل» (١٩٦٦)، «شمال شرق» (١٩٧٩)، «غير قابل للمحو» (١٩٨٤)، «قصائد عن كلب وكلبة» (١٩٩٠)، «لانني في الجوار» (١٩٩٥)، «لأن الإنسان شجرة الأرض» (١٩٩٩).

حـنـا ابـو حـنـا

نيسان أقسى الشهور

بحيرة طبريا رئة الجليل ومتنزَّه أهله يقصدون شواطئها كلما أُتيحت فرصة للراحة والتمتع بالجمال.

و«البنط» على شط طبريا موقع أثير. الجلسة في المقهى هناك في ساعات الأصيل حافلة بالسّحر الذي انسجم معه حتى زعيق النوارس، وتُموْسِقت فيه كركرة النرد وثرثرة الموج.

ولطبريا مسحة سكانية خاصة فقد عاش فيها خمسة آلاف من العرب مع ستة آلاف من اليهود دون توتر ظاهر. جُلّ اليهود يتحدثون العربية وكثير من العرب يفهمون العبرية. كان عم يحيى – الذي استقر في طبريا – يطلق على ابنه أكرم لقب «الحَرِّيش» لأنه كان يتصامم عن المطالب التي تُوجَّه إليه، وأصبح ذاك لقبه على لسان الجميع دون أن يعرفوا مصدر الكلمة التي تعني «الأصم» بالعبرية.

أحبّ يحيى طبريا بحجارتها البركانية السوداء، أحب سور ظاهر العمر ومسجده والحمامات المعدنيّة بل وما ينطلق منها من أبخرة حادة. أحب السفوح المتقوّسة المحيطة بالبحيرة كأنها سطح داخلي لقدر تحفظ فيه عمالقة الجنّ فاكهتها، وأحبّ أنسام التاريخ التي تهبّ منها. أحبّ دار عمه وفيهم سميُّه الذي كان معلمًا وقائدًا لفرق الكشافة في البلد.

لذلك كانت الطعنة عميقة جدًا في صدره ووجدانه حين رأى قوافل الحافلات واللوريّات العسكرية تحمل الناس من طبريا إلى الناصرة وتقذف بهم في الشارع في التاسع عشر من نيسان سنة ١٩٤٨.

يقول الشاعر ت. س. إليوت في قصيدته «الأرض اليباب»: «نيسان أقسى الشهور». ونيسان عنده يحمل أبعادًا أخرى، أما هنا فيتبادر إلى الذهن حالاً غدر الإنسان بالإنسان، والوطن الذي حوّلوه أرضًا خرابًا لشعبه.

من يصدّق؟

عرب طبريا كلهم يُقتلَعون اقتلاعًا في يوم واحد وتذروهم العاصفة في مهبّ رياحها!

جبرا قردحجي، طبراني عريق الجذور، حدّاد من عائلة حدّادين بَنوا بيوتهم على سفح التلة المشرفة على البحيرة وعلى البلدة القديمة التي يحضنها السور. عمّه سالم جمع تحويشة العمر وبنى مخازن ومكاتب ليضمن دخلُها شيخوخته.

كان جبرا يفتح صفحة العشرين من عمره حينما حلّت النكبة، صقلت المهنة عضلاته وجسمه كما صقلت الاحداث رؤيته ونخوته.

قال: منذ قرار التقسيم الذي اتخذته هيئة الامم المتحدة في تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ تعكّرت الاجواء في المدينة لكنها لم تصل حدّ الصدام.

أصداء الصدام في بقية أنحاء البلاد تثير الرعب فيحمى التوتّر.

احسّ العرب انهم بدون سقف: لا تنظيم ولا مؤسسات ولا سلاح. أما اليهود فلهم منظماتهم العسكرية: «الهاچاناه» و«البلماح» و«الإتسل» و«الليحي» وغيرها، ولهم مؤسساتهم المدنيّة كـ«الوكالة اليهودية» وسواها.

الشبان العرب يتحرّقون ليضمنوا الدفاع. وصلت حوالي خمسين بندقية على دفعتين واصبح كامل الطبري قائدًا لمجموعة من المناضلين. ثم جاء صبحي شاهين – وهو أيضًا طبراني – ومعه جماعة من الرجال. لكن الفريقين معًا لم يبلغا المئة، ولم تكن مخازن للذخيرة ولا خطة مدروسة.

في آذار بدأت اشتباكات بين الطرفين امتدّت خمسة أيام. أين يحتمي الناس من الرصاص؟

تنهّد جبرا وارتسم في عينيه الالم ثم أردف:

دار عمّي مبنيّة من عقود كبيرة راسخة لها ساحة وبوابة قوية فتوافد إليها أهل الحارة. جمعهم الرعب وقلّة الحيلة. جاءوا يحتمون من الرصاص. كل صلية يسمعونها تصبّ في بير الخوف.

سعيد زيدان – صاحب دكان في الحارة – نقل كل ما في دكانه من مواد غذائية لياكل المحتَمون هناك.. ثم ذبح خروف العيد ليُطعم الناس.

في الساعة الحادية عشرة من ليل اليوم الخامس استدعى القائد البريطاني زعماء العرب واليهود. حضر صدقي الطبري عن العرب وشمعون دهان – رئيس بلدية طبريا، عن اليهود. قال البريطاني: نحن مسؤولون عن البلد حتى ١٥ آيار، موعد انتهاء الانتداب، ولذلك عليكم ان توقفوا الاشتباكات حالاً وإلاّ فإنّي ساضرب بالمدافع ايّ فريق يشرع بإطلاق النار.

امتدت الهدنة حوالي الشهر وبدت الأحوال وكأنها هادئة. لكن مجزرة دير ياسين التي كانت في التاسع من نيسان بعثت في القلوب رعبًا وذهولاً. إذن المعركة ليست بين قوات مسلّحة. إنهم يقتلون الشيوخ والحوامل والأطفال وكل من يطوله سلاحهم ليقتلعوا الناس من بيوتهم وأراضيهم لتخلو لهم البلاد. أرادوا لتلك المجزرة أن تكون بوقًا ينذر من يبقى بالموت ويدعو إلى الرحيل كل من يريد الحياة.

واستمر جبرا:

تجدّد القتال في طبريا في ١١ نيسان. أشيع أن نجدة ستأتي عن طريق قرية ناصر الدين. في مساء ١٣ نيسان جاءت قوة يهودية مسلحة متنكرة بملابس عربية. رحّب بها أهل القرية باعتبارها النجدة لطبريا، حصدهم الرصاص ولم ينجُ من السكان سوى حوالي أربعين شخصًا.

نزلت أخبار هذه المجزرة على طبريا كالصاعقة وزادت من وتيرة الرعب.

في ١٦ / ٤ فرض الإنجليز منع التجول وهدنة مدتها ثلاثة أيام. استفادت القوات اليهودية من الهدنة فاحتشدت بأعداد كبيرة وخرقت الهدنة قبل انتهاء الموعد. قامت بهجوم مخطّط ومركّز.

احتلوا «فندق كروسمان» المشرف على الأحياء العربية ومضوا يحتلون المواقع المختلفة. لم يوقفهم البريطانيون المسؤولون عن البلاد حتى ١٥ /٥ /٤٨. صباح ١٩ / ٤ دعا البريطانيون العرب إلى التجمع في الساحة القريبة من السور. سوط الذعر والمجازر القريبة ساقهم إلى تلك الساحة. لم يكفّ القناصة عن إطلاق الرصاص على الحشد. أصابوا صبحي الحمَوي وإحسان كنجو.

عيسى يعقوب العواد ابن السبعين أصابه الرصاص في رجله.

الأب نتنائيل شحادة لم يحتمل ما يحدث. اعتمد على ثوب الكهنوت الأسود ومشى بين الرصاص نحو مركز الإدارة البريطانية طالبًا حماية الناس الذين دُعوا للاحتشاد بالآلاف.

بعث المسؤول سيارة مصفّحة لعلّها تردع القناصة. الرصاص خفّ لكنه لم ينقطع.

أين ندفن القتلى الذين صرعهم القناصة؟ المقبرة بعيدة والطريق إليها عبر مناطق الاحتلال اليهودية. في غمرة العويل دُفنوا في السور.

جاء البريطانيون بالباصات واللوريات العسكرية. بعض الباصات كانت لشركة «الجليل» الناصرية التي تعمل على خط الناصرة – طبريا وتبقى هناك في الليل.

خيّروا الناس بين وجهتين: إما إلى الناصرة أو إلى الأردن. ومنعوا أن يحمل أحد شيئًا من الأثاث أو سواه. قالوا: ستعودون بعد أسبوع أو أسبوعين.

حُشر الناس في الباصات واللوريّات. قافلة كبيرة تتوجه إلى الناصرة، حوالي ثلاثة آلاف إنسان في حوالي سبعين سيارة. كل سيارة كأنها جذع زيتونة روميّة اقتُلع من الجذر ونُفي من أرضه.

نساء تندب، وأطفال يصرخون ويخنقهم الحشد الذليل، ورجال يفركون أيديهم في لوعة وذهول:

– باعونا ببلاش، باعونا أولاد الكلب.

تذكّر جبرا والده:

والدي رجل متديّن لكنه انفجر. عندما توجّهت بعض النساء إلى الله ليرى ويشفق قال: «الله عنده بيت في تل أبيب».

أبو موسى بصل – أصله من صفد – يضرب كفًّا بكفٍّ والدموع تسيل على خديْه. سألته: «ليش لحالك؟ وين أم موسى؟».

قال: أعطتك عمرها. رحت أجيب أغراض من البيت لقيتها مقتولة في الدار.

عندما كانت السيارات تصعد على التل خارجة من المدينة كان اليهود يتفرّجون على المشهد بشماتة وهم يحركون أصابعهم وأيديهم بإشارات بذيئة ويطلقون الشتائم الفاضحة.

تلك هي قافلة الويل والضياع. هل تعرف ما معنى أن تفقد كدح العمر وتتحطم كل الآمال في يوم واحد؟

وصلنا إلى الناصرة، أنزلوا جماعات منّا قرب مبنى البلدية والباقين في ساحة الكراج. نحن نزلنا في بناية «النافي»، كل عائلة أو عائلتين في غرفة. آخرون نزلوا في مبنى «الكازانوفا». المسؤولون عن الأديرة راحوا يفتحون أبواب المؤسسات لاستيعاب المشرّدين.

بعدنا بزمن قصير جيء بأهل بيسان أيضًا – وقد خُيّروا كذلك بين التوجّه إلى الأردن أو إلى الناصرة – فازدادت كثافة اللاجئين.

عمّي سالم أصرّ على البقاء في بيته في طبريا ليشرف على أملاكه، لكن الإنجليز أخرجوه بالقوة. وضعوه في مصفّحة ومضوا به إلى «جسر المجامع». من هناك راح إلى إربد.

في الناصرة طالبنا السلطة البريطانية بأن تتيح لنا الذهاب إلى بيوتنا في طبريا لجلب الملابس والأثاث. بعد إلحاح وافقوا بعد أسبوعين أن نخرج في قافلة من الشاحنات بحراسة عسكرية إلى طبريا. عندما وصلنا إلى بيوتنا وجدناها فارغة تمامًا بل سرقوا ما أمكنهم أن يقتلعوه ويحملوه كالبلاط والثّريات وغيرها. وهكذا خسرت كل عائلة مشرّدة – فوق خساراتها – مبلغًا باهظًا في تلك الأحوال.

أما ابن عمك – سَمِيُّك – فقد نشط مع الكشافة في الإسعاف والإغاثة ولم يأتِ معنا. ذهب مع المناضلين إلى قرية المغار، وبعد حين جاء إلى الناصرة.

قال الراوي: كانت طبريا أول مدينة يخليها البريطانيون من أهلها ويشرّدونهم قبل حوالي شهر من انتهاء الانتداب الذي يُفترض أن يحمي الناس والبلاد حتى اليوم الأخير، ولكنهم اهتموا بأن يحققوا «وعد بلفور» بإقامة «وطن قومي لليهود» فما غادروا البلاد إلا وقد تسلّم اليهود مدن الساحل ومدن الغور ومناطق أخرى.

أما الزعامة الصهيونية فكان قبولها قرار التقسيم مدخلاً وفاتحة فحسب، فقد وضعوا الخطط لاحتلال المزيد من الأراضي العربية وترحيل أهلها. لذلك لم يعلنوا حتى اليوم – رسميًا – عن حدود الدولة.

(مقاطع من الجزء الثاني من السيرة الذاتية – «ظل الغيمة»، المعد للطبع)

شاعر وكاتب فلسطيني مقيم في حيفا

راشف زريق

أُسبوع العدالة

(١)
صبحيّة

صبحيّة،

صبحيّة، بائعة اللبن من الغابسية،

صبحيّة، أم صالح، بائعة اللبن من الغابسية وجارة أم علي،

صبحيّة لم تعد تفهم شيئًا. اختلطت عليها الأمور والمفاهيم. لم تعد تميّز النصر من الهزيمة، الربح من الخسارة، العودة من البقاء.

لا تعرف صبحيّة كيف تفهم قرار المحكمة الذي أنصفها «بالعودة» إلى الغابسية.

صبحيّة فقدت لغتها!

(٢)
عودة ١

كغيرها من أبناء بلدتها، أبعدت صبحيّة عن الغابسية عندما جرى احتلالها في أيار ١٩٤٨، وكغيرها، عادت إلى الغابسية في ربيع ١٩٤٩. «عادت» إلى بيتها لسنة ونصف السنة. بعدها «عاد» الجنود الإسرائيليون وأبعدوها، كغيرها، من الغابسية إلى قرية دنون المجاورة (البعيدة؟). صبحيّة كانت تحمل «هوية». مرّت عتبة تسجيل السكان بسلام وحصلت على الهوية. دنون تبعد (٢٥٠) مترًا عن الغابسية لا غير. لكنها بعيدة. كل شيء غير البيت بعيد، أو هكذا بدا لصبحيّة.

كغيرها، حاولت صبحيّة مرارًا وتكرارًا العودة إلى الغابسية. جرّبت هي وزوجها الكثير من الحيل. مرة من هذا الطريق ومرة من طريق آخر، تارة ليلاً وأخرى صباحًا. فشلت صبحيّة، كما فشل باقي أهل الغابسية.

آب ١٩٥١، الحاكم العسكري يعلن الغابسية منطقة عسكرية مغلقة، يحظر الدخول إليها أو الخروج منها. الحاكم العسكري لا يصدر قرارًا بطرد أهل الغابسية، فالطرد حاصل في واقع الحال. الإجراء القانوني يهدف فقط إلى منع العودة. إلى إبقاء الوضع كما هو عليه. القوة لعالم السياسة، وللقانون أن يكون ظلاً للسياسة.

(٣)
محكمة ١

كغيرها، تلتمس صبحيّة إلى المحكمة لتلغي أمر الحاكم العسكري. المحامي يقول إن هناك إمكانية لإلغاء الأمر. في المحكمة يدّعي المحامي ان أمر الحاكم العسكري لاغٍ. لماذا؟ لأن الأمر بإعلان المنطقة، كمنطقة عسكرية مغلقة، هو عبارة عن تشريع قانوني يغيّر الوضعية القانونية لمجموعة غير محددة من المواطنين، ولذلك كان من الواجب إعلانه في الجريدة الرسمية حتى يأخذ مفعوله. عدم إعلانه في الجريدة الرسمية ينتقص من مفعوليته. الحاكم العسكري لا يستطيع أن يعمل على «كيفو». الحاكم العسكري جزء من دولة نظام، وعليه أن يعمل ضمن صلاحياته المحدودة والمحددة سلفًا. فهو ملتزم تجاه من عيّنوه بالعمل ضمن صلاحياته فقط كما أُقرت له. لا أحد فوق القانون، بما في ذلك الحاكم العسكري.

تقبل المحكمة ادعاء المحامي. أمر الحاكم العسكري يجب أن ينشر في الجريدة الرسمية. ما دام لم ينشر فهو لاغ. لا تقول المحكمة شيئًا عن حق صبحيّة، وباقي أبناء بلدتها، في الرجوع إلى بيوتهم. المحكمة تتركز في واجبات الحاكم العسكري وفي الترتيبات الضرورية لتحديد «حدود القوة». تنهي المحكمة قرارها بما يلي:

«وعليه، لم يكن ولا يوجد للأمر الصادر عن الحاكم العسكري أية فاعلية قانونية، ولم تكن لديه الصلاحية في إبعاد الملتمسين من قرية الغابسية، ولم تكن لديه الصلاحية في منعهم من الدخول إلى القرية، الخروج منها، أو التواجد أو السكن فيها».

المحكمة تنشغل بصلاحيات الحاكم العسكري، وليس في حقوق الضحية، وتنهي قرارها دون أي إشارة إلى حقّ صبحيّة في الرجوع إلى بيتها. الحاكم العسكري قد أخطأ، لكنه أخطأ بحق الدولة وليس بحق صبحيّة.

المحكمة توقع قرارها بتاريخ ٣٠/١١/١٩٥١.

(٤)

عودة ٢

صبحيّة تكاد لا تصدق نفسها. المحكمة «كسرت» كلمة الحاكم العسكري والغت الامر. هل من المعقول انه اصبح الآن من الممكن العودة إلى الغابسية؟ أحد جيرانها يقول إنه مسموح. لقد عاد هو بنفسه. في ٥ / ١٢ / ١٩٥١ تعود صبحية وابنها صالح. أبو صالح لا يعود تلك الليلة. متخوف من تجربته السابقة حين صدّه الجنود عندما حاول وآخرين العودة، وجرى تقديمهم للمحكمة. بعض الجنود يعترضون طريق صبحيّة. تعرض هويتها بثقة وتصر على الدخول. يسمح لها الجنود بدخول القرية. «أبو صالح» لا يعود تلك الليلة، فهو لا يزال غير متاكد من ان الرجعة آمنة. أحد الأقارب حاول الرجوع قبل أشهر وجرى اعتقاله. بعض الجيران يجازفون هذه المرة هم أيضاً و«يتسلّلون» إلى بيوتهم في الظلام، كي لا يراهم الجيش ويمنعهم من الرجوع..

(٥)

دولة قانون

الحاكم العسكري يجيد القراءة والكتابة. يحضّر دروسه هذه المرة جيداً. يعمل بموجب امر المحكمة. يصدر امرًا عسكريًا جديدًا مطابقًا تمامًا للامر العسكري السابق. هذه المرة ينشر الحاكم العسكري الامر العسكري في الجريدة الرسمية بتاريخ ٦ / ١٢ / ١٩٥١. أمر عسكري لا غبار عليه. منذ الآن فإن احداً لا يستطيع الدخول إلى الغابسية. من نجح بالرجوع إلى الغابسية خلال الأسبوع الممتد من ٣٠ / ١١ / ١٩٥١ وحتى ٦ / ١٢ / ١٩٥١ قد نجح، ومن لم ينجح فقد فاته القطار. أُسبوع واحد من العدالة يكفي. ٦ / ١٢ / ١٩٥١ اصبح تاريخًا مفصليًا ومصيريًا في حياة الغابسية وأهلها. إما بعده وإما قبله. لا أحد يفهم لماذا ٦ / ١٢ بالذات؟

(٦)

محكمة ٢

صبحيّة، كالعشرات من أبناء بلدها، تلتمس إلى المحكمة مجدداً. البعض يدعي أنه عاد خلال هذا الأسبوع ونام في بيته، وعليه فلا يمكن إبعاده. «البعض الآخر» يدّعي أنه صحيح أنه لم يعد خلال هذا الأسبوع، لكنه لم يعد لاسباب قسرية نتيجة عسف الحاكم العسكري الذي أرغمهم، أصلاً، عنوة وبدون أساس قانوني، على الرحيل عن بيوتهم.

ترفض المحكمة ادعاء هذا «البعض الآخر». أما بالنسبة «للبعض»، فهي تقبل ادعاءهم العام – وذلك أيضاً، هو موقف المدعي العام الذي يمثل موقف الدولة – وتقرّ بأن من يستطيع أن يثبت أنه عاد إلى الغابسية بين تاريخ ٣٠ / ١١ وتاريخ ٦ / ١٢، يحقّ له البقاء والسكن في الغابسية، وقرار المحكمة لا يسري عليه..

تنظر المحكمة في الأدلة المعروضة أمامها. تتفحصها مليًا وكأنها تحقق في جريمة قتل. تقارن الشهادات بعضها ببعض، لترى من أثبت بالدليل القاطع أنه عاد حقًا إلى الغابسية خلال «أسبوع العدالة». تنظر المحكمة في الأدلة المقدمة من طرف الجنود الذين تواجدوا في الموقع وفي التقارير التي أعدوها حول الداخل والخارج من الغابسية. قبل ٣٠ / ١١ كان الدخول والخروج من الغابسية جريمة يعاقب عليها القانون، وبعد ٦ / ١٢ أيضاً، فإن الدخول والخروج هو جريمة يعاقب عليها القانون. من صلاحية وواجب الجنود المتواجدين عند مدخل القرية ضبط حركة الدخول والخروج وتوثيقها كي يجري تقديم هؤلاء المخالفين إلى المحكمة. سجلُّ الجنود هذا هو سجل إدانة واتهام. إلاّ أن نفس السجل يتحوّل في الفترة الممتدة من ٣٠ / ١١ وحتى ٦ / ١٢ إلى سجل «نجاة»، وأفق الخلاص الوحيد الذي سيثبت من خلاله أهل الغابسية أنهم بالفعل قد عادوا إلى بيوتهم خلال هذا الأسبوع العادل. وإذا ظهر اسمك في هذا السجل في أي وقت غير «أسبوع العدالة»، فذلك يعتبر مصيبة، لأنه يعني مخالفة للأمر العسكري. وكذلك الأمر إن لم يظهر اسمك خلال «أسبوع العدالة»، لأنه يعني أنك لم تثبت حبّك الجارف للغابسية، ولم تثبت أنك عدت إليها خلال هذا الأسبوع. إنها «خيانة» تعاقب عليها بالإبعاد لمدى الحياة. قانون «يعاقب» إن حضرت وإن غبت، إن وفيت وإن خنت، إن عدت وإن لم تعد..

تُمعن المحكمة النظر في تفاصيل الأحداث خلال هذا الأسبوع. كل ما كان قبل ذلك يبدو عديم المعنى من وجهة نظر القانون. أما هذا الأسبوع فيصبح محطًا لجميع الأنظار. لكل حركة دلالاتها وأبعادها القانونية. كل شخص عالم قائم بذاته. من قال إن المحكمة ليست ليبرالية مع العرب. تنظر المحكمة في حركة كل شخص من الملتمسين خلال هذا الأسبوع، تتبع خطاه كظله، وترصد حركته. تضع المحكمة حياة صبحيّة، كغيرها، خلال هذا الأسبوع تحت المجهر. وفجاة.. فروق هامشية، ناقصة، عديمة اللون والرائحة، منسية وغائبة، تصبح مركزية ومصيرية. القانون يحوّل صغائر الأمور والتفاصيل الدقيقة، هذا الأسبوع، إلى فروق كبيرة، حاسمة ومصيرية (متى عادت، في أية ساعة، برفقة من؟ هل نامت في البيت؟..).

بالمقابل، فإن التاريخ المشترك، النسيج الاجتماعي، ذكرى الطفولة، حياتها العائلية،

علاقتها ببيتها وأرضها عبر السنين، وكل ما كان يبدو مركزيًا في حياتها، يبدو أمام المحكمة، جانبيًا، ثانويًا، حقيرًا ومتفهًا.

تنجح صبحيّة في إقناع المحكمة بأنها قد عادت إلى بيتها في الغابسية مع ولدها. كذلك ينجح أحد جيرانها بإثبات رجوعه هو الآخر. لا ينجح أحد غيرهم في ذلك. صبحيّة تستطيع أن تعود مع صالح، إلى الغابسية. وكذلك جارها.. جارها فقط.

أثبتت صبحيّة حبها للغابسية، ولذلك فهي تستحق أن تعود للغابسية.

تنصف المحكمة صبحيّة، وتقر لها حقها في العودة إلى الغابسية مع ولدها.. إلاّ أن الغابسية، بدون أهلها، لم تعد في مكانها. لقد خسرت صبحيّة عندما ربحت.

صبحيّة فقدت مكانها..

صبحيّة فقدت لغتها..

(٧)

صبحيّة

صبحيّة، بائعة اللبن من الغابسية.

....

باحث فلسطيني من عيلبون مقيم حاليًا في بوسطن/ الولايات المتحدة

نسرين مغربي

الحاضر الناقص

يتحدث دريدا في مقالته Aphorism Countertime («الزمن المعاكس كمثل سائر») عن الزمن المعاكس / غير المؤاتي او الـcontretemps من خلال ربطه بالاحداث التراجيدية التي وقعت في مسرحية شكسبير «روميو وجولييت». وقد عالج المترجم الانجليزي لمقالة دريدا الآنفة معنى الـcontretemps بقوله: «كلمة contretemps تعني باللغتين الانجليزية والفرنسية «حادثًا مؤسفًا»، «حادثًا مشؤومًا».. لكنها في الفرنسية تفيد أيضًا معنى ما هو «خارج الزمن» بمفهوم «الزمن الرديء» أو «التوقيت الخاطئ» أو «الزمن المعاكس».

في هذه المقالة يناقش دريدا عملية إعطاء الاسم (التسمية) بوصفها عادة اجتماعية تحاول توحيد المكان والزمان بمعنى المطابقة ما بين الـ«هنا» و«الآن»، لكن المفارقة ان هذه القدرة بالذات تحمل في طياتها إمكانية وقوع الحوادث المؤسفة بما فيها الموت، والتي تسعى جاهدة للحؤول دونها سلفًا. وقد عالج دريدا قضية التسمية في مقالته «Des Tours de Babel» «أبراج بابل») حيث يقول إن بناة برج بابل، بسبب تفرقهم وتشتتهم عن بعضهم البعض، نظرًا للمسافات الشاسعة التي بدأت تفصلهم عن بعضهم البعض في البرج الضخم، قرروا إطلاق الأسماء على أنفسهم لحمايتها من الهلاك، فاعتبر الرب هذا العمل تحديًا له. فإعطاء الإسم مواز لعملية الخلق وهو الوحيد صاحب الامتياز لمثل هذا الصنيع، لذا فقد «بلبل» ألسنتهم، ومن وقتها أصبح الإنسان بحاجة إلى مترجمين بين الألسن المختلفة. اي ان الإسم يحاول ان يضع حاجزًا ويفصل (بوصفه علامة فارقة) الإنسان لحمايته من الحوادث المشؤومة والضياع. لكن في مقالته التي تتحدث عن الـcontretemps او «الزمن الرديء» يتطرف دريدا في تشاؤمه من إمكانية التحايل على الحوادث المؤسفة ويقول: «في البدء كان الـcontretemps». ويربطه مع ما يسميه «عدم التزامن المستحيل».

ويناقش في هذا السياق تجلي «الزمن الرديء» في مسرحية روميو وجولييت على صعيدين: الاول هو مجرد التقاء الإثنين ووقوعهما في الحب على خلفية الصراع بين

العائلتين العدوّتين. كما تكرر هذا الزمن الرديء في حادثة الرسالة التي لم تصل في موعدها. فكما هو معروف أرسل الكاهن (أو الوسيط، بعبارة دريدا) رسالة إلى روميو يشرح له فيها ملابسات موت جولييت الوهمي، لكن خبر موت جولييت يصل إلى روميو قبل وصول الرسالة، وبسبب هذا التشويش وسوء التزامن يتحدد مصير الاثنين، وهكذا فإن الزمن الرديء يقود إلى هلاكهما في النهاية، رغم أن موتهما يحمل خاصية فريدة ومستحيلة على أرض الواقع: فكل واحد منهما «ذاق» طعم موت الآخر!.

ونجد فكرة عدم التزامن (أو سوئه) إضافة إلى الاشارة إلى روميو وجولييت في قصيدة «كان ينقصنا حاضر» (هذا العنوان صياغة شاعرية لفكرة عدم التزامن والـcontretemps لدى دريدا) للشاعر محمود درويش (من ديوان «سرير الغريبة»):

لنذهب كما نحن:
سيدة حرة
وصديقًا وفيًا،
لنذهب معًا في طريقين مختلفين
لنذهب كما نحن متحدين
ومنفصلين،
...
لنذهب كما نحن:
عاشقة حرة
وشاعرها.
لم يكن كافيًا ما تساقط من
ثلج كانون أول، فابتسمي
يندف الثلج قطنًا على صلوات المسيحي؛
عمّا قليل نعود إلى غدنا، خلفنا،
حيث كنا هناك صغيرين في أول الحب،
نلعب قصة روميو وجولييت
كي نتعلم معجم شكسبير...
طار الفراش من النوم
مثل سراب سلام سريع

يكللنا نجمتين
ويقتلنا في الصراع على الإسم
ما بين نافذتين
لنذهب، إذًا
ولنكن طيبين

لنذهب، كما نحن،
إنسانة حرة
وصديقًا وفيًا،
لنذهب كما نحن. جئنا
مع الريح من بابل
ونسير إلى بابل...
لم يكن سفري كافيًا
ليصير الصنوبر في أثري
لفظة لمديح المكان الجنوبي
نحن هنا طيبون. شمالية
ريحنا، والأغاني جنوبية
هل أنا أنتِ أخرى
وأنتِ أنا آخر؟
ليس هذا طريقي إلى أرض حريتي
ليس هذا طريقي إلى جسدي
وأنا لن أكون «أنا» مرتين
وقد حلّ أمسي محل غدي
وانقسمت إلى امرأتين
فلا أنا شرقية
ولا أنا غربية،
ولا أنا زيتونة ظللت آيتين
لنذهب، إذًا.
لا حلول جماعية لهواجس شخصية

لم يكن كافيًا ان نكون معًا
لنكون معًا . . .
كان ينقصنا حاضر لنرى
أين نحن . لنذهب كما نحن،
إنسانة حرة
وصديقًا قديمًا
لنذهب معًا في طريقين مختلفين
لنذهب معًا
ولنكن طيبين . . .

المضمون العام في هذه القصيدة يتحدث عن الفراق والانفصال بين امرأة ورجل :

لم يكن كافيًا ان نكون معًا
لنكون معًا
كان ينقصنا حاضر

والحجة الاساسية لهذا الانفصال (كما نستدل من العنوان) هي سوء التزامن، مجيء اللقاء في غير اوانه، او الالتقاء في الـcontretemps، فهذا المصطلح يفرض نفسه علينا بقوة بفضل الإشارة إلى اسمي روميو وجولييت أيضاً :

عما قليل نعود إلى غدنا، خلفنا،
حيث كنا هناك صغيرين في أول الحب،
نلعب قصة روميو وجولييت
كي نتعلم معجم شكسبير

من هنا فإن صوتي المرأة والرجل في القصيدة هما تناسخ لبطلي مسرحية شكسبير، واللذين أصبحا طرازًا بدئيًا للقاء في الازمنة الرديئة، ونجد تكرار فكرة التناسخ الدائري في عبارة : « عمّا قليل نعود إلى غدنا، خلفنا »، إضافة إلى الإشارة إلى الفراش الذي يمر بعملية تحوّل « تناسخ » في أطواره الحياتية :

طار الفراش من النوم
مثل سراب سلام سريع
يكللنا بجمتين
ويقتلنا في الصراع على الاسم
ما بين نافذتين
لنذهب، إذًا
ولكن طيبين

وهنا نصل إلى النقطة الثانية والتي لها علاقة بالمسرحية واعني بها الصراع على الإسم الذي أشرت إليه في البداية. فدريدا يحلل في مقالته مشهد الشرفة في المسرحية عندما تخاطب جولييت نفسها في الليل وتقول:

آه روميو، روميو، أين أنت يا روميو؟
تنكر لابيك، وانبذ اسمك
وان لم تفعل ذلك، فلا تخلف بحبي
وبدوري لن أكون من عائلة كابوليت بعد اليوم

من هنا فإن جولييت تطلب من روميو ان يتنكر لاسمه وينزعه عنه كي يفوز بحبها، وفي هذا الصدد يقول دريدا إن موت الاسم يعني موت حامله، فروميو «حي بفضل اسمه»، وجولييت «تريد موت روميو وسوف يكون لها ذلك». ويقول ان جولييت تعلن الحرب على «روميو، على اسمه» ولن تنتصر إلا إذا مات. وفي هذا مفارقة يصوغها دريدا بالعبارات التالية:

«روميو وجولييت يحبّان بعضهما عبر اسميهما، رغم اسميهما، ويهلكان بسبب اسميهما، ويتخلدان من خلال اسميهما».

فقصة روميو وجولييت أصبحت مضرب مثل ومأساتهما تتكرر عبر الأزمنة، فنحن نسمي كل عاشقين «روميو وجولييت زمانهما». أما الـcontretemps يأتي في رؤية دريدا انهما «يهلكان بسبب اسميهما». وإذا عدنا إلى قصيدة «كان ينقصنا حاضر»:

طار الفراش من النوم
مثل سراب سلام سريع
يكللنا نجمتين
ويقتلنا في الصراع على الاسم
ما بين نافذتين

فنقول إن الصراع على الاسم (كما في مشهد الشرفة لدى شكسبير) – والذي يؤدي إلى الموت – إضافة الى تكرار حادثة اللقاء في الزمن الرديء، أتاحا للشاعر الإتكاء على « معجم شكسبير » والحديث عن قصة مماثلة، بنهاية غير سعيدة.

اما المخرج البولندي الاصل، كيشلوفسكي، والذي قدم ثلاثيته الرائعة بالوان العلم الفرنسي : الازرق، الابيض والاحمر، فقد عالج مفهوم الـcontretemps في فيلمه الأخير « Rouge » (الاحمر) [وهو آخر فيلم اخرجه قبل وفاته] – وقصة الفيلم بالغة البساطة : في احد شوارع العاصمة پاريس تدهس عارضة أزياء شابة كلبة بسيارتها، وعندما تفتش عن صاحبها تكتشف انه قاض متقاعد، يعيش لوحده ولا شيء « يهزه » في العالم، بما فيها كلبته المهملة. فهو يمضي أوقاته في التنصت على محادثات جيرانه الهاتفية. في البداية تنفر منه الشابة وتقرعه على سلوكه « اللا أخلاقي ». لكنها شيئًا فشيئًا تدخل إلى عالمه وتفهم وجهة نظره في الحياة ويقترب الإثنان من بعضهما البعض نفسيًا. ومع تكرار محادثاتهما في الأيام التالية يدرك القاضي الكهل بأنها تمر بأزمة عاطفية إذ أن صديقها يهرب من مكان إلى آخر ويتركها وحيدة. وبالصدفة يتعرف هذا القاضي من خلال تنصته المتكرر على جيرانه على محام شاب يمر بأزمة عاطفية هو الآخر، إذ تكون المرأة التي احبّها قد هجرته وفضلت عليه رجلاً آخر، فييأس من حياته ويقرر قطع صلاته مع العالم الخارجي، بما فيه كلبه الذي كان دائم الإعتناء به. فيقرر القاضي التدخل في حياة عارضة الأزياء والمحامي، ويجعل الأمور تسير بحيث يسافر الإثنان من پاريس إلى إنجلترا على متن الغواصة نفسها في التوقيت نفسه. وفعلاً ينفذ خطته وتسير الأمور على ما يرام إلى أن تهب عاصفة تؤدي إلى غرق الغواصة، ولم يكن الشابان حتى ذلك الوقت قد تعرّفا على بعضهما البعض. وبسبب الخطر المحدق يغرق معظم ركاب الغواصة، لكن ينجح فريق الإنقاذ في إنقاذ بعض المسافرين ومنهم (يا للمصادفة !) أبطال الثلاثية : الممثلة جولييت بينوش (بطلة فيلم « الازرق »)، الزوجان اللذان تدور حولهما الدراما في فيلم « الابيض » والشابان اللذان حرص القاضي على تدبير التقائهما ومطابقة الـ « هنا » و« الآن » بينهما،

وفعلاً نراه ينجح في مهمته إذ تلتقي عيونهما نحو نهاية الفيلم فنفهم ان قلبيهما سيخفقان .. إلخ.

وقد وجدت في هذا الفيلم صدى لمقالة دريدا الآنفة، مع إضافة مميّزة تلائم رهافة المخرج / الشاعر (فافلامه لا تقل شاعرية عن أجود القصائد). في البداية سأتطرق إلى أوجه الشبه بين المقالة والفيلم:

يقول دريدا: في البدء كان الـ « contretemps » وعدم التزامن، وفعلاً نلاحظ ان هذا « الموتيف » يتكرّر في الفيلم عبر العلاقات التي تنبني بين القاضي المتلصص (عن طريق أذنه) وعارضة الأزياء. فنحو ختام الفيلم يعترف القاضي الكهل لها بانه هو الآخر احب عارضة أزياء في شبابه، لكنّها خانته وهجرته، ومن وقتها لم يتمكن من إيجاد بديلة لها، لذلك بقي عازبًا وبائسًا. لكنه يعترف لها أيضًا بانه يشعر الآن بانها فرصة ضائعة في حياته نظرًا لعدم التقائه بها في وقت انسب، فقد كان بإمكانها ان تكون البديل الملائم. فنفهم انه لو كان اصغر بعدة سنوات أو لو انها ولدت قبل عدة سنوات وأتيح لهما الإلتقاء في المكان والزمان المناسبين لتغيّر مجرى حياته. وهنا يمكن الحديث عن الـ contretemps التام بمصطلحات دريدا بين القاضي وعارضة الأزياء الشابة. فقد أفلت كل واحد منهما من يد الآخر، أو بعبارة الشاعر « كان ينقصهما حاضر » (« لم يكن عمرهما كافيًا ليشيخا معًا / ويسيرا إلى السينما متعبين »)، لكن بما ان عارضة الأزياء لا تزال في مقتبل العمر وترمز إلى « مذاق الحياة المنعش » (كشعار الإعلان التجاري الذي كان يحمل صورتها الجميلة على لافتة عملاقة في أحد شوارع العاصمة الفرنسية) فقد كانت الفرصة متاحة أمامها لإصلاح ما أفسده الدهر والالتقاء بشاب مناسب بالتزامن الصحيح وفي « الزمن المؤاتي ». لذلك فكر القاضي بجدية بالمحامي البائس والذي يعتبر تكرار وتناسخًا له: فكلاهما عانى من الهجران ووصل الى حافة اليأس التام والرغبة في الإنعزال والانقطاع عن العالم، بل وكلاهما اوقع بالصدقة الكتاب المقرر قبل الإمتحان واعتبر هذا الامر علامة من السماء، وفعلاً جاءت الأسئلة من المواد التي تضمنتها هذه الصفحة. وهكذا عمل اللقاء، الذي حرص القاضي على تدبيره بين عارضة الأزياء والمحامي في الغواصة، على هزم الزمن الرديء، أي انه جمع بينهما في المكان والزمان المناسبين. وهنا نصل إلى التعديل الذي أدخله كيشلوفسكي على تحليل دريدا. فدريدا بالغ التشاؤم جعل الزمن الرديء الأمر الناهي في تقرير مصائر البشر، فمهما حاولنا التحكم بالحوادث المؤسفة، التحايل عليها والاحتياط لها، بل واكثر من ذلك، فحصرًا بسبب هذه الاحتياطات التي نلجأ إليها للحؤول دون وقوعها (كتحديد المواعيد، إرسال الرسائل، إعطاء الاسماء) فإننا نصل في النهاية إلى عكس المطلوب تمامًا،

إلى الـcontretemps. لكن كيشلوفسكي يستخدم الوسائل نفسها، المشؤومة بناء على دريدا، ويحقق التزامن التام.

كيشلوفسكي في فيلمه هذا يتحدى القدر، فهو لا يقف مكتوف اليدين أمام عربدة وطغيان الزمن الرديء، إنما يسعى إلى تحجيمه وإبعاد شبحه، بل وأجده يعترض أساسًا على تشاؤم دريدا حتى انه يقلب موازينه متعمدًا.

لنتمعن في رأي دريدا بالوسيط وهو الدور الذي لعبه الكاهن في مسرحية روميو وجولييت، والقاضي في الفيلم. يقول دريدا:

«الوسيط، الكاهن، «الخاطبة»، والذي لا غاية له إلا تحقيق مصلحة الآخرين، يمهّد الطريق للزمن الرديء».

وهكذا فإن دريدا المتشائم يجعل الوساطة أحد العناصر التي تستجلب الزمن الرديء، فقد حضّر الكاهن الشراب الذي أدى إلى دخول جولييت في سبات يشبه الموت، لكنه أرسل رسالة إلى روميو يعلمه فيها بالخطة، ورغم ذلك فقد أخفق، ولم تصل الرسالة في الوقت المناسب، وكانت يد الزمن الرديء هي العليا. أما كيشلوفسكي الذي أعلن حربًا لا هوادة فيها على الـcontretemps، وتحداه فقد أدى في النهاية إلى إنجاح الوساطة، وهكذا فقد كسر قالب «الزمن الرديء» الصارم. لكن – الحق يقال – هذه الحرب لم تكن سهلة، وكان الفشل يتربّص بالجميع، والموت أيضًا – ساعة غرقت الغواصة، لكن الإنتصار جاء وئيدًا في النهاية وعلى رؤوس الأشهاد، بفضل وسائل الإعلام العابرة للقارات، وهكذا تنفسنا الصعداء وانجلى الهم عن صدورنا.

خلاصة: يحلل دريدا مسرحية روميو وجولييت، ويتحدث عن الجانب المأساوي فيها أساسًا من خلال سيادة مبدأ «الزمن الرديء» وسوء التزامن القاسي وتحكمه بالمصائر، أما الشاعر محمود درويش فإنه يشير في حوار يجري بين رجل وامرأة إلى قصة روميو وجولييت، ويرى أن علاقة الحب بينهما محكومة بالفشل لكونها تكرارًا لتلك المأساة من خلال إيراد عدة سمات مشتركة كاللقاء في الزمن الرديء، الصراع على الإسم – أي المزايا الثقافية التي ترسم الحدود ولا يمكن التحكم بها، والتنازل عنها (كالتنازل عن الإسم) يعني فتح الباب على مصراعيه للموت والهلاك. في النهاية فإن كيشلوفسكي يعترف بوجود «الزمن الرديء» وسلطته الجائرة، لكنه يحاربه وينال منه ليبقى في النهاية مع المؤاتاة و«مذاق الحياة المنعش».

باحثة فلسطينية مقيمة في عكا/ الجليل


غياب

انطوان شلحت

الصورة الأُولى

غابت بُشرى قرمان على حين غرّة.

لم «تُنذر» أحداً بهذا الغياب، بل ظلّت تعمل حتى الرمق الأخير دون أن تعرف أن الموت، مرضاً، كان لها في المرصاد، يتحيّن «فرصته» بسرعة مُذهلة.

الموت – ذلك المجهول النائم الذي لا يستشرف أحد ميقات يقظته، فنتحايل على قلّة درايتنا بمقولة من لا حيلة له: «لعن الله من أيقظه»!

ولئن كان غياب «بُشرى» الفجائي حصراً هو ما يستدعيني لحديث سريع من الذاكرة عنها، لنا جميعًا، فإنّ ذلك يشفّ بكيفية ما عن مبلغ استغراقنا في الإنقياد وراء «عادات» ضارّة، تظلّ غير مألوفة في المطلق، تمّت تبيئتها في حيّزنا الثقافي.

لعلّ انشغالنا بالحياة – حياة الفنّان وحيوية إبداعه في هذه الحالة – عن الحاجة والضرورة إلى الكتابة والكلام حول اللحظات والمواقف المشرقة في مسيرته، فيه نصف العزاء. وهذا ما يُعوّض عن عدم الإلتفات، من باب أولى، إلى ما أبدعته «بُشرى» طوال سنوات عديدة، متصلة، فوق أرض ثابتة، صلبة، من حضور فنّي متميّز، بل شديد الخصوصيّة، مسرحيًا وسينمائيًا، بصورة فردانيّة وإنسانية، حين كانت حياتها عامرة بالحيوية.

ولعلّ هناك خلفية أخرى لهذا التقصير، في لاوعينا – إن لم يكن في وعينا التام –، هي نفسها التي تحيل إلى كون بُشرى قرمان من صنف الفنّانين المبدعين الذين يؤثرون العمل في منأى عن الضجيج الفارغ، الأجوف. إنّه الصنف الذي لا ينِي يعمل بصمت ينطوي على أصداء مدوّية تتغلغل عميقًا عميقًا في الأرض الطيّبة، تمامًا مثل المياه الجوفيّة المختزنة، جيلاً وراء جيل، دون أن تفتقد ضرورتها وقت الحاجة. هذه الأصداء لا يُمكن أن تذهب هباءً، كما أصداء إبداع «بُشرى» الفنّي، بدليل صيرورتها من مستحقات الغياب.

بدأ مشوار «بُشرى» المسرحي مبكرًا في «مفكرتنا» الثقافية – الفنّية، التي تعرّضت لمحاولات جعلها لاتاريخية، في سنوات عجاف تراءت ضنينة بالثقافة عمومًا، فما بالكم

به ترف » الفن المسرحي . ومن هنا نرى إلى احتفاظها بموقع في الطليعة الثقافية . وإنّ مراجعة معمّقة لما أسهمت به في هذا المضمار لا بُدّ أن تعطيها موقعًا مخصوصًا بين فرسان تلك الطليعة، لأسباب ذاتيّة أكثر من الأسباب الموضوعية المتعارف عليها . تتمثّل الفروسيّة هنا، آنذاك، في الإصرار، المسبق الإختيار، على أن تكون نطفة الإبداع محصّلة معرفة واعية بأنّ تراكم التجربة يستوجب الإحتكام إلى معيار النوعيّة . بكلمات أخرى، يكتسب التراكم زخمه المشتهى لا من الإستحضار وإنّما من النوعية أولاً، ومن النوعية أخيرًا . وأكاد أجزم بأنّ هذا هو ما جعلها تصرف النظر، مسلّحة بوعي غير مطمئن، عن الكمّ . ولذا فليس من قبيل المجازفة القول الآن إنّ ما يتبقّى من بُشرى قرمان – الباقي فعلاً بعد رحيلها – هو منجز نوعي في مسرحنا الفلسطيني المحلي، كما في السينما .

هذا المنجز تيسّر، أيضًا وأيضًا، بفضل ما تميّزت به من استمرارية مدهشة في خوض معترك الفن، بداية في المسرح ثم في السينما . في البلاد وفي الغربة . وينطبق على الأدوار التي أدّتها حكم المقدرة الفائقة على الإحتفاظ بما يمكن اعتباره بسطًا لقضية القيم والمثل الإنسانية، خصوصًا القيم القارّة مثل الحرية والعدالة .

وإذا كان جائزًا، في مقام كهذا، إطلاق حكم شخصي للغاية أقول : حَسْب بُشرى قرمان أنها رسّخت في أذهاننا صورة « أم الروبابيكيا »، تلك الشخصيّة / النموذج في أعمال إميل حبيبي، بطابع يحمل بَصْمتها . فما زال حديثنا يتناول المسرح . والصورة المسرحية هي الصورة الأولى في هذا العمل الفنّي، أكثر من الفنون التشكيلية، وأكثر من السينما والتلفزيون، لكونها صورة مصوّرة ومبتكرة .

ناقد وباحث فلسطيني مقيم في عكا / الجليل

جورج خليفي

جعلتُ أتأمّلها بعجب

بداية المعرفة ببشرى كانت في أول السبعينات . كنا قد اعتزمنا إنتاج مسرحية « زغرودة الارض »، التي كان سهيل أبو نوارة قد انتهى لتوه من كتابتها .

دون التطرق إلى الظروف التي اتخذ بها القرار، أقول إن مخرجها، أنطوان صالح، فارق هو الآخر عالم الأحياء في ظروف شجية .

وقتها عرّفوني، للمرة الأولى، على بشرى .

جعلت أتأملها بعجب . كانت في الثلاثين من عمرها، فماذا تفعل هنا – سألت نفسي – في ذلك العمر الذي تكون فيه الممثلات عادة قد تركتنا فيه؟ أزمة المسرح في ذلك الوقت مع الممثلات كانت معروفة .

الذين نستطيع إقناعهن بالعمل في المسرح يكنّ عادة فتيات في المراحل الأخيرة من الدراسة الثانوية، بعد مسرحية أو مسرحيتين، بمعنى آخر، سنة او سنتين – فلم يكن المسرح قادرًا على إنتاج أكثر من ذلك – تختفي الممثلة بعدها، إما بالزواج أو بالتهيئة له، أو بالدراسة او العمل .

ان تكون معنا ممثلة تجاوزت ذلك السن بسنوات، وتشارك في العمل بمثل ذلك التفاني، معناه أننا أمام ظاهرة نادرة لفتاة تحب المسرح حبًا حقيقيًا .

ذلك الإنطباع الاول عنها، لم تزده الايام إلاّ رسوخًا . وعندما تحوّل التعارف إلى صداقة، كان أحد اعمدتها جدّية تلك الممثلة في علاقتها بفن التمثيل، المسرحي والسينمائي والتلفزيوني . ذلك كان يرسي في المخرج، أو في القائمين على العمل، إطمئنانًا في جانب لطالما اثار فيهم القلق . لم تكن لها دالة النجوم، فقد كانت أكثر رقيًا من ممارسة الدلال، ولا كان لها صراعات وتقلّبات المزاج التي تنبع عن الضغط الذي يعيشه العاملون في هذا المجال، بسبب صعوبة الظروف التي يتم فيها العمل حتى يومنا هذا . طبعًا كانت لها ظروفها الخاصة – مثل أي إنسان – لكن نادرًا ما انعكست على العمل .

بشرى كانت تؤمّن، إذن، للفريق الذي تعمل معه، عدة مزايا: الرقي والشفافية، إنسانيتها في علاقتها بالآخرين، إخلاصها، وأنها إذا أخذت على عاتقها دورًا، كرّست له نفسها، وأراحت الفريق من بهلوانيات تطويع برنامج العمل لرغبات النجمة أو للمحدوديات الاجتماعية، أو لارتباطاتها الأخرى، مسرحية كانت أم خاصّة.

ما سمعته عن مشاكل واحتكاكات في الأعمال التي اشتركت فيها بينها وبين أفراد الطاقم الآخرين كان نادرًا.

بعد فترة التعارف الأولى سافرت أنا للدراسة في بلجيكا، وسافرت هي إلى الولايات المتحدة. لم أعد أسمع أخبارها إلا لمامًا. ثم عادت إلى الذاكرة، عندما شرعنا في إنتاج فيلم «عرس الجليل» لميشيل، شقيقي.

كان ميشيل قد قرر المزج ما بين الممثلين المحترفين وبين شخصيات من الحياة العادية، وكان البحث عن هذه الشخصيات مضنيًا.

عندما طرح ميشيل قضية دور الأم، أبديت قناعتي باستحالة العثور على أم حقيقية، ليست ممثلة، تقوم بالدور. وكان ميشيل يعتقد الرأي نفسه. لكن من أين نأتي بممثلة، قادرة على حمل الدور، وأيضًا من عمر مناسب؟! كان ميشيل يفحص إمكانية استدعاء ممثلة أجنبية. لكنني تذكرت بشرى. ميشيل لم يكن يعرفها – لم يكن قد التقى بها من قبل. لذلك ظل مترددًا، فاقترحت أن يجرّبها.

كانت تعيش وتعمل في الولايات المتحدة. سأل ميشيل ان كانت ستوافق على ترك عملها من أجل الفيلم. تذكرت، وذكرت له، فترة إنتاج «زغرودة الأرض». كنا طاقمًا موزعًا بين القدس وحيفا، لذلك كنا نتدرب أسبوعًا في القدس وأسبوعًا في حيفا، وكانت بشرى أقلّنا تذمرًا من ذلك، بل كانت تضع سيارتها، بوقودها، تحت تصرُّف الفريق. ننتقل بها بين المدينتين. وكانت تتابع المراجعات مهما طالت وأوغلت في الليل.

إتصل بها ميشيل، وصحّ ما توقعتُهُ. وافقت على قطع مسار حياتها اليومية، وتجشّم السفر، دون أن تضع مطالب خاصة. وعندما جاءت وأجرى ميشيل معها بعض التجارب، تحقق من أنه وقع على الممثلة الملائمة، التي ستعطي الدور ما يستحق من القوّة والرقي. أدرك أنه أمام ممثلة بمعنى الكلمة. وما زال ميشيل يحفظ لي جميل إصراري عليه ان يجرب حظّه معها، وما زلت أحفظ له ولـ«عرس الجليل» جميل إعادة اللقاء بها، لتكون بداية لصداقة حميمة، دافئة. فقد مثّلت في فيلميه التاليين: «نشيد الحجر» و«حكاية الجواهر الثلاث».

لأنها ممثلة لا تحب تحديد نفسها بدور معين، أو بخط معيّن، بل ترفع تحدي أي دور،

مثّلت في مسلسل «بيت أبو يوسف»، وهو مسلسل «تطوير اجتماعي» مبني على نمط كوميديا المواقف Sit Com. كتبتُ أنا المسلسل في جزئه الأول وقمت بإخراجه. وأدّت فيه دور امرأة في الخمسينيات، حشرية، مؤمنة بالخرافات، لكن طيبة القلب والنيّة.

على النمط نفسه اشتركت في اسكتشات اجتماعية لـ«تلفزيون القدس التربوي»، من إخراجي، وكانت آخر عمل تلفزيوني تقوم به.

كان يُفترض أن تمثل ١٢ اسكتشا. بسبب الأحداث في السنتين السابقتين، لم ننجز حتى بداية هذا العام سوى أربعة من الإسكتشات، ثم توقفنا، أولاً لانها كانت في المراحل الأخيرة من مشاركتها في مسرحية «لا، لم يمت» للشاعر الراحل حسين البرغوثي، وثانيًا لانه كان علينا انتظار انتهاء اجتياح الجيش الإسرائيلي لرام الله.

عن الإجتياحات والاقتحامات، كنت اقول لنفسي إنها غيمة صيف عمّا قليل تنقشع، واقول لها أن تكون مستعدة لاستئناف العمل، وتقول لي إن عليّ أن آخذ بعين الاعتبار عروض «زغرودة الأرض» في إنتاجها الجديد، وربما تدريبات مسرحية أُخرى في الطريق. لم يخطر ببالي، قط، أن المرض كان يستفحل، وأنه على وشك أن يعلن نفسه بالطريقة التي أعلنها.

سالتني جارة لنا، تعمل مع إحدى قريبات بشرى، إن لم اكن سمعت أن بشرى ليست على ما يرام.

بشرى نفسها لم تبلغنا، لأن الجيش الإسرائيلي كان قد اجتاح رام الله، في نيسان، إجتياحه المدمّر والدموي. كانت بشرى تقدّر أن في ذلك من الهم ما يكفينا، ثم من كان يعرف أن ما بدا كوعكة عادية لمن هو في سنها، سيتكشّف عن مرض سريع القتل؟

هاتفناها. كانت تصف ما حدث لها، والخطوات المتخذة للفحص والتشخيص، كأنها تقدم تقريرًا، وسرعان ما تنتقل إلى السؤال والإطمئنان عنّا وعن الأولاد تحت القصف ومنع التجول.

تعاملتُ أنا، ومنى زوجتي، مع الأمر تعامل من لا يريد حتى مجرّد التفكير أن ما حدث هو أكثر من وعكة عابرة. كما كانت تقول الوالدة عليها الرحمة «مرض وعافية ياما أحلى».

وكنّا، فعلاً، متركّزين بما يحدث هنا. نسمع القصف ونحاول تحديد موقعه. فإذا اقترب منا، انهمكنا في طمأنة الأولاد منه والدخول معهم في رفق إلى الإعتياد على هدير القنابل والصواريخ، تطلق من التلة المجاورة لبيتنا.

بدأ الوعي بأن المسألة ليست بالبساطة التي كنا نرجوها، عندما بدأ الحديث عن عمليات جراحية، وعلاج بـ «الكيماوي» والاشعة، ثم الحديث عن السفر إلى الولايات المتحدة. قالت منى إنه لا بد من السفر لعيادتها، لكن ما العمل ومنع التجول يُطبق علينا، والجيش الاسرائيلي قد بدأ حملة تفتيش المنازل بيتًا بيتًا، وأصبح مؤكدًا أنه في كثير من الحملات التفتيشية، عاث خرابًا في البيوت، وانتهب فيها ما خفّ حمله وغلا ثمنه؟!

قلت لها: إصبري حتى يمر هؤلاء بنا ثم لن يحول حتى منع التجول بيننا وبين زيارتك. لكنهم تأخروا، وكان عليها الرحيل، واتصلت تودعنا. معي حافظت على تقريريتها ما استطاعت، ومن جانبي، لم أعرف ما أقول، لأن كل عبارات التطمين بدت عادية وفارغة. وكانت في حلقي غصّة، فضّلت معها أن انقل سماعة الهاتف إلى منى، وانتحيت جانبًا.

سرعان ما انخرطت هي ومنى في البكاء وهما تتودعان، فاوغلت في الإنتحاء جانبًا.

هكذا سافرت رحلتها الأخيرة دون أن نراها، وأُعزّي نفسي بأن صورتها التي ستبقى في مخليتنا، هي صورة اللقاء الأخير بها.

كان ذلك ليلة عرض «لا، لم يمت» في رام الله. بعد العرض، مباشرة، ذهبت لاهنّئها. كانت متعبة، لكن مشرقة. سألتني عن رأيي، فامتدحت المسرحية، وتمثيلها لدورها. كانت، فعلاً، جيّدة في عملها الاخير هذا، كما في غالب أعمالها.

كان في العرض كاتب المسرحية حسين البرغوثي، وكان، هو الآخر، في المراحل ما قبل الأخيرة من صراعه الطويل، المضني والشجاع، مع المرض. كان يضع على أنفه وفمه كمّامة طبية، لأن العلاج الكيماوي كان قد أضعف جهاز المناعة عنده، وكنت أتأمل هذا الرجل القويّ، يتحدث معي عن المسرحية، دون أن يذكر مرضه وصراعه معه بكلمة. لم يكن راضيًا عن كتابته للمسرحية، وكان يتمنّى لو أتيح له إعادة كتابتها. كان حتى وهو في خضمّ معركة البقاء، حريصًا على الكمال.

أما بشرى، فكنت أتحدث معها عن استئناف إخراج الاسكتشات، ونخطط لذلك. وكانت زاهرة ومتعبة، وكانت تلك آخر مرة أراها وأرى حسين البرغوثي.

سنوات الصداقة والعمل المشترك لا تمّحي، وهي معين لا ينضب للذكرى. وهي ترقد الآن آمنة في مرتع طفولتها الجميل. كانت قد أعدّت فيه بيتًا صغيرًا، عشًا لما أملت وأملنا أن يكون سنوات اطمئنان واستقرار وأيضًا إبداع. فمنذ ثلاث سنوات، أنهت التزاماتها إلاّ تجاه فنها. وكنّا نتوقّع من ذلك خيرًا عميمًا: فمجالنا – التمثيل – لا يحظى دومًا بإمرأة ناضجة، راقية، فنانة، متفرغة لفنها، متحرّرة من أي التزام آخر، حتى التزام العائلة. فهي – التي أدت في حياتها، ومنذ صباها، دور الأم – لم تحظ بالأمومة.

كنا قد وعدناها بالزيارة في الربيع: فالطبيعة في إيطن – قريتها – مُذهلة في جمالها في الربيع. وكانت تقول: تعالوا نتمتّع بالطبيعة ويلعب بكر وتيم – أولادنا – في هذه المرابع.

سنأتي في الربيع، وسيلعب تيم وبكر هناك، وسنجلس إليك، وسنكرر ذلك ما أُتيح لنا التكرار. فهل ستجدين الوسيلة لإعلامنا أنك تنامين بسلام، وتبتسمين لسماع زقزقة الأطفال والعصافير حولك، يوم نزورك، وكل يوم؟!

مسرحي وسينمائي فلسطيني من الناصرة، مقيم في رام الله / فلسطين

ما هو ذلك السحر..؟!

رفيقتي بشرى.

عرفتك بدايةً، في أيام الصغر. كنت أتجوّل مع عائلتي بين بيت والدك الحاج عبد الرؤوف وبين بيت أخيك كمال. كنا نجري ونلعب في الأراضي الخضراء الواسعة المزروعة بالشجر، بين الورود والدجاج والماعز.

كنتِ غالبًا هناك. فتاة واثقة جميلة فخورة، تحيطك هالة من الجمال والأصالة. مرّت السنين، والتقينا هنا وهناك صدفةً، على فترات متباعدة. لكنني شاهدتك على خشبة المسرح وأدركت أنك امرأة مميّزة، قويّة، مستقلّة، واعية، معطاءة، محبّة، وقادرة على تحقيق ذاتك.

اليوم، أسأل نفسي بعد غيابك الأبدي، ولكن الجسدي، عنا: ما هو ذلك السحر الذي أحاط بك. ما هو منبع البسمة والضحكة الساحرة التي ارتسمت دومًا على وجهك. من أين ذلك النور الذي انبعث من وجهك وعينيك؟

أعود إلى أيام بلجيكا. حين أقمنا سوية (٤٠) يومًا في تلك الغرفة الواسعة ونحن نعمل على مسرحية «الموجة التاسعة» مع فريق فلسطيني - بلجيكي مشترك.

دخلنا الغرفة وبدأت الترتيبات، أخذتِ لك سريراً وجلت في الغرفة عدّة مرات. حرّكنا بعض الأثاث وأعلنّا بهذا أن لكلٌ منا مساحتها الخاصة في الغرفة. دخلنا المطبخ الضيّق والحمام، وملأتْ أغراضك الرف، من عطور ومساحيق وصابون وڤيتامينات، وما فاض منها وجد مكانه على حافة رخام المطبخ، وأنت تشرحين أهمية كل غرض منها.

خرجنا لنكتشف ما حولنا وإذا بك تشترين كمية هائلة من القوارير. سألتك: «ما هذا يا بشرى، فنحن هنا لفترة محددة سنعود بعدها إلى بيوتنا». وأنتِ، ملأتِ الغرفة بالقوارير والأزهار.

وفي اليوم التالي بعد عودتنا من المراجعة وبعد أن سألتِ البلجيكيين عن سوق الأقمشة،

ذهبنا لتشتري ستائر ملوّنة بروح عربية. وضعتها على الطاولة، على حواف النوافذ، على السرير، في المطبخ، على الثلاّجة.. تحوّلت الغرفة إلى بيت دافئ.

راقبتك كيف لمستِ وجهك صباحًا ومساءً. كان مشهدًا ساحرًا من الحب والحنان. تتزيّنين بذوق رفيع وأنت تتأمّلين تفاصيل وجهك في المرآة. وفي كل مرة، أخيرًا، كنتِ تخطّين عينيك بالكحل العربي الاسود، تعودين وتتأملين نفسك بنظرة شبه آمرة وكأنك تأمرينها ببدء اليوم بحيويّة. كنتِ دومًا تحبّين نفسك بحبّك للحياة.

تمشين إلى العمل، وقد أحاطك شال من الحرير، وكأنك جندي خارج إلى البطولة. في غرفة المراجعات أراك بين الغناء والرقص والترحال من عالم إلى آخر، والإصرار على استيضاح كل شيء، كأنها مسألة حياة أو موت. كانت تلك صورة لا أخلاقية فريدة.

حين نعود إلى البيت الدافئ ونحضّر طعامنا، كنتِ دومًا تصوغين الترتيب، كل غرض في مكانه «عالأصول». لم تجلسي إلاّ بعد التأكد من كل التفاصيل.

في الليل أحببنا الخروج لكنك حدّدت دومًا ساعات السهر، مُردفةً أن علينا النوم ساعات كافية حتى نعطي أجسادنا حقها من الراحة، وكي نستيقظ براحة ونشاط للمراجعات والعمل.

كثيرًا ما أزعجك إبني ربيع في منامك. كان يريد أن يسمع حكاية منك. يخرج من جانبي ويحبو «متعمشقًا» سريرك ليستقر بجوارك. تروين له حكايات وتلاعيبه، ثم: «إذهب إلى أمك ونمْ. هيّا. إذا لم تنم فسأرسلك إلى بيت الجيران». كان ربيع يضحك وكأنك تروين له نكتة. «هيّا»، ولكنه يضحك ويضحك..

ممثلة فلسطينية مقيمة في حيفا



جديلة الكستناء

في تلك اللحظة بالذات، حين هجعت الطبيعة إلى السّكينة كان الوداع. وقف الجميع في ذهول على تلّة معزولة، بعيدة عن ضوضاء الدنيا، أمام المغيب الأبديّ. مشت الأميرة من الأسطورة إلى الأرض حافية. حرّرت جديلتها الكستنائية أمواج سنابل، وأسلمتها لنسيم آخر صيف. كحّلت عينيها الذابلتين بثرى أرضها ونامت مطمئنة على نفسها بعد ترحال مرير.. نامت هي والصمت. وغطّاها أصدقاؤها ومحبّوها بأكاليل الورود عروسًا راحلة قبل أوان.

لم تصدّق أبدًا أنها ستثرى مهد طفولتها في لحظات اليأس. صارعت روحها الموت وبقيت تحيي الجسد حتى لحظة العودة، زغردت أميرة الألم وعذابات المرض. بقيت أيامًا معدودة، أحسّت دفء سريرها وعائلتها وجنينتها والأيام الأولى، ثم ودّعت مطمئنة.

لماذا مع الغروب؟ وقد أصبح بيني وبينه في الآونة الأخيرة سلسلة صور. عرفت أنني لن أستطيع أن أعيش مُحايدة مع الأفق الدامي بعد الآن، بل منذ مدة ليست بقصيرة. لم يعد الغروب نفسه محايدًا كما كان. لم تعد أشكال الغيوم المُتشكّلة عند الشّفق بريئة. دمية جميلة بفرو قطني، كلب أو قطيع خراف. صار ترتسم وجوهًا. وجوهًا.. وتتلوّن حكايات. مرّة وجه شهيد عرفته، ومرة وجه طفلة شهيدة، ومرة وجه أمّها، وحكاية و..

صرت أقرأ كفّ الأفق عند الشّفق كما تقرأ العرّافة الغد في فنجان قهوة.

لماذا جاء رحيلك مع الغروب؟ غروب آخر. كل غروب يحتفي بوجهٍ آخر بطقس أزليّ سرمديّ. وجوه.. وجوه في الأفق تناديني. تصرخ أحيانًا، وحينًا تصمت. لماذا مع الغروب؟ أهوَ انصهار في الطبيعة، أهوَ سرّ العود إلى الثرى كما البدء؟.. والمهم، لديك العودة إلى حضن «إبطن» ليضمّك ثراها الحاني، كما ضمّ ثرى يافا ابراهيم أبو اللغد العائد ولو بعد الممات ليرتاح بمربع طفولته.

اشتعل قرصُ الشمس. سقط لتُطفئه مياه البحر. حضرت بوجهها السّمح بُشرى حياة.

«بشرى قرمان في «أم الروبابيكيا»، ١٩٩٢ - عدسة: موريل دربيلر

– لماذا قصصت الجديلة؟.. أين جديلتك؟ أضعتِها في أمريكا الغريبة؟

– هكذا، قصصتها. جليتها معي.

لكنّ الجديلة عادت إلى رقصتها. طارت فوق شرفة الياسمين بنزقٍ لتقطف «حفنة» يفوح شذاها في الغرفة.

– خذي ضعيها في «عبّك»..

وتركت «حفنة» أخرى تسبح بيضاء في وعاء البلّور الأزرق الممتلئ بالماء ليفوح عبقها كلّ الليل، وأنا نائمة في بيتها.

أصرّت أن أكون ضيفتها تلك الليلة، أخذتني بعد إنهاء المراجعة في «المسرح الناهض» في حيفا لمسرحية «كلّهم أبنائي» لآرثر ميلر. وقد فرحنا لأن المخرج إسم معروف (بيتر فراي) وسيكون العمل معه مفيدًا ومثيرًا.

– ماذا أقول لأبي؟ سيغضب ولن يعجبه ذلك!

– هاتفيه. – هيّا، وأنا أكلّمه. ها، ارتحت؟!

وأنا الصبية اليانعة الخجولة إلى حدٍ ما. بنت فقراء، مقارنة بها، تأخذني الأميرة في سيارتها الخفيفة الظّل «القُرقعة». تصل القرية، نعبر السهول، فأشمّ رائحة الأرض ويصل إلى مسامعي صرير الحشرات البرية، تستقبلنا بوابة كبيرة مقنطرة في السور وعتم الليل، ندخل ساحة مربّعة فسيحة، توقف سيارتها ونصعد على رؤوس أصابع أقدامنا.

«أمّي في تركيا. أختي تسكن الطابق السفلي».

سرّحت جديلتها الحرير تحضيرًا للنوم، وأنا مبهورة بلون شعرها وبطوله. تحوّلت إلى أميرة من «ألف ليلة وليلة». جمعته في قبعة خاصة مزركشة منمنمة، تمامًا كالتي رأيتها في الأفلام الأوروبية تلبسها البطلة في أثناء النوم. لكن انبهاري كان أكبر في المرة الأولى، أنا وصديقتي رسميّة. كنا في مراجعة لمسرحية «الزوبعة» ذات نهار، عندما سقطت من رأسها فجأة جديلة جذلى ارتطمت بظهرها وترنّحت ذات اليمين وذات اليسار حتى اطمأنّت أخيرًا بين يديها وكأنها التقطت طيرًا. صرخنا بصوت واحد: ألديك جديلة؟ لا نصدّق! كيف ضممتها فوق رأسك بحيث أننا لم نكتشفها..

– هكذا (بدأت تُرينا كيف تصفّفها وهي تضحك بطفولية).. أضع دبوس ستّي على «الكعكة».

– دبوس واحد، تضمين كل الجديلة الطويلة به؟ غير معقول، يا الله..

خملقنا غير مصدّقتين وبُشرى تبتسم فتشعّ عيناها ببريق كستنائي. كان ذلك قبل ثلاثين عامًا. وكانت الأميرة تدعم مسرحنا وترافقنا في العروض أحيانًا.

آنذاك، في أثناء عرض في شفاعمرو لـ « الزوبعة » في مدرسة الراهبات، أحسّت معي، بإنسانيتها المعهودة صاحبة القلب الرقيق، فأرادت أن أرتاح قليلاً قبل العرض في بيت قريبتها. شربنا عصير البرتقال الطازج المثلّج وقد خلا البيت من أصحابه. كانوا في رحلة إلى إفريقيا..

رنّت ضحكة بشرى العذبة في بيتي عندما صاحت ابنتي مرعوبة والتفاحة المقضومة بيدها:

– إيه، سنّي انقبع وبلعته..!!

– لا تخافي. معلش. ثمّ غمزتها بشرى ووشوشت: بِتْزَل!!

ضحكنا مقهقهتين وغاب خوف طفلتي بسرعة.

اغرورقت بحيرتا الكستناء ونحن على مائدة الغداء في فندق بالقدس، قبل عرضها المسرحي « لا لم يمت » لحسين البرغوثي الذي لم يمت، لمجرد إجابتي على سؤالها في أمر يخصّني. فأخذتُ ثانية بحنوّها ورقتها.

تمنيت أن يمهلوها لحظة أخرى فقط قبل أن يغيب وجهها في الأبيض البارد. لحظة أخرى فقط، سمعت قلبي يصيح. في اللحظة الأخيرة عندما اختفى وجهها تساءلت: أإنتهى الأمر؟ أهذا هو الموت.. ففهمت كلمات الخنساء وتمزّق جلجامش في تساؤله الصارخ.

رأيت الأبيض. طرحة زفاف « أم الروبابيكيا »(*). عادت، وعادت الجديلة عند الغروب. شاهدتها تطير، تترنّح، ترقص، وقد أصبح لها جناحا عصفور حتى أوصلتها إلى منامها الأخير، ثم نامت بجانبها.

وصمتت الجديلة.

ودعتكِ شرفة الياسمين. صمت السّهل وأشجار الصنوبر والبدويّات الحزانى إجلالاً لمرورك. اطمأنّت صديقتك الوفيّة على المكان الذي « يُحوِّطك ». تطاولت بعنقها الواجم فوق السور. سهول وديعة ساكنة، كأنّ العالم الآخر بدأ هنا. شجرة المَلّ الوارفة ستحنو عليك والعصافير جيرانك، يا جارة الياسمين.

أشكال الغيوم المرتسمة بألوان الغروب لم تعد بريئة. يقلّ عدد الناس الذين نعرفهم. تتّسع وحشة الكون. ونحن ننتظر أن نلتقي ثانية، ذات غروب..

(*) مسرحية الراحل إميل حبيبي، وكانت بشرى قرمان قدمتها في الأعوام ١٩٩٢ – ١٩٩٣.

ممثلة فلسطينية مقيمة في عكا / الجليل

بُشرى

لقد فرضت علينا الحياة أن نستسلم لفكرة الموت. إنها لحظة التداعيات لشريط ينبّهنا وينبّه حواسنا، لاستذكار ما فاتنا في لحظات إبداع الحياة، التي كدنا أن نلمسها بايدينا وبوعينا، وصدّقنا أن الحياة في متناول أيدينا ومتناول وعينا.

قالوا لي، سنة ١٩٧٧، إن السيّدة كرار في مسرحية برتولد بريخت «بنادق السيّدة كرار»، شخصية يمكن ان تمثّلها فقط فتاة.. إمرأة.. ممثلة إسمها بُشرى.

وحين التقيتها، لا تعرفُني ولا أعرفها، اكتشفتُ حينها انها المرأة البريختية، وعرفت هي بدورها أنني المخرج البريختي. وتعانقت معرفتي ببريخت مع حسّها التلقائي ببريخت.

حضرت إلى لقائي بها مع سيارتها الزرقاء «الخنفساء»، ومع جديلتها السمراء التي لم تبعد مسافات كبيرة عن سحنتها القمحيّة. فأنا المسرحي القادم من بلاد البياض الثلجي، ومن برودة «الإنسان الحضاري»، ألتقي ببشرى المدرّسة القادمة من مدرستها بعد سبع حصص مع تلاميذ، فقط الله يعرف كم انهكوها لتوصل إلى عقولهم معرفة اللغة الإنجليزية ومعرفة الحياة التي تتعدّى اللغة.

أشرح لها أنني، المخرج المسرحي الطازج، يود أن يعمل معها لتوصل معرفة أخرى لجمهور مُسيّس، ولكنّه لا يعي معانٍ كثيرة، ولا يعي صراعات وتناقضات تكاد أن تحرق ما توصّل إليه من معرفة حياتيّة. وكانت البشرى أنها استعدّت أن تخوض التجربة.

رغم عدم إيماني بالهرطقات والمعتقدات الوهميّة التي نتبنّاها في لحظات اليأس ولكنني وجدتُ وعيي وإحساسي يسريان مع بُشراها، أنّنا نستطيع أن ننقذ العمل البريختي أمام جمهور تعوّد على تلقي الهرطقات الإحساسيّة والتعاطف اللامُتناهي مع الحدث والشخصيّات. وقلتُ لنفسي آنذاك: «أين أنت يا بريخت لتتعرّف على ممثلة بحثتُ عنها في ألمانيا وهي متواجدة وموجودة في الجليل»؟!

أجلسُ إلى طاولتي في مكتبي البيتي وأنا أستذكر بُشرى لا لأستسلم لفكرة الموت، بل

لأستسلم لفكرة الحياة.. أعرف أنّك كنت طيّبة وكنت إنسانة أمام نفسك وأمام واقعك. وأعرفُ أنّك أردت أن تهبي حياتك للمسرح، ولكنّ المسرح خانك كما يخوننا الآن. الخيانة، يا بُشرى، متجذّرة في عُقدة الإنحطاط التي نعيشها ونعايشها والتي نخلقها نحن.. لم نتوصّل بعد إلى الموازنة بين أنانيّتنا وبين «المصلحة العامّة»، هذا الإصطلاح الذي بدأتُ أكرهه، وبدأتُ أمقته. لأنه لن يكون بمقدورنا أن نتخلّص من عُقدة الوعي المهزوم.

إسمك بُشرى.. ونحن ننتظر بُشرى وعينا. نحنُ، يا بُشرى، ما زلنا نترصّد لبعضنا البعض. ما زلنا ننتظر سقوط الآخر. وما زلنا ننتظر سقوطنا الجماعي لكي نقع فريسة أمام أنفسنا أولاً، قبل أن نقع فريسة جاهزة أمام الآخر الذي يُريد نفي روحنا وجسدنا. نحن نترصّد لوعينا لكي نهزمه مرّة أخرى، لكي نضمن هزيمة وعينا الأبدية. مصيبتنا أننا نُحاول أن نتوغّل في ذاتنا حين نفتقد من أحبّونا ولا نستطيع أن نتوغّل في ذاتنا حين نعي أنّنا نحبُّ من يحبوننا في الحياة.

لقد قُلتها في أمسية ذكرى أربعينك: «إنّ موت الفنانين الكبار هديّة للفنّانين الاحياء. ولكن الأحياء لا يُريدون أن يتعلّموا وأن يعوا فكرة الموت، فكرة موتك أنت. لم نكن إلى جانبك، وخفنا على وعينا جرّاء الإقتراب من عملية الموت التي، ربّما، لو اقتربنا منها «جماعة» لاستطعنا أن نقترب من عملية الحياة».

بُشرى! لا بُشرى لحياتنا إلاّ بُشرى الإيمان بإبداع حياتنا.

مسرحي وكاتب فلسطيني مقيم في الناصرة

داليا رابيكوفيتش

دُميَة آليّة

في هذه الليلةِ كنتُ دُميةً آليّةً
تمضي إلى اليمين، واليسار، وكلِّ الاتجاهاتِ،
تسقطُ، أرضاً، على وجهها، تتشظّى
بيَدٍ ماهرة حاولوا وصلَ الشّظايا .

ثمّ عُدتُ دُميةً ملتحِمة
وصارت كلُّ عاداتي متّزنةً ومنضبطة،
لكنّني أصبحتُ دُميةً مختلفة .
مثل غُصنٍ مضروب، ما زال عالقًا في محلاقه .

بعدما ذهبتُ للحفلةِ، للرّقصِ
لكنّهم تركوني بصُحبةِ القطط والكلاب
أمّا خطواتي فكانت متّزنةً ومُنتظمَة .

وكان لي شعرٌ ذهبيٌّ وعيونٌ زرقاء
وثوبٌ بلونِ الزّهورِ التي في الحديقةِ
وكانت قُبّعتي من القشِّ المزيّنِ بالكَرَز .

مجلس بابس
للثقافة والفنون

[redacted]